شوقي عبد الحكيم

مدخل لدراسة
الفولكلور والاساطير العربية

دار ابن خلدون

بيروت ـ كورنيش المزرعة ـ بناية ريفييرا سنتر
هاتف ٣١٢٣٣٥
ص.ب ١١٩٣٠٨

الطبعة الاولى
١٩٧٨

مقدمة

في القسم الاول من هذا الكتاب ، أردت التعرض بالدراسة لمحاولة رصد ملمح لأطلس عربي للاساطير والفولكلور . لذا آثرت من البداية التعرض للمشاكل والعراقيل التي تقف في وجه أي محاولة ، تجيء من منطلق الدراسة الشاملة لتراثنا الفولكلوري والاسطوري العربي ، وموقعه من الرقعة الكونية .

وبالطبع هناك ندرة ملفتة الجهود المبذولة في هذا المجال أو الحقل على المستوى القومي ، بصرف النظر عن الدراسات المفتقدة الى المنهج ، ويمكن القول سيول الدراسات الغيبية والمغلوطة وغير المدركة للمدى الذي قطعته حركة الدراسات السامية والتي بشكل عالمنا العربي الواسع رصيدها الاعظم .

ومن هنا جاء تركيزي ، على هذه المشاكل المتراكمة الى اليوم ، للمعرفة بالاصول والمكوّنات الاولى لهذا التراث ، سواء من حيث ضياع وافتقاد المدونات ، أو من حيث تهافت المناهج الدراسية القومية ، وسواء من منطلق اعادة التعرف على المنابت الاولى ، لجزئيات ومواضيع وعبارات وخصائص هذا التراث المتوارث المتراكم الحلقات ، تراكم الصخور الجيولوجية .

من ذلك توصل الدراسات الفولكلورية والاسطورية المقارنة ، الى ان هناك أساسا أسطوريا وفولكلوريا عقائديا ولاهوتيا مشتركا لاغلب الشعوب العربية ، بل السامية ، منذ أكثر من ألفي عام ق.م ، سواء فيما بين النهرين ، أو في الجزيرة العربية والشام ولبنان وفلسطين .

فمنابع الميثولوجيا العربية تضرب بجذورها على مدى ٦ آلاف عام ، أي منذ السومريين غير الساميين .

وعلى هذا أفردت جزءا خاصا للتعريف بهذه المنابع الاولى ، خلال وعبر حركة تنقلاتها وانتشارها، ما بين حضارة ــ لا سامية ــ مندثرة ، لأخرى قادمة ، واصلت اكتمالها ــ لغويا ــ وبالتالي تراثيا اليوم .

كذلك كان من المفيد عمل المامة للتراث الاسطوري والفولكلوري لبؤرة العالم القديم في سوريا ولبنان وفلسطين والاردن .

وكذا المامة للتراث العبري ــ السامي ــ ودور اليهود في تدوين هذا التراث ، خاصة في مجموعة التلمودات ، البابلي ، أو الفلسطيني ، أو الحجازي ، بالاضافة الى بقية المدونات من مقدسة ، ومحظورة Apocriha ، ومدى تجانسه ، ولنقل توحده مع تراث عرب الجزيرة لما اصطلح على تسميتهم بالجاهليين .

وبالطبع كان من المفيد أيضا التعرض لهؤلاء الجاهليين ، ودورهم الحضاري ، استنادا الى ما كشفت عنه نصوصهم الحفرية في اليمن وجنوب الجزيرة ، وما سادهم من خرافات وخزعبلات الجن وقوى الطبيعة الخارقة ، التي ما تزال متواترة ، تفت في عضد العقل الغيبي والاسطوري العربي ، بما يعوق كل محاولات الاخذ بشعارات العقلنة ، وبناء طاقات الانسان العربي الذي أصبح يعاني أزمة حضارية محققة .

وأعقبت هذا الفصل ، بدراسة مقارنة بين التراثين المتلازمين السوداني والمصري .

ثم اخترت مجموعة ــ محددة ــ من المداخل أو الانساق أو المنطلقات ، كمقدمة لدراسة الفولكلور ــ متضمنا الاساطير العربية ــ كأساسيات عامة لا غناء عنها لأي باحث في هذا الحقل . بل هي قد تكون ألزم للباحث الاجتماعي في علم وتاريخ الانسان الثقافي ــ الانثروبولجيا ــ بنفس درجة لزومها لجامع وباحث الفولكلور .

فلا خلاف على ان الذاكرة الشعبية الجماعية ، هي ما حفظت

لنا هذا التراث المتواتر منذ طفولة البشرية الاولى ، وهو الفولكلور . وللذاكرة الشعبية ــ تحت تأثير العادة والتوارث ــ حضورها واعجازها لمن خبر التعامل معها ، ذلك انها مخزون متواتر الحلقات، تحفظ أدق دقائق شعائر وممارسات الولادة والموت الاولى الى أيامنا ، بنفس درجة حفظها بما يصاحب التنفس والتثاؤب ، وكل ما يتصل وصاحب الانتقال من النيىء والمطبوخ بالنسبة لمطبخ البخار العصري . كذلك فهي ذاتها الذاكرة الشعبية أو الشفهية التي أسهمت في الكشف عن الكثير من تراث البشرية ، التاريخي أو الحفري الاركيولوجي ، وما من مكتشف اثري ــ مثلا ــ لم يستهد ويستفيد من مخزون الحكايات الشعبية والحواديث وفابيولات الكنوز ــ المقابر ــ المدفونة ، وعالم ما تحت الارض ، منذ د. فلاندرز بيتري الذي دأب على تأكيد ان هذه الخرافات التي كان يجمعها ويستمع اليها من فلاحي الفيوم والدلتا قادته الى اكتشاف ــ كنوزه ــ من الآلاف المؤلفة من البرديات الادبية والفولكلورية والتاريخية التي ينظر اليها اليوم بكل تقدير . والشيء نفسه أشار اليه ماريت ، وماسبيرو ، وكارتر مكتشف عصر توت عنخ آمون ، وغيرهم من الرواد الاثريين الذين عملوا في حفائر ومكتشفات العالم العربي ، خاصة بسوريا والعراق ، امثال : كلوديوس ريش ، وسير هنري لايارد ، اللذين استفادا حتى من ألف ليلة وليلة ، والنصوص الشفهية لفلاحي العراق لألف ليلة وليلة في مناطق أو مديريات الموصل ، وجلجاميش ، ونمرود ، وبقية رحاب العراق .

كما انه لا خلاف على أن اللغة هي حاملة التراث من فولكلوري وثقافي ؛ لذا وجب مراعاة جامع الفولكلور ، لدقائق اللهجات وطرق النطق والصوتيات ، بالاضافة الى علوم صناعتها .

كذلك ففي انقسام حياة أي شعب من الشعوب الى مباح ومحظور ، أو حلال وحرام ، وهو ما تعارف عليه بالتابو ، ما يدعو الى تناوله بالدراسة ، وهكذا بالنسبة لبقية الانساق أو الابنية المختارة موضوع هذا الكتاب مثل خصائص فولكلور القبيلة

والحرب ، وصراع الطعـــام والادام والكلأ ، سواء في الصحراء
الليبية أو الادومية بالاردن ، أو في أغوار الجزيرة العربيةالمترامية .

* * *

وقد يبدو للوهلة الاولى انني انما أهرب من حقل الدراسات
الفولكلورية والاسطورية، لحقلي التاريخالثقافي – الانثروبولوجي –
أو الاثنوغرافي بعامة ، وبين المنهج التاريخـي ، وحقل الدراسات
التاريخية بعامة .

والنظر للفولكلور باعتباره « ماضي حي » ، أو النظر اليــه
باعتباره ثقافة منحدرة ، أو مجرد بقايا قديمة ومخلفات ، تواصل
توالدها الذاتي وفرض سلطانها تحت تأثير العادة والتوارث وغياب
العقل في مجتمعات ما قبل العقل والعلم .

وهذا كما هو واضح يستلزم الاتجـــاه نحو علم الاجتماع ،
وبالتحديد نحو علم الاجتماع البنائي ، وما يستتبعه هذا من تحليل
بنائي ، أي فهم الظاهرات والعلاقات الاجتماعية عن طريق الاستعانة
بالنماذج الفولكلورية ، سواء تلك التي توصلت الى جمعها من أفواه
الناس، وحافظت – قدر جهدي – على فونيماتها ولهجاتها وأساليب
نطقها ، ثم يلي هذا – بقدر الامكان – محاولتي للتعرف على النبتة
الاولى – الشفافية – على ضـوء المدونة ، وعلى ضوء مضاهـات
هذه المواد من شفاهية ومدونـــة ، لما أمكن التوصل اليـه حفريا
أو اركيولوجيا .

وهو على أية حال نوع من « الدراسةالشاملة لحالة واحدة » ،
وهو ما يفسر لنا وجود العلاقة الحميمة بين حاجة وتكاثف البناء
الاجتماعي وعلم ما قبل التاريخ والآثار ونظريات الانتشارية مع عدم
اغفال التأويلات السيكولوجية ، والنزعة الوظيفية التي ترى فـي
كل موتيف فولكلوري ، سواء أكان مثـلا أو ممارسة ، أو كلمة أو
عملا أو شعيرة – يخضع لنظـام التابو – داخــل أي مجتمع أو
جماعة ، وله في النهاية دوره وهدفه الوظيفي لخدمة أغراض طبقية
مباشرة ومحددة .

ولعلني حاولت جاهدا الاستفادة من نتائج هذه المناهج سواء

التاريخية الجغرافية أو الانثروبولوجية أو الشمسية أو الوظيفية ،
أو التطورية ، والديموقراطية ، لدراسة فولكلور بلداننا – التـي
تتكلم العربية – عن طريق التعرض لمكوناته الرئيسية أو انساقـه
أو منطلقاته ، من لغة ، وقرابة ، وتابو ، وذاكرة جمعية ، وأنيمزم
– روحانيات – ، على اعتبار ان مثل هـذه البناءات أو الانساق ،
تلزم باحث الفولكلور ، وان كان أول من نبه اليها – بحق – هـو
الباحث الاجتماعي أو الانثروبولوجي .

ولقد اعتـــادت الدراسات الانثروبولوجية النظر للفولكلور
لا باعتباره علما مستقلا ، بل على انه مجرد فنون كلامية أو فنـون
قول أو آداب شفوية أو الحكايات والاساطير الشعبية .

بل وصل الامر ببعض دارسي الثقـــافة والنظم الاجتماعية
والانثروبولوجيون عامة ، الى حد المغالاة بطرد « مصطلح » فولكلور
واخراجه من مجال العلوم الاجتماعية .

وظل هذا هو الحال السائد منـــذ أواخر القرن الثامن عشر
والتاسع عشر ، في ربط عجلة الدراسات الفولكلورية والاسطورية
بالدراسات والاجتهادات الادبية أو الفلسفية .

وهو موقف أميــل الى الخطأ ، ذلك ان المغـــالطة تتـوقف
عند مجرد استبدال تسميـــة فولكلور ، بالانثوجرافيا كمصطلح
جديد شائع داخل العلوم الاجتماعية . فاذا ما كانت الانثوجرافيـا
هي دراسة الحضارة بعامة ، أي كافة نواحي السلوك الانساني ،
من لغة ومعتقدات ودين وفلسفة وشعـائر وممارسات وفنون ،
بالاضافة الى ما يعتري كل هذا من تحولات .

فهذا بذاته هو حقل الفولكلور والاساطير ، بل ان هذا بذاته
هو مفهوم تيلور ، في مؤلفه الهام عن الثقافة البدائية ، وغوصه في
حقول الخرافات والحكايات وخوارق الجان والمأثورات الشعبية ،
فرغم التوسع في استخدامه لمجالات الفولكلور ، الا انه لم يستخدم
مصطلح فولكلور . ونفس الشيء يمكن ملاحظته بالنسبة لموسوعة
فريزر « الغصن الذهبي » ، وموسوعـــة روبرتسون سميث عن

« الاديان السامية » ، وغيره وغيره من كلاسيكيات العلوم الاجتماعية أو الانثروبولوجيا .

هذا برغم ما أسداه الفولكلور ــ كعلم ــ لحقل الدراسات الاجتماعية ، ولعله من المفيد تصور مدى اسهام الفولكلور في ارساء وتقدم علم الاجتماع ، منذ أن أرسى قوائمه دوركايم ، وما تفرع منه مثل علمي الانثروبولوجيا والانثولوجيا ، وهما العلمان اللذان يوليان اهتمامهما الرئيسي لدراسة علم الانسان الثقافي ، مشتملا على كافة نواحي السلوك الانساني ، على اعتبار ان المجتمعات قد عاشت وواصلت استمرارها ونموها في ظل مختلف البيئات التاريخية ، ومرت بمختلف التحولات ، الا انها لم تتخلّ كلية عن خصائصها الاولى ، ولنقل طواطمها وتابواتها ، التي تعرضنا لها بالدراسة . وكما أجمع علماء العصر الفيكتوري منذ ماكلينان ، وروبرت سميث ، وفريزر ، انها ــ أي الطوطمية ــ ما تزال تحيا وترتع ــ كرموز ذهنية بدائية ــ تحت مختلف الاشكال المتكاثرة لحياتنا الحديثة ، فأنت تجدها اليوم في أعلام وشارات الدول الحديثة يستشهد في سبيلها ، كما تجدها تطلّ برأسها في شارات المحافظات ، والمطبوعات ، والاضرحة ، والملابس والماركات والمطبخ الحديث الخ ...

ولقد أغفلت التعرض بالدراسة لعلاقة الطوطمية بالفولكلور ، بهدف اعادة التعرض لهذا الموضوع على حدة ، خاصة وان المناهج البنائية قد حققت بدراستها للطوطمية نتائج رياضية ملفتة ، وبالتحديد ما توصل اليه العالم البنائي الفرنسي كلود ليفي شتراوس ، الذي انصبت دراسته على علاقة الطوطمية بالظواهر ، أو علم الظواهر . ففي رأيه ان الطوطمية كظاهرة حضارية ، تجيء كاستجابة أو حتمية لظروف ومكونات طبيعية وبيئية . وان هناك علاقة شعائرية أو دينية بين الانسان وطوطمه ، وكثيرا ما تتمثل في الاشياء والمناهج المقدسة ، ولها سلطاتها الملزمة ، وان نظم الزواج في المجتمع الطوطمي لا تخضع لارادة الافراد بقدر خضوعها للقرابة .

فمنذ عام ١٩٢٠ رصد فان جنيب ٤١ نمطا مختلفا للطوطمية

في أستراليا وحدها ، وأثبت ان الكثير منها ما يزال ساريا ، برغم ان جذورها الضاربة ترجع الى الالف الثامن قبل الميلاد . فالطواطم ما هي الا أرواح أسلاف تحيا في الخلفاء ، محافظة على توارث أسماء القبائل الامومية والابوية ، كما أثبت « جنيب » ان الطوطمية ما تزال تتحكم متسلطة على نظم الزواج والطلاق والميراث والقرابة، عند عديد من شعوب العالم خارج الغرب .

وفي طرح التساؤل عن علاقة الطوطمية بالحيوانية والنباتية، يشير شتراوس بأن الحيوان والنبات يمدّان الانسان بطعامه ، والاحتياج للطعام يستلزم المكان ــ أو الوطن ــ في المفهوم البدائي ، كما ان الحيوانات والطيور والنباتات ــ في بعض الحالات ــ تبدو أكثر قوى من الانسان ، فالحيوانات قوية ، والطيور ــ على رأسه ريشة ــ تطير محلقة في السماء ، والسمك والحيوانات البحرية تعوم في أعماق البحار والمحيطات .

فشتراوس يسألنا منذ رادكليف براون ، ويقدم تفسيراته المخالفة لتثقيفية فريزر ، وأنيمزم تيلور ، والبحث عن الاصول عند ماكلينان ، وروبرت سميث ، وأخيرا توظيفية مالينوفسكي . فجميع هؤلاء قدموا تفسيراتهم عن البدائيين ، لكن شتراوس ربط الطوطمية بالتخلف ، حتى داخل مجتمعات ما فوق التصنيع .

* * *

على ان علاقة الفولكلور واستقلاليته كعلم ، بالانثروبولوجيا ، ليست بأكثر قربا أو تطفلا منها عن علاقة الانثروبولوجيا ــ من جانب ثان ــ بعلمي التاريخ وما قبل التاريخ .

ذلك ان الفوائد الكثيرة التي يسديها الفولكلور كعلم ، لكلا علمي التاريخ وما قبل التاريخ ، تتوازى أو قد تتساوى ، مع كم استفادة الفولكلور والاساطير ــ بالتالي ــ من علم التاريخ .

وطبيعي أن يؤدي الامر في تضافر هذه العلوم الى كثير من النتائج المفيدة ، لعل أبسطها ان أي نص شفاهي أو شعيرة أو ممارسة في حياتنا المعاصرة أمكن بالفعل رصدها وتحليلها الى أدنى عناصرها أو اخضاعها للبحث والاستقصاء ، من بحث مقارن ،

وأبحاث تاريخية ، والتوصل في النهاية الى منابتها الاولى ، وهجراتها ، وما صاحبها من تحولات خلال وعبر مختلف البيئات والعصور .

واذا ما قصرنا الامر على مجتمعاتنا وحضاراتنا العربية السامية ، يمكن القول بأن الجسد الاكبر من أساطيرنا وفولكلورنا، أمكن العثور على قنوات منابعه الاولى عند السومريين اللاساميين الذين توارثهم الساميون الاوائل من بابليين وأشوريين ـ سوريين ـ وفينيقيين لبنانيين وعبريين وعرب من شبه الجزيرة ، من شماليين وجنوبيين .

فما من شك في مدى الافادة التي عمت الدراسات الفولكلورية، كعلم ، من المكتشفات الحفرية التي أجريت في مختلف بلدان عالمنا العربي ، من سومرية لاسامية في العراق ، لبابلية أشورية فيما بين وادي الرافدين ، لفينيقية في لبنان وفلسطين ، مثل مكتشفات رأس الشمرا في فلسطين أو أوغاريت في سوريا (اللاذقية) عام ١٩٢٩ ، ومكتشفات البحر الميت الهامة في اسرائيل ، ومكتشفات بيبلوس الاغريقية أو جبيل بلبنان ، ومكتشفات بعلبك، بالاضافة طبعا الى مئات المكتشفات والنصوص السومرية والبابلية والاكادية بالعراق ، ومكتشفات الحفري جوزيف هالفي ود. أحمد فخري في اليمن والجنوب العربي الخ ...

وفيما يتصل بالنظريات والمحكات ، التي يمكن أن ترسي الفولكلور كعلم ، فيكفي بالطبع التقدم الكبير الذي قطعته بعض المناهج الكبرى من جغرافية وتاريخية ، ومقارنة ، في كل مناشطه، من أحاجي وحكايات وملاحم وخوارق وأغان وبالاد ، ولعب أولاد ، وممارسات ، سواء على مستوى الجمع والتنميط أو التصنيف ، أو البحث والاستقصاء بهدف تحديد كل جزئية أو فكرة أو تنميطة أو أيتم أو تضمينة ، تأخذ مكانها في الترقيم على رقعة العالم أجمع .

واذا ما أخذنا بضعة أمثلة ، يمكن ملاحظة ان أساطير خلق العالم المتشابهة عند معظم الشعوب خاصة السامية وما يستتبعها

من خلق الانسان الاول أو القديم من أديم الارض ، أو طين العمق اللاذب ، أو الصلصال أو العلق ، حين أرسلَ الله رسله الطوطمية ـ الحشرية ـ الثلاثة ، لاحضار مادة الخلق ، ونفخ فيها فخرج من دبره ، وهي أفكار حفظت في لعب الاطفال بالطين والعجين ، عن طريق النفخ فيها ، والنطق بنصّ سحري « كوك كوك » .

وكيف ان فكرة الاطفال الموعودين ، الذين يسبق مولدهم أو يصحبه مجموعة خوارق ، لا يخلو منها بطل أسطوري أو ملحمي أو شعائري ، منذ أيل أو كرونس ، حتى ابراهيم ويوسف وموسى ويونس وأدونيس وشعيب ، والعشرات غيرهم ، ممن تصادف تضميناتهم أي جامع ودارس فولكلور بالآلاف المؤلفة . ونفس الشيء بالنسبة لافكار : الجارية المضطهدة ـ هاجر والعذراء ـ وأربعة أركان التابوت أو الدنيا أو العالم ، أو ملائكة العرش الاربعة ، وهم في معتقدنا الشعبي المصري والعربي الاقطاب الاربعة : قطب الغوص ـ أو الغوث ـ ، وقطب البلاوي ، وقطب الرجال ، وقطب المتولي .

فيكفي الفولكلور كعلم ، انجاز مهامه وهي كثيرة شائكة حقا. فباحث الفولكلور مثله مثل باحث علم الحشرات ، عليه أن لا يتأفف من البحث والتشريح في حكايات ومأثورات الطيور والحشرات والهوام من ناموس لنمل لهداهد لجعارين لضفادع لديدان ، خلفت حضاراتها وأقوامها بنفس الاسم في حضارات عالمنا العربي ، مثل الحميرية والكلبية ، بشقيها العربي والعبري ، «كالب» Kaleb بالاضافة الى حضارات ، سوس ، وديدان ، وآلاف الحضارات الطوطمية الماثلة اليوم .

* * *

ولو ان النظرية أو التناول الذي يرى في الفولكلور ـ الآداب الشفاهية ـ نوعا من التعبير « الفوقي » للطبقات المتوارثة صاحبة السلطة أو الارستقراطية ـ الثقافية والحضارية ـ التي كانت تورثها وتبعث فيها بالانتشار وما يخدم مصالحها مورثة اياها جماهيرها ، أو ما عرّفها تونبي بالبروليتاريا الداخلية أو جماهير

الشغيلة ، وهو الرأي الذي طرحه منذ منتصف الستينات استاذنا المرحوم الدكتور علي مصطفى مشرفه (١) .

وأجدني اميل الى جانب الرأي المقابل للمدرسة الروسية المستهدفة البحث عن ملامح الاحتجاج والثورية « للمهانين المضطهدين » ، برغم ان مثل هذا المدخل لا يحقق أقصى منافعه في حالة التعامل مع تراثنا المصري ـ العربي والعبري ـ والسامي بعامة .

فما أندر آداب وفنون الاحتجاج والثورية في مثل هذا التراث الضاغط المتجبر ، المتسق كل اتساق ممكن ، وعلى كافة أبنيته ، لخدمة أهدافه في التجهيل بمصالح جماهير المهانين المضطهدين ، وعلى كافة أبنيته من كوزمولوجية قرابية ، وتشريعية تولي اهتمامها الاقصى لاتساق التوريث والتوارث ، والتراث بعامة ، بما يحقق البنية الطبقية وتراكيبها .

* * *

ولعل بداية تعرّفي على حقل الفولكلور والاساطير ، صاحبت البداية التقليدية طبعا ، أي الشغف بجمع المواد الفولكلورية ، سواء أكانت شفاهية ، أم مدونة تزخر بها وتفيض كتابات الكلاسيكيون العرب أمثال : ابن الكلبي ، ووهب بن منبه ، والطبري ، والمقريزي ، وابن النديم ، وابن اسحاق ، وغيرهم .

فما أن بدأت تحقيق موادي التي جمعتها من شفاه فلاحي مصر على طول قرى مصر الوسطى في الفيوم والجيزة وبني سويف والمنيا ، حتى هالني ان معظم ـ ان لم يكن كل ـ هذه المواد يمكن فعلا تعقبها ـ خلال الزمان والمكان ـ أي على كلا المستويين التاريخي والجغرافي ، وردها بالتالي لمنابتها واصولها الاولى .

وان معظم ـ ان لم يكن كل ـ فولكلور الشعب المصري ، ينتمي في مجمله لتراث البلدان العربية المتاخمة والمجاورة . أي ان هناك حقيقة عربية تتمثل أول ما تتمثل في هذا التراث المتجانس

(١) في تقديمه لادب الفلاحين ـ شوقي عبد الحكيم ـ القاهرة ١٩٥٧ .

الواحد ، الذي يلتقي تحت لوائه المصري القديم ، جنبا الى جنب مع السوري ـ أو الاشوري ـ واليمني القحطاني مع العربي العدناني في السعودية .

بل انه وبنفس هذا المنهج يتلقانا العالم من حولنا ، على خرائط وأطالس الفولكلور العالمية . فلا تفرد هذه الاطالس دراسة مصر بمعزل عن العراق ، ولا الشمال الافريقي بمعزل عن دول الخليج العربي وهكذا .

فلقد أصبحت حقيقة لا تقبل الجدل ، يقول بها عديد من علماء وشراح العالم القديم ، وهو انه لكي نتفهم ونستكشف دور الحضارة المصرية الفرعونية ـ بفولكلورها وأساطيرها ـ على الوجه الصحيح ، يجب أن نتسلسل بادئين بدراسة حضارة وموروثات الشرق القديم عامة ، والشرق الادنى بشكل أخص ـ أو مجموعة الشعوب السامية في اطار حضارة البحر الابيض (١) .

ويتحمس لهذا الرأي كثير من العلماء ، منهم : برستد وجوردن تشايلد وارنولد توينبي ، والعالم الاثري المصري أحمد فخري ، والعالم العراقي الكبير د. جواد علي .

ففي الوقت الذي يجنح فيه توينبي الى عدم جدوى البحث عن بقايا مصر القديمة خلال ثنايا مصر المعاصرة ، يرى كل من د. برستد ، ود. أحمد فخري ، انه من المحتم معرفة حضارة الشرق القديم مجتمعة ، ثم الافاضة أو التخصص في أي حضارة محددة من هذه الحضارات على حدة ، مثل الحضارة المصرية أو القحطانية أو العبرية أو الكنعانية الفينيقية وهكذا .

وهو ما حاولت ـ جاهدا ـ الاخذ به والسير على هداه ، في محاولتي الدراسية هذه ، المستهدفة تعرّف ملامح وموروثات شرقنا القديم أو مجموعة الاقوام السامية ، بقصد تحديد دور ومكان تراثنا المصري الفولكلوري منها .

ويمكن الجزم بأن الاخطاء أو المغالطات أو الغموض ، الذي قد

(١) انتصار الحضارة ـ برستد ـ ترجمة احمد فخري ص ٢ .

يتناب أي حضارة مفردة منها يؤثر في مجموع حضارات الشرق الادنى القديم عامة .

ومعنى هذا ان ضياع المدونات التاريخية لبعض هذه الحضارات المتاخمة يؤثر على بعضها الآخر ، أي ان غموض وعدم وضوح الحضارات القبلية القديمة لشبه الجزيرة العربية بقسميها الشمالي الاسماعيلي العدناني الرعوي ، في مكة والحجاز ونجد ، والجنوبي القحطاني أو اليقطاني في اليمن والجنوب العربي ، يؤثر مباشرة في الحضارة المصرية القديمة المجاورة تأثيرا مباشرا ، وكذا يؤثر في حضارات الشام وفلسطين وما بين النهرين وهكذا .

خلاصة القول انه قد تعارف علماء الفولكلور والانسانيات ، على النظر ودراسة عالمنا العربي كمنطقة متجانسة التراث ، تعرف بمنطقة الفولكلور والاساطير السامية ، والسامية هنا تعريف لغوي — اثنولوجي — اكثر منه تعريف جنسي ، بمعنى انه يتمثل في الاصول اللغوية المتجانسة أو الواحدة التي تصل روافدها المبكرة الى عشرات ومئات اللهجات ، والتي اكتملت اليوم في العربية والعبرية وبعض السريانية .

فلقد اتفق علماء الاساطير والفولكلور على تقسيم قارة آسيا الى خمس مناطق متجانسة التراث ، أقربها الينا منطقتان هما : منطقة الفولكلور والاساطير الآرية وتضم الهند وفارس — ايران — ، ومنطقة الفولكلور والاساطير السامية ، وهي تشمل الشرق الادنى القديم ، أو الشرق الاوسط المعاصر ، أو مجموعة الشعوب التي انتهت اليها وتبلورت اللغات واللهجات السامية ، التي اكتملت اليوم في العربية والعبرية .

وطبعا كان لزاما علي التعرض بالدراسة لكلا التراثين العربي والعبري بالاضافة الى المؤثرات الآرية للهند وأواسط آسيا وفارس، وبالاضافة أيضا للتراثين الهليني والروماني ، نظرا لدورهما المؤثر في مصر والعالم العربي عامة ، ولوجود امبراطوريتهما وبالتالي مؤثراتهما التراثية والحضارية قرابة ١٠٠٠ عام .

وعن هذا الطريق يمكن معرفة تراثنا المصري واعادة تفهمه ،

ونفس الشيء بالنسبة لتراث الشعب الليبي ، والعراقي وهكذا .

أي ان المدخل العلمي للوقوف على أدق خصائص الملامح المحلية لاي شعب من شعوبنا العربية ، لن يكتمل الا في اطار المعرفة الشاملة لخصائص المنطقة ككل متجانس ، أقرب الى التوحد منه الى الاختلاف والتناقض .

فمعظم السير والملاحم والقصص الشعرية الطقوسية التي يجمعها جامع ودارس الفولكلور في مصر ، يمكن أن يعثر على متنوعاتها زميله التونسي والعراقي والليبي في بلاده مثل : سيف بن ذي يزن ، وسيرة الهلالية أو بني هلال ، وسير وملاحم التباعنة — جمع تبع — مثل الزير سالم، وعزيزة ويونس ، ويوسف وزليخة ، وسارة وهاجر ، والقميص — قميص النبي محمد — ، وزرقاء اليمامة ، وبراقش ، وعلي الزيبق ، والاميرة ذات الهمة .

وكذا كل ما يتناقل شفاهيا ، عن قصص وحكايات الخلق والسقوط والطوفان واغتيال الاخ لاخيه ، وكل ما يتصل بولادة وتربية الانبياء الموعودين : ابراهيم ، ويوسف ، وموسى ، وداود ، وادريس ، ويونس ، والخضر ، وشعيب . أي يمكن الحصول على مترادفات وتنويعات هذه الاساطير والملاحم والقصص والبلاد والخرافات على طول العالم العربي .

كما ان من المفيد معرفة ان معظم هذه السير والملاحم والقصص الطقوسية هي في حقيقتها أشلاء أحداث تاريخية ومناسبات أريد بها الحفظ والتذكير ، كأعياد العيد الكبير والصغير وعاشوراء ، والجمعة الحزينة ، وبئر زمزم ، وشم النسيم ، وعديد من المناسبات التقويمية .

فهذه الملاحم والاناشيد الروائية ينظر اليها كمدونات تاريخية « وهكذا دخلت في المؤرخات الاولى عناصر الملحمة والقصة الشعبية » كما يقول عالم ما قبل التاريخ جوردن تشايلد (١) .
« بل ان الرواية الادبية التقليدية العربية ، استفادت من الرواية الدينية والتاريخية ، وما اصطنعته من ضوابط » (٢) ، كما يقول

(١) التاريخ — جوردن تشايلد — ترجمة عدلي برسوم ص ٥٣ .
(٢) الهلالية في التاريخ والادب الشعبي : د. عبد الحميد يونس ص ٨٢ .

الدكتور عبد الحميد يونس .

ولعل المشكلة الرئيسية التي واجهتني في محاولة عمل المامة سريعة لتاريخ منطقتنا هذه التي نعيش أحداثها العنيفة المتجددة ، تبلورت في غياب وجود تتابع تاريخي واضح الى حد ، أو هو متواز مع تاريخ الشعب المصري أو العراقي القديم .

من ذلك افتقاد شبه الجزيرة العربية لتاريخها المبكر السابق على مجيء الاسلام ، وهي الفترة التي يطلق عليها اعتباطا بالجاهلية، وان كانت ـ هذه الجاهلية ـ تزدهر بالعديد من النشاطاتالابداعية الحضارية المرصودة اركيولوجيا أو علميا ، تصل الى قرابة ٤ آلاف عام قبل الميلاد . وللجنوب العربي في اليمن ودول الخليج حضارته وتراثه الاسطوري والعقلي ـ الموغل في القدم والعراقة .

وليكن واضحا انني لا أكتب تاريخا بقدر ما أنا أبحث عنه محاولا استخدامه لارساء ضوابط ومحكات تراثية أو حضارية على قوائمها يمكن ارساء معالم تتابع تراثي ، عصرا اثر عصر ، أو جيلا اثر جيل ، ان شابه شيء فهو أقرب الى تتابع الصخور الرسوبية بعضها فوق بعض .

فكما هو مفهوم يصبح الفولكلور بلا قيمة تذكر ، ما لم يتحدد تاريخه ومنبته الجغرافي ، وهجراته ، وما طرأ عليه من تغييرات خلال الزمان والمكان .

وعلى هذا أدت المناهج البنائية ، التي موجزها تكاتفمجموعة علوم ذات أهداف ومستويات استراتيجية ، في الكشف عن ظاهرة أو مجموعة ظواهر .

وبهذا أصبح لا غناء لعلمي الاساطير والفولكلور عن علمي ما قبل التاريخ ، والتاريخ .

كما أصبح في مقدور علم الفولكلور اعادة انارة وتوضيح المدونات التاريخية واعادة ضبطها وتحريكها من أقدم مواقعها .

فما من اضافة كشفية اركيولوجية أو حفرية ، لم تسهم بشكل ايجابي في اعادة توضيح وتكامل جزئيات هذا التراث الهائل لشرقنا الاوسط ، الذي وهب العالم أديانه الثلاثة الكبرى : اليهودية ، والمسيحية ، والاسلام .

وما من اضافة مدونة كانت أو شفاهية ، لم يترتب عليها دوام الهدف المستهدف ـ أصلا ـ لتوالي البناء واستقامته .

وعلى هذا فالعلاقة وثيقة بين التاريخ وبين التراث الاسطوري والفولكلوري ، أو بين الانثوجرافيا وبينالانثروبولوجيا الاجتماعية.

ويمكن اعتبار الدراسات الفولكلورية ـ محتوية ـ أو متضمنة الاساطير ، أحد المركبات الهامة اليوم ، في اعادة بناء تاريخ الجسد الحضاري لاي شعب أو مجموعة من الشعوب .

ففي مقدور مثل هذه الدراسات الجديدة الشابة ، تلك التي تستهدف أول ما تستهدف ارساء اكبر قدر من التسامح القائم على الفهم ، كما يقول أحد روادها الاوائل ـ سير جيمس فريزر ـ في نهاية موسوعته المعروفة بالغصن الذهبي البالغة ١٤ مجلدا .

في مقدور الدراسات الموضوعية البعيدة عن محاولات نطح جدران التعصب ، أن تعيد ارساء وتشكيل معالم تاريخ جلي واضح لحضارات شرقنا العربي ، الموغلة في العراقة .

على ان هذا التاريخ الثقافي أو الفكري سيكون مرتبطا أشد الارتباط وأوثقه بحركةجماهير شعوبمنطقتنا العربية أو السامية، وصراعاتها المستهدفة للتوحد والتجانس .

ومفهوم طبعا ان مثل هذه العلوم الانسانية ، قطعت مرحلة كبيرة من الرصد والجمع والتصنيف على مستوى العالم أجمع ، وتوصلت الى نتائج علمية وصلت الى حد استخدام الاجهزة التكنولوجية ، من عقول أليكترونية وآلات حاسبة ، ومناهج رياضية ، فأصبح هناك اليوم عقول أليكترونية متخصصة : في أفرع الفولكلور والاساطير المختلفة ، عقل ألكتروني متخصص في حكايات الحيوان ، وآخر الزواحف ، وثالث لخرافات الجان ، ورابع للحشرات والهوام والنبات وهكذا ، وهو ما ينجز بتوسع في دول شمال أوروبا ، وفرنسا وايرلندا .

وما أحوجنا اليوم الى الاستفادة من حركات عقلنة التراث التي تجري من حولنا بهدف مضاعفة التنمية ، من مادية وبشرية وعقلية .

كما انه ما أحوجنا – هنا في مصر – الى قيادة حركة تنوير حقيقية ذات جذور ، تبعث باشعاعاتها على طول منطقتنا العربية وتسهم بشكل علمي حقيقي في شعارات اعادة بناء الطاقات العقلية للانسان المصري والعربي ، استجابة لشعارات الدولة العلمانية ، واعادة بناء الانسان الاشتراكي المصري الصاعد .

وكم سيكون مفجعا أن تكتشف الاجيال القادمة مدى سيطرة الخرافات على العلم ، ومدى تعنت الاساطير وجبروتها في الدفع والتحكم في حركة التاريخ ، كما يقول فريزر .

شوقي عبد الحكيم

الفصل الأول

مشاكل التراث العربي السامي

من المؤكد ان عديدا من المشاكل تعترض الباحث في تتبع أصول أساطير وفولكلور هذه المنطقة التي نتنفس أحداثها ، وهي منطقة الشرق الادنى أو الاوسط ، خلال الزمان والمكان . ومرجع هذه المشاكل عدة عوامل أو صعوبات ، أولها قلة الجهود التي بذلت في هذا الحقل البكر ، سواء منها ما يتصل بالبحث في المصادر الاولى أو المصادر الام من وثائق ومدونات حفرية ونصية ، أي ما أوضحته الكشوف الحفرية أو المسمارية للآثار العراقية وحضاراتها المتعاقبة ، من سومرية – لا سامية – الى البابلية والاكادية والآشورية . وما أوضحته الحضارات القبائلية في الجزيرة العربية ، بقسميها الشمالي العدناني البدوي – في السعودية اليوم – والجنوبية القحطانية الحميرية الزراعية ، في اليمن والجنوب العربي . وما أوضحته الكشوف الحفرية للحضارة الكنعانية الفينيقية وطليعتها البحرية في لبنان وفلسطين ، بالاضافة الى ما ضاع وانقرض ، من مدونات نصية – غير حفرية – التي وردت في شكل نصوص مدونة في الكتابات المبكرة في كتب الكلدانيين والآراميين واليهود والسريان والانباط والحرانيين والتي منها انحدرت فرق ونحل الملل المنقرضة مثل الدهرية والصابئة والثنوية والديصانية والمجوسية والنشابة ، والمئات غيرهم . هذا

بالاضافة الى المئات من كتب ومؤلفات العلماء والكتاب والرواة من العرب وغير العرب ، مثل وهب بن منبه ، والالوسي ، وعبيد بن شرية الجرهمي ، وكعب الاحبار ، ومحمد بن اسحاق ، والدميري ، والازرقي ، والبلخي ، والقزويني ، والهمداني ، والساجستاني ، وابن وحشية الكلداني ، والطبري ، وابن قتيبة ، وابن النديم ، وابن كمونة .. وهكذا .

وكتابات هؤلاء أصبحت اليوم مصادر شديدة الاهمية بالنسبة لدارسي حضارات وأساطير الشرق الادنى القديم ، تجيء أهميتها مباشرة بعد المدونات التاريخية الاركيولوجية .

وعلى سبيل المثال : فقد كان اكتشاف الجزء الثامن من كتاب « الاكليل » للعالم العربي الكبير محمد الحسن بن يعقوب بن يوسف ابن داود المشهور بالهمداني ، والذي يصف فيه قلاع اليمن القديمة وقصورها وجانبا كبيرا من حياتها الاجتماعية ومعتقداتها ، وهو الكتاب الذي أجلى الكثير من الغموض والذي « يتضمن محافد اليمن ومساندها ودفائنها وقصورها ، ومراثي حمير والقوريات » . وكذلك اكتشاف الجزء العاشر من نفس الكتاب الذي يتحدث فيه الهمداني عن قبائل اليمن ومملكة سبأ وحمير التي دان لها العالم أجمع منذ بداية الالف الثالثة قبل ميلاد المسيح .

هذا رغم ان ثمانية أجزاء كاملة فقدت تماما من هذا المدون النادر ، من بينها الجزء السابع الذي تناول فيه الهمداني الاساطير والخوارق ــ والحكايات المستحيلة ــ لليمن الغابرة ، وكذلك جزءه الثالث عن « فضائل قحطان » .

وهذا يقودنا للحديث عما فقد من مدونات التراث الحضاري للعالم العربي النادرة ، من كتب « الاشارة في السحر » و « أسرار الكواكب » و « الحياة والموت » و « القرابين » و « الاصنام » و « كتاب هرمس في النشر والتعاويذ والعزائم » و « نوادر جحا » و « نوادر ابن أحمر » و « كتاب الفأل لاهل فارس » و « حديث ابن الدكاني » ، وأغلب مؤلفات المدائني ، وابن وحشية الكلداني ــ وهو من ولد سنحاريب ملك آشور ــ وكتبه في السحر ،

ومذاهب النبط أو الانباط ، ومذاهب الكلدانيين ، وكذلك كتب علي بن زين النصراني « في الآداب والامثال على مذاهب الفرس والروم والعرب » . كما فقدت أغلب كتب ابن طالوت وصالح بن عبد القدوس وعلي بن ثابت وأبو عيسى الوراق وسهل بن هارون وعلي بن داود ، وشيلي ــ صاحب مذهب الشيليين ــ وتلميذه بابك بن بهرام وابن اسوري أو أشوري وغيرهم .

بل ان خزائن كتب ومكتبات بكاملها قد ضاعت وانقرضت تماما ، وكان يمكن لهذه الكتب والمدونات القاء بعض الضوء على ما انقطع من أحقاب تاريخية بكاملها أصبحت لدى الدارس الحديث مظلمة مسدودة قاحلة .

منها على سبيل المثال : اخبار وأساطير القبائل العربية ، التي يرجعها البعض الى ما قبل الالف الثالثة قبل الميلاد ، والتي بيدت دون اثر ولم تخلف ما يدل على تراثها وملحمها ، مثل قبائل عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم وغيرهم من القبائل التي محيت من الوجود وانتهت بكامل أسمائها وأنسابها ، وتعارف عليها باسم العرب البائدة ، أو الغابرة ، أو العاربة .

وعلى هذا تعارف المؤرخون والنساب ، على بقايا القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية باسم العرب « الباقية » أو المتعربة ، أي عرب الجاهلية الاولى والثانية .

وقسموهم الى قسمين : شماليين أو عدنانيين أو اسماعيليين ــ في نجد والحجاز ــ وجنوبيين هم القحطانيون ، نسبة الى قحطان ــ أبو اليمن ــ وهو قحطان بن عابر أو النبي هود أبو الملوك اليمنيين ملوك دول سبأ وحمير ومعين ، والدولة الاخيرة امتد سلطانها حتى شواطىء البحر الابيض المتوسط والخليج العربي وبحر العرب ، الى جانب استيلائها على جميع مناطق شبه الجزيرة العربية .

يقول ابن خلدون في تاريخه عن ملوك حمير : « كانت الدولة والملك في بني قحطان متصلة من يعرب ابن قحطان ، وكان من أعاظم ملوك اليمن ، ثم تسلسل الملك الى سبأ بن يشجب بن يعرب ، ثم في دولة كهلان وحمير ، ثم أولادهما » .

وقبل التعرض بتفصيل ، عن ممالك سبأ وحمير ، وما خلفته حضارتهما في تراثنا الشفهي المعاش اليوم ، نعود الى استكمال ما بدأناه عن مشاكل الدراسة شبه الدقيقة لتراث هذه الشعوب السامية التي اتفق علماء اللغات ـ الاثنولوجي ـ على تقسيمها الى ثلاثة أقسام :

يعرف أولها بالقسم الشرقي أو البابلي الآشوري في العراق .

والثاني يعرف بالقسم الغربي أو الكنعاني أو الارامي في الشام وفلسطين .

ويعرف الثالث بالقسم الجنوبي أو الغربي في الحجاز واليمن .

وقد اتفق اللغويون والمستشرقون ، نظرا لظروف جغرافية واجتماعية وتطور طبيعي ، على اعادة تقسيم المجموعة السامية الى ثلاثة أقسام لغوية هي :

القسم الغربي ولغاته ولهجاته الكنعانية والاخلامية والفينيقية والبونية والارامية والعبرية والسريانية والتدمرية والنبطية والموآبية والامورية .

اما القسم الجنوبي ، فتنقسم لغاته الى لغتين :

أولاهما العربية ولهجاتها هي : العربية القديمة ـ أو الآرامية ـ والقحطانية والحميرية والمعينية والسبئية .

وثانيتهما الحبشية أو الجعزية ، وهي لهجة حضرموت القديمة التي نشرها اليمنيون في الحبشة منذ منتصف السنوات الالف قبل الميلاد ، حين غزت جبال الحبشة جموعمن حضرموت ، واستوطنت فيها ، ونشرت اللغة الجعزية التي ما زالت سارية ، يمكن تلمسها في بقايا الطقوس الدينية للكنيسة الاثيوبية ، بعد أن حلت محلها اللهجات التيجرية والتيجرانية والامهرية والهررية .

وتندرج كل هذه اللغات واللهجات ـ التي اندثر مجملها ولم يتبق منها سوى العربية والعبرية ـ تحت منطقة أساطير وفولكلور

ما يعرف بالشعوب السامية أو العربية بحسب ما يراه سبرنجر « من ان جميع الساميين عرب » .

واذا ما تناولنا القسم الشرقي للاقوام السامية أو العربية في العراق وما بين نهري دجلة والفرات عامة ، وهي الاقوام أو الحضارات الاكادية والبابلية والآشورية ، التي توارثت حضارة السومريين وأساطيرهم وآلهتهم ومعتقداتهم . وترجع أولى بدايات ممالك هؤلاء الساميين الى منتصف القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد من حوالي ٢٣٥٠ ق.م .

وعن هذا القسم الشرقي السامي ، أي البابلي ، سرى تراث الاقوام السومرية الاكادية المندثرة ـ مثلها في ذلك مثل العرب البائدة ـ الى بقية الاقوام السامية الاخرى ، من امورية وكنعانية وآرامية وعبرانية وعربية في ربوع الشام وشبه جزيرة العرب بقسميها الجنوبي القحطاني في اليمن ، والشمالي العدناني في الحجاز ونجد ، الى جانب بقية الاقوام السامية المتأخرة في الشام وما بين النهرين ، مثل قبائل كهلان المتفرعة من صلب سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان أبو اليمن ـ أول من تكلم العربية ـ والذي منه جاء الحميريون التباعنة ملوك اليمن ، وآخر ملوكهم كان الملك سيف بن ذي يزن الحميري ، بطل السيرة والملحمة الشفاهية المعروفة .

ومن كهلان ـ شقيق حمير ـ جاءت أشهر بطونها قبائل الازد ـ الذين تفرقوا عقب خراب سدود اليمن ، وكان أهمها سد مأرب، وسد الخانق بصعدة الذي بني في عهد الملك سيف بن ذي يزن ، وسد ريعان « لابن ذي مازن » ، وسد سنان وعنس وجيرة ، وسدود يحصب ، التي يقول عنها الهمداني : « وهي على ما كنت أسمع ثلاثون سدا ، وقيل ثمانون ، ومنها سدود سحر ، وذي سمال ، وذي رعين ، ولحج ، ومفاضة ، وهران ، والشبعاني ، والمنهاد ، ولطاف » ... الخ .

ومن قبائل كهلان ، جاءت قبائل الغساسنة ملوك الشام ، وأيضا قبائل الاوس والخزرج الذين هاجروا من اليمن ونزلوا

المدينة ، ومنهم جاءت قبائل خزاعة _ ملوك الظهران _ الذين نزلوا الظهران وأصبحوا ملوكها .

كما ان من قبائل كهلان جاءت همدان ، ومن أصلاب الهمدانيين انحدرت قبائل كندة وطيء وخثعم وبجلة ولخم وجذام ، ونصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة .

ويقال ان النخل أو التمر ، كان من أعظم العوامل التي اجتذبت هؤلاء الساميين الرعويين المعدمين من شبه الجزيرة العربية الى أرض بابل ، وبناء على ما رواه المؤرخ سترابون الذي ذكر ان الفارسيين قالوا في النخيل شعرا « عدّ فيه نحو ثلاثمائة وستين طريقة مختلفة لاستخدامها والانتفاع بها » .

ويبدو ان ثروات واخصاب دلتا الفرات لعبت دورها الجاذب لتلك القبائل البدوية غير المتحضرة . يقول هردوت :

« على ان بابل كانت كمصر ، كثيرة الترع والقنوات ، ومنها ما كان كافيا لتسيير السفن المتجهة جنوبا من الفرات الى دجلة حيث تقع « نينوى » الشهيرة بخصبها ووفرة حنطتها . ولشدة الخصب كان عرض ورقة النبات يبلغ أربعة قراريط » .

ولقد اتصلت الجزيرة العربية منذ فترات مبكرة بما يجاورها من حضارات زراعية أو نهرية ، مثل الحضارات البابلية والفارسية وحضارات جزر البحر الايجي ثم الرومان ، وأخذوا عنهم الكثير من تراثهم الحضاري والعقائدي . ولعب قيام مملكتي الحيرة والغساسنة على أطراف الدولتين الفارسية والرومانية اثره بالنسبة لهاتين الحضارتين المتمايزتين ، أي حضارة النهر والزرع والاستقرار ، وحضارة البدو والوبر والاغارة واللااستقرار .

ولقد تبدى هذا التمايز أو التناقض بين الحضر والبداوة ، في كلا التراثين المدون والشفاهي ، وكذلك تبدى بشكل متواصل في الحياة الاجتماعية للشرق الادنى عامة ، مثل الصراع بين العرب العدنانيين أو المعديين سكان الحجاز ، والقحطانيين سكان اليمن .

فتتبدى أسباب الصراع بين الحضارة والبداوة ، في الاغارات

المتوالية على موارد المياه ، وتمثل هذا الصراع اكثر _ فيما بعد _ بين عرب أهل المدينة من الأوس والخزرج ، وهم يمنيون ، وأهل مكة العدنانيون ، ويدور الصراع بين أبناء الاب الواحد مثل صراع بني هاشم وبني أمية بمكة ، وعبس وذبيان من قيس ، وبكر وتغلب من ربيعة ... الخ . ولقد أيدت بعض الكشوف الحفرية المتأخرة ، ما جاءت به المصادر العربية عن ملوك اليمن القديمة ، الذين يعرفون بالعرب البائدة أو المندحرة ، وهي قبائل عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم وغيرها من القبائل الموغلة في القدم ، والتي ما من شك في انها ترجع الى ما قبل الالف الثالث ق.م. ، وهي القبائل التي أهلكها التناحر القبلي المتواصل لاسباب غريبة لا تتعدى القحط والجدب والعصبية القبلية العمياء وعبادة السلف . فمثلا أفنت قبائل عاد معاصريها قبائل بني عفير بن لقيم بسبب جور رأس بني لقيم ، سالم بن هزيعة ، الذي أذلّ امرأته شقيقة لقمان بن عاد ، وعندما نشبت الحرب بين القبيلتين ، هزمت قبائل عاد قبائل لقيم حتى أفنوهم عن آخرهم ، ولم يتركوا منهم أحدا الا امرأة يقال لها صنيعة من بني عمرو بن لقيم ، كانت متزوجة في قبيلة ثمود رجلا من أشرافهم ، فولدت له رجلين يقال لهما الوضيع وغانم .

المهم ان هذه المرأة ، التي بيدت قبيلتها عن آخرها ، عادت فحملت انتقامها وسارت بولديها لاجئة الى « أختها من قبائل ثمود بن عابر بن ارم بن سام ، وهم يومئذ أمنع العرب وأعزّهم » وتسببت هذه المرأة في اشعال لهيب حرب جديدة انتقامية بين عاد وثمود « فقتلتهم ثمود جميعا حتى أفنوهم عن وجه الارض » .

وطبعا كان لهذه القبائل المندثرة التي نحن بصدد الحديث عنها بقايا أساطيرها العرقية الضنينة ، التي تقول بأن الصحيفة التي أنزلها الله على آدم ثم نوح وابنه سام وابنه عابر أسلمها بدوره لابنه يعرب ، قائلا : « أنت يا ابني صاحب الصحيفة ، سيقال لك وتقول فاضرب بما في يديك » ، الى أن تبلبلت الالسن في حادث بناء مدينة بابل وبرجها الكبير ، « وانقسمت الالسن الى ٧٢ لسانا وأجرى جبريل على لسان كل أمة لغتها » ، فنطق الناس بالالسن العجمي والعربي ، وأفصح يعرب بالعربية ، وهود

أبوه « أما قبائل عاد وثمود وطسم وجديس وعملاق ورائش فانهم نطقوا مع ابن عمهم عابر بالعربية فأدركتهم بركتها ، وشرفوا وتغلبوا على جميع من كان معهم من الالسن ، حتى زهوا على الناس ، وأظهروا فيهم الطغيان ، وأشرفوا على الناس ، وكانوا كذلك الى حين والناس اذ ذاك ببابل » .

يقول الطبري مؤكدا قدم هذه القبائل ، انه وبعد أن خلق الله العالم « خلق مدينتين (عاد وثمود) بالسريانية ، ومرقيسيا وبرجيسيا ، ولكل مدينة منهما عشرة آلاف باب بحرّاسهم ، ولولا جلبتهم وضجيجهم ، لسمع الناس من جميع أهل الدنيا هدة وقعة الشمس حين تطلع وحين تغرب ، ومن ورائهم ثلاث أمم : منسك، وتافيل ، وتاريس ، ومن دونهم يأجوج ومأجوج » .

ومرة أخرى يشير المسعودي ، بما يؤكد ان بقايا هذهالقبائل البائدة أو المندثرة ، أي جرهم والعماليق ورائش ، كانت أسبق في الوجود من نظائرها أو أشقائها من العرب العدنانيين ، الذين هم من نسل اسماعيل — أعظم صيادي البرية — ابن النبي ابراهيم من هاجر المصرية جارية سارة أو ساراي « زوجة ابراهيم وابنة عمه وأخته في الرضاعة » ، وما هو معروف عن صراع هاتين الضرتين ، فلما كانت سارة الزوجة الحضرية — أم القبيلة — عقيما وولد لابراهيم اسماعيل من هاجر ففارت سارة ، وحمل ابراهيم هاجر وابنها اسماعيل الى مكة فأسكنها بها وتركها وابنها عائدا وشاكيا « ربّ اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم » .

يقول المسعودي :

« فآنس الله وحشتهم بجرهم والعماليق ، وجعل افئدة من الناس تهوي اليهم » .

ومعنى هذا ان بقايا هذه القبائل المندثرة ، أي جرهم والعماليق ، كانت موجودة ، بزمن سابق على وجود أشقائهم العدنانيين ، وكذلك العبريون نسبة الى الفرع الانثوي أو الاموي .

وتواصل أسطورة أرض ميعاد يعرب بن قحطان ابن النبي

هود ، الذي أرسله الله الى أرض بابل نبيا (والى عاد أخاهم هودا) وكيف ان هودا رأى رؤيا « كأن آتيا أتاه فقال له يا هود ، اذا ضربت رائحة المسك اليك والى أحد من ولدك من ناحية من نواحي الارض ، فلتتبع تلك الناحية من رائحة المسك ، ذلك النسيم حتى اذا كفّ عنه نزل ، فذلك مستقره » .

يقول وهب بن منبه الحميري : « وان يعرب بن قحطان بن هود ، وجد رائحة المسك ، فقال له هود : أنت ميمون يا يعرب ، أنت أيمن ، ولدي مر فاذا سكن عنك ما تجده ، فانزل بأرض اليمن لا تمر ، فانها لك خير وطن » .

خلاصة القول ، انه ما من شعب أو رهط أو قبيلة ، لم يحفظ لها تراثها وتاريخها أسطورة أرض ميعاد ، تحدد لها أرضها ووطنها.

لكن مشكلة المشاكل ، هي في ضياع وافتقاد هذا التراث ، على مرّ عصور الاضمحلال الطويلة الثقيلة القاسية .

الفصل الثاني

« أساطير السومريين عند العرب الساميين »

واذا ما حاولنا تتبع المراحل التي قطعها تطور الآلهة والاساطير السومرية ، بعد أن توارثها الكلدانيون والبابليون والآشوريون ، أي الفرع السامي سكان الحضر في دلتا العراق ، ثم كيف انتقلت عبرهم الى القبائل العربية أو السامية الاخرى في مكة والحجاز واليمن والشام وفلسطين ، وما لحقها وطرأ عليها من تغيير وتبديل واضافات، نجد الآثار السامية قد كشفت ان الآشوريين واليمنيين كانوا يحتفظون بأوثان الآلهة السومرية التي توارثها الكلدانيون من أسلافهم السومريين اللاساميين القدماء .

فلقد كانت بابل وآشور هما بمثابة المنبع الاكثر خصوبة وتحضرا والذي فاض على ما يجاوره من تخوم وقبائل ، مثل القبائل العربية ، على طول شبه الجزيرة ، بل ومن نفس أور الكلدانيين بين النهرين خرجت ونزحت قبائل ابراهيم وآشور السامية الى الشام وفلسطين قبل انتهاء الالف الثالثة قبل الميلاد .

وكشفت الدراسات الاسطورية المقارنة عن ان هناك أساسا أسطوريا عقائديا بل لاهوتيا مشتركا لاغلب هذه الشعوب السامية منذ اكثر من ألفي عام قبل الميلاد ، سواء فيما بين النهرين أو في

مكة واليمن والشام وفلسطين . فاذا ما أخذنا مثالا بسيطا : فالاله الكلداني البابلي بعل الذي من اسمه تسمت بعلبك في لبنان ، ظهر منذ بداية الالف الثالثة ق.م. عند البابليين باسم « بل » ، وعنهم أخذه الكنعانيون ولقبوه بالسيد ، أي « زوج » ، وجمعها بعليم « قضاة ــ ١١ ــ ٢ » والصيغة المؤنثة منه هي بعليت أو بعلاية .

وعرفت ديانة البعل ــ كاله ولقب ــ في سوريا وفلسطين منذ بداية الالف الثانية قبل الميلاد . ثم تطورت ديانته ودخلت في اللاهوت المحلي ، بعد ذلك الزمن ، فأصبح لكل مدينة بعلها أو ربها الحامي ، وتنوعت ألقابه ، فالالهة « ميلكارت » كانت بعل طيرة ، بينما أصبحت « عشتروت » هي البعلة الانثى في بيبلوس . وعندما نزل الساميون الاوائل فلسطين ، وجدوا عديدا من الاماكن ــ غير السامية ــ المقدسة ، مثل الاشجار والجبال وآبار الماء ، فأطلقوا على كل منها اسم بعل ، وعن هذا الطريق عبد سكان كل مدينة بعلها المتفرد كاله محلي . وبتوالي العصور دخلت ديانة البعليم لدى كل شعوب الشرق الادنى القديمة ، فأصبح الها للسماء ، بل انه توحد بالسماء ، وانزال المطر ، وعرف ببعل شيم عند شعوب آسيا الغربية ، كما توحد مع حرارة الشمس التي منها ينبت النبات ويكثر الاخصاب ، كما ان من ألقابه التي عرف بها اله التنبؤ . ومن اسم بعل جاءت تسمية البطل القرطاجني هانيبال ــ وقرطاجنة كانت من أقدم المستعمرات الفينيقية ، كما ان من أسمائه الاخرى بعل قبيلة جاد ، وبعل زيفون ، وبعل زيبوب أو الذباب . كما ان البعل توحد بالاله السومري الذي توارثه الساميون وهو الاله ميردوخ أو مردوك ، والذي أصبح الوريث الشرعي لسلطان الاله الآشوري آشور ، الذي تضاعف نفوذه عقب اضمحلال آشور ، وكان يعرف باسم « بعلو » .

يقول « أورث » في كتابه « ديانة البعليم » ان بعل العبري هو بنفسه الاله « هبل » اله قبيلة قريش في مكة .. وقال : « وفي اعتقادي ان عبادة البعليم ليست بعبادة فلكية أو تنبؤية في منبتها الاصلي ، ذلك لان علم النجوم لم يعرف في آسيا الغربية قبل عصر الآشوريين والكلدانيين » .

ويرى المستشرق نولدكه : « ان اللقب الالهي بعل ــ أي السيد أو الزوج ــ كان معروفا لدى الساميين الشماليين ، وعنهم توارثه عرب شبه جزيرة سيناء ، فعرف عندهم باسم « بعلو » ، ووجد في النقوش عقب أسماء الاعلام مثل « عبد البعلي » و « أوس البعلي » و « جرم البعلي » .

يقول ابن حزم ، ان في بعض كتب اليهود تفسيرا لتيه بني اسرائيل مع موسى في سيناء « حتى ماتوا كلهم ، انما كانت لان فرعون كان قد بنى على طريق مصر الى الشام صنما سماه بعل صفون ، وجعله طلسما لكل من هرب من مصر ، يحيره ولا يقدر على النفاذ منه » .

ويرى نولدكه ان عرب شبه الجزيرة العربية ، أخذوه عن عرب شبه جزيرة سيناء وعنهم « عرفوه لفظا ومعنى » ، ووجد في التنزيل « أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين » .

ويقال ان أول من استقدمه الى مكة هو عمر بن لحي الجرهمي ، فقد قدم بصنم يقال له « هبل » ، وكان هبل من أعظم أصنام قريش ، فنصبه على البئر في بطن الكعبة ، وأمر الناس بعبادته ، فكان الرجل اذا قدم من سفر بدأ به على أهله بعد طوافه بالبيت ، وحلق رأسه عنده ، « وكان اسم البئر التي في بطن الكعبة « الاخسف » والعرب تسميها « الاخشف » ، كما يقول الازرقي في أخبار مكة .

ونظرا لان الساميين بعامة قدسوا موارد المياه ، واعتبروها مهبط عرش الله . فان اقامة هذا الاله الجديد ، بعل أو هبل ، على بئر ماء يشير الى علاقته بالرزق والاخصاب عند العرب ، كذلك عرف بكونه الاله واهب النعم ، لدى القبائل العبرية .

وكان العرب يقسمون به كرب للارباب ، كما كانوا يضربون القداح عنده قبل اقدامهم على حفر بئر جديدة ، وضرب القداح عند العرب يشير الى القضاء والقدر والمكتوب والوعد والحظ والقسمة والنصيب ، وغلبة الزمن والدهر ، كما كان عندهم آلهة للبخت أخذوها عن الحرانيين .

وينسب لعمر بن لحي الجرهمي ، انه أول من جاء بأصنام هذه الآلهة من الكلدانيين ـ العراقيين ـ والانباط ، ونصبها حول الكعبة .

وكان تمثال الاله « بعل » أو « بيل » عند الكلدانيين والآراميين ، على هيئة ملك جليل جالس على عرشه ، وعلى هذا تعارف عليه العلماء عندما وجدوه في الكعبة ، وعرفوا على الفور انه اله دخيل مجلوب من الخارج . يقول الكلبي صاحب كتاب « الاصنام » : « كان فيما بلغني ، من عقيق أحمر ، على صورة الانسان ، مكسور اليد اليمنى ، أدركته قريش فجعلوا له يدا من الذهب » .

وفي احدى الملاحم الشعرية الكنعانية عن صراع البعل ، كاله للسماء ، يتبدى البعل كاله السماء ، « متلفحا بالسماء لباسا » . وتروي قصته كيف انه أغري بالنزول الى العالم السفلي، واحتجزته الشياطين من أعدائه ، لكنه قاومهم بنبوته المطلسم ، واستطاع أن يعود ثانية الى عالمه العلوي « عند قمم أشجار السنط المرتفعة » . كما يتبدى البعل الكنعاني في هذه القصيدة ، وهو يحيا في خوف دائم من أن تتمكن حيتان البحر من اختطاف بناته الثلاث ، وهنّ « اللات والعزى ومناة » .

والملفت ان هذه الملحمة الاسطورية ما تزال تعيش على الشفاه الى اليوم ، باسم حدوتة « سعد الدين » .

وفي بعض المصادر العبرية ـ المدراش ـ يتبدى البعل كقرين للريح . والبعل هو أصل الاله العبري ـ يهوه « فالاله يهوه هو أيضا كان ريح الشمال في الازمان المبكرة ، أي قبل أن يصبح الها ساميا رفيعا » .

وظلّ على صورته هذه حتى عصر الملك داود حين خاطبه : « عندما تسمع صوت أقدام في رؤوس أشجار البكاء حينئذ احترس ، لانه اذ ذاك يخرج الرب أمامك » .

ويبدو ان العبريين كانوا قد استعاروه من الكنعانيين ـ الشوام ـ الذين عبدوه كاله وحاكم على العالم الآخر الشمالي ،

اما فلسطينيو ـ عكرون ـ فقد اتخذوه الها للتنبؤ ، كما ان من القابه « سيد الشمال » ومن اسمه تسمت قبيلة زبولون ، وزار وحيه الملك اشعيا ملك اسرائيل في عقرون (الملوك الثاني ـ ١٠) .

كما يرى البعض ان البعل هو الاصل الذي منه جاء الاله آشور في الميثولوجي الآشوري ، وكان يصور على هيئة نسر له رأسان وجناحان مقدسان ، في هيئة المحارب ، وتظهر عشتروت كثيرا كزوجته وشريكة حكمه . كما يرى البعض ان عاشوراء (أول شهور السنة الاسلامية) أو أهورا الفارسية من بقايا شعائر الاله آشور ، الذي من اسمه تسمى الملوك الآشوريون .

وبعل أو هبل هو الاله الذي عناه الملك الكاهن الجاهلي الشاعر عمر بن لحي الجرهمي بقوله : « ان ربكم يتصيف باللات لبرد الطايف ، ويشتو بالعزى لحر تهامة » .

فلقد كان للاله بعل أو هبل ، رب الارباب في الميثولوجي البابلي ، بنات ثلاث ، هنّ « ايرشكيجال » الهة العوالم السفلى أو الجحيم ، واخواتها الانثيات « مامناتو » و « عشتر » أو « عشتروت » ، وهنّ الآلهات الثلاث اللاتي عرفن ب « بنات الله الثلاث » .

فالهة العوالم السفلى والموت والظلام ايرشكيجال عند السومريين ، والتي عنهم أخذها خلفاؤهم وورثتهم الساميون البابليون ، ولقبت باسم « اللات » للمرة الاولى في احدى قصائد الفروسية البابلية ، وهي ملحمة الملك ازدوبار الذي يرى البعض انه هو بعينه نمرود الجبار ، الذي ما تزال تتواتر حواديته على طول الشرق الادنى ، مع الخليل ابراهيم .

وايرشكيجال هي بروسر بين ملكة المناطق السفلى أو عالم تحت الارض عند الاسيويين ، سكان غرب آسيا ، أو الشرق العربي بعامة ، كما انها برسيفون عند الاغريق ، وهي اللات عند البابليين والقبائل العربية ، من مكية ويمنية ونبطية ، ويبدو انها كانت عند منشئها آلهة شمسية ، مما يؤكد قول عمر بن لحي الجرهمي :

« ربكم يتصيف باللات » من انها كانت الهة فصل الصيف والقيظ والشمس المحرقة بجدبها وعطشها ، عند العرب المكيين .

كما ان اللات عندما دخلت الميثولوجي السوري ، أصبحت قرينة الاله « حداد » ، اله المطر ، ولقبت بربة البيت عند الانباط ، كما تشير بهذا حفريات بعلبك . وباختصار فان اللات كالهة للشمس ، كما يرى « ولهوسن » ، دخيلة على العرب المكيين ، كما يرى ابن الكلبي « هي أحدث من مناة » . ويقال ان عمر بن لحي ، قد جاء بها من النبطيين ، وكانوا يعتبرونها الهة الشمس .

أما الاخت الثانية من بنات الله الثلاث ، فهي « العزى » ، وعرفت بدورها تحت هذا الاسم في الميثولوجيا البابلية ، وقيل ان معناها ملك أو اله النار ، فالعزو هي النار في اللغة البابلية ، ومعناها في العبرية الشدة أو القوة (تاريخ كلد وآشور ، مجلد ١ ص ٨) .

وبحسب رواية تيودوروس بركوني ، هي نجم الصبح ، ولها أسماؤها المختلفة باختلاف الالسن ، « فطيء دعتها عوزي ، واليونان افروديت ، والقدشيون طشقميت ، والكلدانيون بلتي أو بلثي ، والآراميون استيرا ، والراداتيون ملكة أشعيا ، والعرب ناتي » .

ويمكن القول بأن العزى عند العرب هي في منبتها الاصلي « اينانا » عند السومريين ، والتي اشتهرت باسمها الاكادي عشتروت عند البابليين ، وأناثا ـ أي أنثى ـ عند الكنعانيين ، وايزيس في مصر ، وافروديت عند اليونان ، وفينوس عند الرومان ، وكوبيلا عند الحثيين .

يقول نولدكه : « ان الشاعر السوري اسحاق الانطاكي الذي كان يعيش في أوائل القرن الخامس الميلادي ذكر احتفاء العرب بعبادتهم العزى أو نجم الصباح أو الزهرة ـ فينوس ـ ، كما يقال انهم كانوا يقدمون لها التضحيات ، فالمنذر ملك الحيرة قدم لها قربانا من الاسرى ، وقيل انه ـ أي المنذر ـ ذبح ابن حليفه المسيحي الملك الحارس ، قربانا لها » .

« ان ربكم يشتو بالعزى لحرّ تهامة ، الهة فصل الشتاء والاخضرار والخصب والجنس » (١) كما يقول الملك الكاهن ، عمر بن لحي .

فكانت العزى الهة للجنس والاخصاب عند العرب ، كما كانت عند البابليين . ويعتبر الحمام والغزال من طيورها وحيواناتها المقدسة، وهما نفس شعائرها عند البابليين والسوريين والنبطيين، وكان العرب الجاهليون مغرمين بتشبيه النساء الجميلات بالغزال.

يقول الالوسي : « كانت المرأة من العرب اذا عسر عليها خاطب النكاح ، نثرت جانبا من شعرها ، وكحلت احدى عينيها ، وحجلت على احدى رجليها ، ويكون ذلك ليلا ، وتقول : يا نكاح أبغي النكاح قبل الصباح » . أي انها تريد الزواج أو المخالطة الجنسية قبل ظهور نجم الصباح أو الزهرة . وتحفل المواويل والاغاني الشعبية، بآلاف القطع الشعرية التي تتغنى الى اليوم بنجمة الصبح .

ويضيف سميث : ان عبادة الزهرة ـ أو نجم الصباح ـ انتشرت في اليمن ، وخلال اقامة شعائر أعيادها كانت تقام الاحتفالات والافراح المختلطة ، أو ما عرف عند معظم الشعوب والاقوام السامية ، بالعرس المختلط ، وما تزال بقاياه سارية حتى وقت قريب ، خلال الاحتفالات بالموالد المحلية ، على طول مصر والعالم العربي ، وربما ما تزال أيضا تقويمات العرس المختلط سارية يجري التعامل بها .

يتضح من هذا ان منابع الميثولوجيا العربية تضرب بجذورها على مدى ٦ آلاف عام ، أي منذ السومريين غير الساميين ، الذين توارثهم العرب واليهود الساميون .

---

(١) البدء والتاريخ للبلخي ج ٣ .

الفصل الثالث

اساطير وفولكلور بر الشام
سوريا ـ لبنان ـ فلسطين

واذا ما حاولنا التعرف على القسم الغربي أو الكنعاني للاقوام السامية في سوريا ولبنان والاردن وفلسطين ، الـذي يرجعه البعض الى هجرات سامية ، جاءت بالاموريين الى الهلال الخصيب وتألفت من هذه الموجة الكنعانيون ، الذين سكنوا غربي الشـام وفلسطين حوالي ٢٥٠٠ ق.م. .

أما الساحليون منهم فهم الذين سماهم الاغريق بالفينيقيين، أقدم شعوب العالم اقتحاما للبحار والمحيطات .

وطبعا كان لهذه القبائل الكنعانية أو الفينيقية ، أسطورتها الام ، التي ترسم وتحدد لهم أرض ميعادهم في الشام وفلسطين بنفس ما حدث مع شقيقاتها ـ من الاقوام ـ السامية الاخرى ، مثل أسطورة أرض ميعاد يعرب ، التي حـددت لها الميثولوجيا القحطانية أرض اليمن أو أرض المر ، « وأسطورة أرض ميعاد قبيلة ابراهيم العبرية في أرض فلسطـين ، أرض اللبن والعسل » ، وكذلك بالنسبة لاسطورة أرض ميعاد كنعان أبو الاقوام الكنعانية ، وهو كنعان ابن حام ، وخطيئته المعروفة مع أبيه نوح ، والتـي

بسببها أصبح وجه الحاميين أسود ، حين غرس نوح كرما ــ وكان أول من غرس الكرم ــ وسكر من عصيره وثمل وانكشف ، فشهده ابنه حام وسخر منه ، وعندما عرف نوح ، لعن كنعان آخر أبناء حام : « ملعون كنعان عبدا يكون لعبيد اخوته » (١) .

وتتفق الاسطورتان ، العبرية والعربية ، في ان كنعان انفصل عن اخوته وبقية قبيلته من أبناء نوح ، مثلما حدث قبلا لجده الاعلى قابيل ، قاتل أخيه ومغتاله هابيل ، هام على وجهه يضرب في الارض ، فبعد أن أصبح كنعان ملعونا طريدا مبغضا من اخوته ، مرّ منزويا يطلب وطنا آخر وأرضا جديدة ، فنزل أرض ميعاده « أرض كنعان » أو الكنعانية في لبنان ، وانتشر أبناؤه الاحد عشر في الشام وفلسطين وهم « الصيدونيون » الذين أنشأوا مدينة صيدا ، نسبة الى أبيهم « صيدون » ، والحثيون « أبناء حث » ، واليبوسيون « أبناء يبوس » ، والاموريون « أبناء أمور » ، والجرجاشيون « أبناء جرجاش » ، والحويون « أبناء حو » ، والعرقيون « ابناء عرق » ، والسنيون « أبناء سن » ، والارواديون « أبناء أرواد » ، والصماريون « أبناء صمار » ، والحماتيون « أبناء حماة » (٢) .

وهم كلهم الاحد عشر قبيلة أو سبطا ، أبناء كنعان الذين لحقتهم وطاردتهم لعنة جدهم حام ، التي تحمل وزرها من بعده ابنه ، فتعقبته في ذريته . وعلى هذا حوّلهم العرب والعبريون الى سخرة « يقطعون الخشب ويحملون الماء » ، كما يقول توينبي ، على اعتبار انهم أجناس واطئة .

بل ان العرب ساووهم بالبربر والنوبيين ، فكان كنعان أخا لهم كما يقول النسابة العرب ، فبعد اللعنة « ولدت امرأة حام غلاما ، لونه أسود ، وسموه كوشا ، وولد لكوش ، الحبشة بن كوش ، أما شقيقه الثاني الذي لحقته أيضا لعنة أبيه ، وهو ماريع

---

(١) التكوين ٩ : ٢٠ ، ٢٧ .

(٢) لاحظ أبناء عاد ، ويعرب ، ويعقوب ، واسماعيل الخ ...

ابن حام ، فقد ولد ثلاثة أولاد ــ أو أجناس ــ وهم كنعان وبربر والنوبة » .

واستنادا الى أقدم المصادر العربية ، وهو عبيد بن شريه الجرهمي ، الذي يقول : « وأما ولد كنعان بن كوش بن حام ، فهم البربر ، وساروا حتى نزلوا بفلسطين وبيت المقدس » .

ولقد اعتبر العرب واليهود ، ان المصريين القدماء منحدرون من نسل حام وأولاده من البرابرة ، بمعنى انهم أيضا أجناس أدنى من أشقائهم الساميين ، ومن هنا فقد وحدوا بين المصريين والكنعانيين .

والغريب أن الكشوف الحفرية الكنعانية جاءت فأثبتت هذه المعلومة الاسطورية ، فقد أكدت هذه الكشوف الاثرية أو الحفرية أو الاركيولوجية ان الفينيقيين كانوا جزءا من العالم الكنعاني الذي تشكل من الهجرات السامية منذ فجر التاريخ ، وهي تلك الكشوف التي عثر عليها في « بيبلوس » الاغريقية ، ومكانها اليوم احدى القرى الصغيرة الواقعة الى الشمال من مدينة بيروت ، وهي ما تعرف اليوم بقرية جبيل أو جبل ، وترجع هذه الكشوف الى الالف الثالثة ق.م. .

وكذلك دعمتها كشوف « رأس شمرا » في فلسطين التي ترجع الى بداية القرن الرابع عشر ق.م. والتي عثر عليها عام ١٩٢٩ . وكذلك أشارت اليه كشوف البحر الميت .

الغريب ان هذه الكشوف الكنعانية الفينيقية الفلسطينية جاءت فأكدت العلاقة الشديدة بين حام وكنعان ، أو بين المصريين والشوام الكنعانيين ، اذ انهم اعتبروا أوزيريس اخا لكنعان « وكان كنعان أول من سمي « فينقس » ، فكانت أعياد ــ قيامة ــ الاله المصري أوزيريس ، تقام في مدينة جبل الكنعانية أو اللبنانية ، كما ان في مكان الاسكندرية القديمة ، أو فاروس ، كانت تقام أعياد وشعائر أدونيس الفينيقي « فقد جعلوا من كنعان أخا لاوزيريس ، دلالة على وحدة نسب الامتين » .

وفي احدى أساطير الخلق البابلية ، التي تتفق مع أساطير

مدينةصيداء، يبدو كنعان أخا لحام، فيقال « ان بعل ـ كرونوس ـ
ولد بعل آخر هو كنعان ، ومن كنعان جاء كنعان أبو الكنعانيين أو
الفينيقيين ، كما انه أنجب حاما ، الذي يسميه اليونان أسبول ،
وكان أخا لمصرائيم ، وأبا للاثيوبيين والمصريين » .

ويمكن القول انه بقدر ما ناسبت أو تقاربت الاساطير والتراث
الحضاري بعامة لبابل وآشور أو حضارة ما بين النهرين بالاضافة
الى حضارة العرب القحطانيين من جانب وبين جيرانهم من الفرس
الآريين من جانب آخر ، حدث نفس القدر بالنسبة للحضارتين
المتجاورتين ، المصرية القديمة ، ولاحقتها الحضارة الكنعانية
الفينيقية في مدن ـ دول ـ الشام وفلسطين . وهي الحضارة
التي ترجع ارهاصاتها الى بداية الالف الثالثة قبل الميلاد ، والتي
عرفت اماراتها أو مدنها الدول في مدن صور وصيدا وبيبلوس
ودمشق وبعلبك ، جوهر الهيلينية كمجتمع ثقافي مستنير هدفه
الاخير الانسان : حقوقه وواجباته ، قبل أن يعرفها الهلينيون
أنفسهم بقرون ، تصل الى ٢٠ قرنا ، كما يحددها د. توينبي .
بل استمد اليونانيون عنهم تراثهم ودعائم حضارتهم . فمن المعروف
ان فينيقيا استعمرت الجزر القرطاجينية في البحر الايجي ،
ومركزها جزيرة كريت ، في مرحلة ما قبل الهلينية بقرون طويلة ،
أي ان الميثولوجي الهليني جاء كنتيجة شبه مباشرة لنظيره وسابقه
الفينيقي ، بعد أن نقله الفينيقيون خلال تجارتهم البحرية الواسعة
التي كانت مضرب الامثال على طول تاريخ العالم القديم ، الى
مستعمراتهم في جزر البحر الايجي ، والساحل الافريقي عامة .

فالبانثيون الفينيقي هو نفسه البانثيون الايجي ، والآلهة
الفينيقية ، هي بذاتها ما جاءت بها الكشوف الحفرية القرطاجينية
في جزيرتي قرطاجنة في تونس وكريت ، مثل بعل هامان والاله
اشمون وأدونيس والاله المصري ـ بس ـ اله مصر وغرب آسيا ،
والبعلة ، وكذلك بقية الحكايات والرموز الفينيقية السحرية مثل
« خمسة وخميسة » ، والعين الحاسدة ، والنفس الخالق . فيقال
ان مؤسس أثينا هو « مكروبس المصري ، الذي استوطن في اثينا ،

وكان ذلك قبل الميلاد بـ ١٥٠٢ عاما ، وأثينا هي ما أصبحت موطنا
للعلوم والفنون ، بعد أن ألقى فيها مكروبس المصري حياة التمدن ،
فعرّفهم الدين وسنّ لهم التزوج بعد أن كانوا لا يعرفونه ، وأنشأ
محكمة تسمى أريوباجة . وكذلك دانيوس ، وهو مصري آخر ،
أدخل الفلاحة في مملكة ارجوس » .

كما ينسب لقادموس الصوري أنه هو الذي عمر مدينة
طيرة باقليم بيوتيا ، وعلم أهلها زراعة العنب وعمل المعادن ، كما
علمهم الحروف الهجائية .

ويبدو ان الفينيقيين الساحليين سكان المدن الدول صور
وصيدا ، كانوا الى جانب كونهم صيادين مهرة قد اقتحموا البحر
منذ عصور قديمة ، كانوا صناعا حرفيين ، نظرا لعقم الارض
الزراعية ، مما دفعهم الى ركوب البحر وعدم النفور منه ، كما
حدث مع المصريين الذين كرهوا البحر ، ونفروا منه ، وأكثروا من
طرائفهم ووساوسهم عنه ، فعده ـ تابو ـ وحرم على الملوك
والكهنة رؤيته أو الاقامة الى جواره .

ومما ساعد الفينيقيين على اقتحام البحر ، وجود الخشب
الذي تصنع منه السفن في غابات جبل لبنان ، فنزحت بعض
القبائل الكنعانية الى جزيرة قبرص ورودس وصقلية وسردينيا ،
وانتشروا في جزر اليونان البربرية ، وحققوا مكاسب هائلة من
تجارتهم الواسعة ، فيقال انه لما كثرت عندهم الفضة ، واستثقلوا
حملها في بعض الاسفار ، صنعوا منها هلوبا ـ جمع هلب ـ
لمراكبهم بدلا من الرصاص .

والغريب ان هؤلاء الفينيقيين اتهموا من جانب جيرانهم
القدماء ، بتسترهم وتكتمهم لما توصلوا اليه من علوم وخبرات
بحرية ، احتكروا معرفتها وحجبوها عن بقية جيرانهم المصريين
والبابليين والاشوريين وغيرهم . ويقال ان أحد فراعنة مصر تبنى
رحلة بحرية ، قام بها البحارة الصوريون التجار ، لاستكشاف قارة
افريقيا ، فساروا في البحر ثلاث سنين وطافوا افريقيا ، وعادوا
في نهاية السنة الثالثة من منبع النيل ، حتى مصبه ، لكنهم بخلوا

بنتيجة رحلتهم الاستكشافية المبكرة هذه على المصريين .

فلقد كانت فينيقيا ـ في أغلب عصورها ـ واقعة كلية تحت النفوذ المصري ، والبانثيون المصري ، كما سنتناوله بتفصيل أكبر. فيمكن القول بأن مصر القديمة ـ كمؤثر حضاري ، كانت المصدر الام الذي عنه حمل الكنعانيون أو الفينيقيون ، تراثه الحضاري ـ واضافوا عليه ـ الى حضارة البحر الابيض المتوسط ، التي تبدت بعد ذلك في حضارة المدن الدول أو الحضارة الهلينية والرومانية فيما بعد .

وليس هذا بجديد ، اذ ان أحد كبار مصادر الميثولوجيا أو الاساطير الفينيقية ، وهو « فيلو الجبلي » ، حاول اثباته ، ان لم يكن قد أثبته فعلا ، منذ منتصف القرن الاول الميلادي ، أي منذ عشرين قرنا ، فلقد كرّس هذا المؤلف حياته لاثبات ان الاساطير والتراث الشعائري الفينيقي ، هو ما أخذه اليونانيون وأقاموا عليه تراثهم قائلا : « ان اليونان الذين يفضلون سواهم في التمدن والتحضر ، انتحلوا جميع الاخبار والحكايات الفينيقية ، ورغبة منهم في أن يخلبوا الالباب بمحاسن الحكايات الخرافية ، أضافوا عليها بكثرة لا حد لها ، كل ما أسعفتهم به مخيلتهم ، ومنهم الشاعر هسيود ، وبقية الشعراء الجوالين الذين ملأوا العالم بخوارقهم وحكاياتهم ، فهم الذين أخذوا عن الفينيقيين علومهم ومعارفهم عن الآلهة ، وحروب الجبابرة وغير ذلك ، أما عن اختلاقاتهم المتوالبة التي نشروها في كل صوب ، فقد عودت الناس على الاكاذيب ، وخنق الحقائق .

وكان « فيلو الجبلي » أو البيبلوسي هذا من سكان مدينة جبل أو جبيل بلبنان ، ويرجع البعض انه شخصية أسطورية مثل هوميروس ، كما يقال بأنه استعار تاريخه أو أساطيره أو أعماله هذه ، من كاتب فينيقي سابق عليه بحوالي أربعة قرون ، وهذا الكاتب هو « سنكن يتن » ، بل ان فيلو البيبلوسي نفسه قال عن سلفه « يتن » ، انه كان أول من دوّن هذا التاريخ « البعيد عن الخرافة » ، كما قال « ان سنكن يتن قد وفق الى العثور على

الكتابات السرية المنقوشة على الاساطين وحجارة الرقى ، والتي تخبأ وتحفظ في أخفى أماكن الهياكل سرية » .

وبدأ فيلو أو « سنكن يتن » تاريخه ، على عادة ما اتبعه الساميون ، أي بادئا من بدء قصة الخليقة ، وبشكل أدق بفكرة البيضة الخالقة ، كما جاءت بها أساطير الخلق المصرية ، « فبعد أن لقحت الريح البيضة الخالقة وبعثت فيها بالنفس الخالق ، أخرجت ذرية كنعان من فينيقيا ، الذين ولدوا في ذرية الانسانين الاولين أو الخالقين ، وهما يون أو الدهر أو الزمن ـ وبروتوجون أو حواء البكر المولودة الاولى ، ومنهما جاءت ذرية فينيقيا وعددهم مائتان ، فسموهم النور والنار واللهب ، وبعد ذلك أنجب هؤلاء الكنعانيون أولادا ضخام الاجسام ، طوال القامات ، وسميت الجبال التي ملكوها بأسمائهم ، وهي « قاسيون ولبنان وانتيلبنان وبراتي، وولد من صلب هؤلاء الابطال بعد زواجهم من نساء عاهرات بلسامين أو شميم روم ـ أي المرتفع في السموات العليا ـ وهو بعل شميم أي رب السموات » . وتزوج عليون بالحسناء بيروت أو عشتروت ، فأنجب منها اله السماء وأخته الهة الارض ، وأما عليون فهلك خلال صراعه مع الوحوش الضارية ، وكان ان الهه أبناؤه وعبدوه ، وخلفه ابنه اله السماء الذي تزوج بأخته الهة الارض ، فولدت له أربعة أولاد ، هم ايل أو كرونس (١) أو بيت ايل ، وهو ما كان يطلق على جبل لبنان ، وأحيانا على لبنان عامة ، وداجون (٢) اله الحبوب ، وسيتون وعتل ـ أي الحزين المضطهد ـ ومعناه الذي ما تزال تحفظه الذاكرة الشعبية « عتل الهم » ، أي كابده وحمله . وينسب لهذا الاله انه أول من اخترع الملاحة ، ويرى البعض ان عتل يصنف مع هرمع واخنوع أو ادريس .. الخ. وتحكي أسطورة الخلق الكنعانية هذه عن خطايا متلاحقة ، ارتكبها ـ اله السماء ـ منها زواجه بنساء كثيرات ، أنجب منهن ذرية لا حصر لها ، ومنها انه هجر زوجته الهة الارض وحاول قتل أبنائها

---

(١) ساترن اليوناني .

(٢) الهة سومرية .

مرارا وبلا هوادة . لكن ابنه البكر ايل ما ان بلغ مبلـغ الرجال ، حتى اتخذ الاله « توت » أو « تحوت » اله الكتابة الذي عرفـه الساميون ـ فيما بعد ـ في الملاك جبرائيل ، كاتبا لاسراره ، ثـم أشعل حروبا طاحنة ضد أبيه ، لاهانته لامه الارض ، وأيل هـو أعظم آلهةالشعوب السامية ، ومعناه في اللغات السامية القـدرة أو القوة ، وعند اليونان والكلدان « ايليوس » أي الشمس ، ويذكر بنصه في التوراة على انه الله ، ومن اسمه جاءت تسمية اسرائيل التي تسمى بها يعقوب عقب زواجه من راشيل أم النبي يوسف ، ومعناها بالسريانية ولي الله أو ولي ايل ، كما ان من اسمه جاءت تسمية ملائكة العرش ـ أو اربعة أركان التابوت ـ عند كافـة الشعوب السامية ، وهم جبرائيل وعزرائيل وميكائيل واسرافيل . فجبرائيل رسول الله ، جبرا معناها رسول وايل الله ، وعزرائيل عبد الله ، عزرا معناها عبد وايل الله ، وميكائيل صفي الله ، ميكا معناها صفي وايل الله ، واسرافيل ولي ايل (١) .

وبعد أن انتصر ايل على أبيه وتمكن من اصطياده وحبسه في أعماق الهاوية ، بنى مدينة جبل أو بيبلوس في فينيقيا ، وعرف بعد ذلك بايل الوهيم ، أو برب الارباب . ويقال انه كان لايل ولد وحيد يدعى شديدا ، توهم فيه الغدر يوما ، فذبحه بيديه ، وبعد ذلك فعل نفس الشيء بابنته ، فكان أن « خافته الآلهـة وامتلأت قلوبهم رعبا » . وعندما سئم أبوه اله السماء منفاه ، أرسل اليه بابنته عشتروت وأختها رية أو « سميرنا » أو ديونا أو « بعلتـي ـ أي سيدتي » ، للايقاع به ، لكن ايل تمكن من استمالتهن وتزوج بهن ، وولد لايل من عشتروت سبع بنات ، يعرفن في الميثولوجي الكنعاني بالطيطيات أو الترابيات ، كما انه أنجب من رية سبعـة ذكور ، وعاد فأنجب مـن عشتروت ابنين آخرين هما الشـوق والعشـق .

وبعد أن حكم أيل ٣٢ عاما ، عاد فأوقع بأبيه بعد أن نصب له الفخاخ التي أوقعه فيها ، وحين أصبح بين يديه مزق أطرافـه

---

(١) التيجاني ، ص ١٥٤ ، وهب منبه .

وأعضاءه ، وألقى بها مع دمه في مياه الينابيع والآبار والانهار ، ثم ان ايل وزع ملكه اللامحدود على أبنائه ، فأعطـى عشتروت ملك أتيكه ، وهي جزء من بلاد اليونان ، وأعطى مدينة جبيل للالهـة بعلتي ، ووهب بيروت لبوصيدون اله البحر .

وعندما تفشى الوباء في ممالكه المترامية ، ذبح ابنه الوحيد ترضية لابيه السماء ، ويقال انه كان أول من اختتن ، وأمر جميع أهله أن يحذوا حذوه ويختتنوا ، كما ينسب لايل انه كان أول من تزوج بجنية مائية اسمها « عين عبريت » أو عفريت ، وأنجب منها ولدا وحيدا ، ولذلك لا يزال الفينيقي يسمي ابنه الوحيد ، يحيد أو وحيد .. الا انه عاد فذبحه . وبعد ذلك وهب حكم مصر للاله توت أو تحوت ، اله الفكر الذي اكتمل في الملاك الرسولجبرائيل .

* * *

ولقد اختلف المؤرخون البيزنطيون ـ بخاصة ـ في التعرف على نسب ايل اله آسيا الغربية أو الساميين الاوائل الجبار هذا ، فنسبه البعض الى سام ، ونسبه البعض الآخر الى حام ، ووحده البعض الثالث مع ابراهيم الخليل ، ذلك ان جميع الشعـوب والقبائل السامية ، ادعت انتماءها الى هذا الاله ، فظهر في آخر أسمائهم مثل عموائيل واسماعيل ـ أي سمع ايل ـ وروفائيـل وميخائيل وصموئيل .. الخ .

ولقد حدد بلوتارك مكان اقامة ايل « في جزيرة » أو فـي « المجـدبة ، التي هي خلف الاوقيانوس الكروني » . وفي بعض أساطيره ، ان حيتان البراري أسرته واحتجزته في احدى الجـزر القريبة من الجزائر الانكليزية .

وينسب لايل ، الذي أصبح كرونس عند اليونان كما يقـول فيلو ، انه كان يملك أربع عيون : عينان الى الامام ، وعينان الـى الخلف ، عينان مفتوحتان ، وعينان نائمتان ، ومعنى هذا انه كان في مقدور هذا الاله ايل « أن ينام متيقظا، ويستيقظ وهو نائم » .

ولقد أدى استغراق ذلك الكاتب الفينيقي فيلو دفاعا عـن فكرته أو وجهة نظره في اثبات سبق الآلهة والاساطير الفينيقية ،

لنظيرتها ولاحقتها الهلينية اليونانية ، وهو ما أكده بعده سلفه سنكن يتن الذي نقل عنه ، دفاعا عن فكرته هذه التي حاول اثباتها منذ ٢٠ قرنا ، وهي ان الميثولوجي الكنعاني الفينيقي هو الاصل الام الذي اشتق منه لاحقه الاغريقي .

رغم انه فاته التعرض لبقية التراث الشعائري والاساطير الفينيقية ، التي كشفت عنها بالفعل ، كشوف رأس شمرا — اللاذقية — عام ١٩٢٩ ، عن أساطير الاله البعل ، أو جوبيتر ، وأدونيس أو تموز ودانيال ... الخ .

هذا على الرغم من ان كشوف راس شمرا التي حدد عمرها بالقرن الرابع عشر قبل الميلاد جاءت فجلت الغموض الكثيف الذي اكتنف كوزومولوجي فيلو الدمشقي الذي ركز أغلب جهوده على أسطورة الاله ايل أو كرونس ولم يتعداها الا قليلا ، فمثلا أكدت هذه الكشوف الحفرية التي عثر عليها في رأس شمرا ان الاله عليون جد ايل الذي كان قد تزوج بالحسناء بيروت أو عشتروت ، وأنجب منها الهي السماء والارض ، لكنه مات خلال صراعه مع الوحوش ، فكان أن مزقته أنياب الوحوش الضارية .. فهذا الاله الممزق لم يكن سوى أدونيس ، اله آسيا الغربية ومسيحها الممزق، المتوارث من السومريين — ٤ آلاف عام ق.م. — اللاساميين .

ولقد جاءت نصوص رأس شمرا ، بأسطورة أدونيس ، الذي أصبح السلف المباشر للاله هابونيجا ، وحلّ بعد ذلك محل الهتي الاخضرار « آلين » أو « عليين » و « موت » ، وليس هناك خلاف كبير بين نصوص رأس شمرا الادونيسية ، وبين نصوص تموز البابلية ، فكلاهما — أدونيس وتموز — ولد من أمه التي سحرت نفسها الى شجرة المر ، ومن جذعها ولد ، وعشقته افروديت وخبأته من أختها الهة العوالم السفلى عند الآسيويين بعامة « بروسربين » أو « برسيفون » أو « اللات » عند عرب الجاهلية الاولى .

ويتوالى الصراع بين الاختين ويحتدم الى أن يصل

مسامع كبير الآلهة زيوس ، فيحكم بأن يقضي أدونيس نصف العام على وجه الارض ونصفه الآخر تحت الارض .

وقد تبدت شخصية أدونيس في القرن السادس ق.م. ، متوحدا مع الاله الدمشقي اشمون ، ويرجع الى مدينة بيبلوس التي كانت مركزا للاهوت الادونيسي اشاعته في مجمل العوالم الكنعانية والفينيقية في سوريا ولبنان وفلسطين .

وكان أول تدوين لهذه الاسطورة الملخصة لتعاقب فصلي السنة ، أو الجدب والنماء ، قام به الشاعر « بانياس » (١) في القرن الخامس قبل الميلاد ، فجمع أسطورته ، وأعاد نظمها شعرا.

أما الاله البعل في نصوص رأس شمرا ، فلم يكن سوى بعل تعفون — الذي تبدى في المفهوم الشعبي على هيئة جوبيتر أو بعل لبنان وسيدها . وهو الاله حداد اله المطر والرعد ، وكانت أمه الهة الاخصاب البحرية عشتر .

وعرف بعل تعفون في الاساطير المصرية باسم ستخ ، وهو رمز أو انموذج سمى به المصريون الآلهة الاجنبية . كما انهم سموا الآلهات الاجنبيات هاتورات ، كما ان العرب عرفوه باسم بعل تعفون .

وكان لبعل حداد الفينيقي بنات ثلاث هن روح الحصاد « موت » ، وروح الربيع « عالين » ، و« أنات » أو أناث أو أناثا بمعنى الانثى ، الهة المحاصيل العذراء ، التي كان يضحى لها في موسم الحصاد ، وهي الالهة التي حملها الهكسوس الى مصر ، وقدست في أحيان أخرى ، وينسب لهذه الالهة انها هي التي تغطي وجه الارض بالندى أو الطل « انها هي — أنات — التي تهب الارض دسمها » . وكان من القابها عند المصريين « قادش » أو المقدسة ، وكان الاسد حيوانها أو شعارها المقدس .

أما الثور فكان الحيوان المقدس لايل، ومن ألقابه « الثور ايل » .

---

(١) يبدو ان من اسم هذا الشاعر ، تسمت مدينة بانياس في سوريا الشمالية، وبعض المدن العربية .

ونسبت مكتشفات رأس شمرا ، للاله ايل ، انه أنجب ابنا يدعى « كريت » ، وكان كريت هذا ملكا على سدوم ، وأمره أبوه ايل بالقيام بغزوة تقودها الالهة « تيرا » أو طيرة لتأديب شعب زبولون (١) ، وهي قبيلة أصبحت فيما بعد جزءا من اسرائيل ، كانت تشغل المنطقة الواقعة بين جبل الكرمل وبحيرة الجليل. وبعد أن عاد كريت من حروبه — اشترى زوجة — أنجب منها طفلا جميلا كعشتر ، كريما كائنات « ويقال انه كان طفلا عجيبا ، اذ انه ما أن ولد حتى دوى صوته صارخا : « أنا أكره الاعداء » . وسمي هذا الطفل « دانيال » ، وعندما كبر أصبح بطلا أسطوريا ، فنبغ في فن العرافة ، وأنجب ابنة أصبحت فيما بعد ، ملكة كل الاسرار) . ويبدو ان دانيال هذا ، هو ما عناه النبي حزقيال ، حين قال لملك تيرا أو طيرة : « أنت أعقل من دانيال ، ولا سر يخفى عليك » .

ويورد الدميري (٢) ، حكاية غريبة ، عن هذا الطفل الموعود المبكر ، دانيال ، فيقول :

« ان الملك الذي كان دانيال في زمانه ، قد تنبأ له عرافوه ، بأن طفلا سيولد في تلك الليلة ، يفسد عليه ملكه ، فأمر بقتل كل من يولد من الاطفال في تلك الليلة ، ولما ولد دانيال وضعته أمه في أجمة أو حظيرة أسد ولبؤة ، فبات الاسد ولبؤته يلحسانه ، فنجاه الله . ويقال ان أبا موسى الاشعري ، لقي خاتما نقش على فصه أسدان ، بينهما رجل وهما يلحسان ذلك الرجل » ، والمقصود به دانيال .

كما كان من بين مكتشفات رأس شمرا ، الى جانب الاساطير الكنعانية ، مجموعة عظيمة من الملاحم والقصص الشعرية ، والحكايات التعليمية التي تكشف عن فجر الاخلاق ، وكذلك سير وحكايات الابطال وانصاف الآلهة الذين تزوجوا من بنات الناس . وهي تلك الحكايات المتصلة بالخلق والخطيئة الاولى ، فبعد أن قتل قابيل أخاه هابيل ، هام قابيل على وجهه ، فولد لآدم شيث الذي حلّ محل أخيه القاتل ، وعليه فقد سمي نسله من بعده بأبناء الله،

(١) نسبة الى زبولون ابن يعقوب .
(٢) حياة الحيوان للدميري ، ص ٥ .

تمييزا له عن نسل أخيه قابيل القاتل الذي من نسله جاء الاشرار الذين عرفوا بأبناء الناس (١) .

ولما كان قابيل قد أقام منزويا في أعلى جبل حرمون أو الحرمان ، فقد عشقت الملائكة بناته ، وأباحوا المعاصي والمحرمات.

وتنسب الميثولوجيا العربية ، للقبائل العربية البائدة ، انها جاءت الى الوجود بعد أن تزاوج الملائكة وبنات آدم ، فيقول الجاحظ :

« وذكروا ان جرهما كان من نتاج ما بين الملائكة وبنات آدم ، وكان الملك من الملائكة اذا عصى ربه في السماء ، أهبطه الى الارض في صورة رجل ، كما صنع بهاروت وماروت ، وما كان من شانهما مع الزهرة ، وهي أناهيد ، فحين هبط جرهم في صورة رجل ، وتزوج بامرأته — البشرية — أنجب جرهم » .

وقد وردت بهذه الاساطير والملاحم التي ترجع الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، أسماء الممالك والقبائل المندثرة ، مثل سدوم وعموره أو ثمود وعاد وتيرا Tyre وعرفات وجرهم .. الخ.

وأما عن الالهة عشتروت ، التي وجد هيكلها بالقرب من نهر ابراهيم ، وهو النهر الذي عرفه القدماء بنهر أدونيس . وكان من أسماء عشتروت والقابها المتعددة اسم بيروت الذي أطلق فيما بعد على العاصمة اللبنانية ، ويقال انه كان لعشتروت ثلثمائة لقب، منها : « يو — ياه — ديدا — عنت — تنيت — الزهرة — أرتميس — أوربا — بعلتي — اللات — الفرقد — حنه — نعمة » وهكذا .

ولقد عبدت الشعوب الكنعانية الفينيقية عشتر ، باعتبارها الهة بحرية طوفت في كل أنحاء العالم الفينيقي البحري أو الساحلي، برفقة بوصيدون — نبتون — . وبشكل محدد ، فان هذه الحضارة الساحلية البحرية الفينيقية ، خلقت آلهتها البحرية ، ومن هنا أصبحت بيروت (٢) مركزا هاما لتأليه البحر ، فكان الكبيران الهين بحريين . كما ان عشتروت نفسها الهة خرجت من زبد

(١) تكوين ٤ : ٢٥ و ٦ : ٢ .
(٢) الجنية المائية ، بيريه .

البحر . وينسب لبوصيدون بكر كنعان انه أول من تسلط على
البحر ، بأمر من أبيه ايل أو كرونس . كما ينسب لعشتر البحرية
انها خلال طوافها على طول الساحل الشمالي الافريقي ، أسست
في ليبيا مائة مدينة ، واسم ليبيا نفسه متواتر من اسم الالهة
ليبيا ابنة « يوعشترت » ، وتذكر الاساطير الليبية ، انها هي
« يوعشترت » التي بنت مدن فينيقيا ومصر وبلاد اليونان ،
وقرطاجة .

وعندما تملك صيدون ابن كنعان المدينة الدولة صيدا أصبح
ملكا على كل فينيقيا ، وتزوج « صور » وانجب منها بدوره أبناء
« كثيرين كرمل البحر » ، منهم قدم ، وفينق أو فينكس ،
وفيليق ، وسور ، وتاس ، وسيبول ، وفيني ، ودريال ، وأوروبا ،
وتملك هؤلاء الابناء الآلهة ، بدورهم ، على كل الممالك الكنعانية ،
ومصر وآسيا الصغرى ، بحسب ما تشير به أساطيرهم .

لكن اسم صيدون ، ابن كنعان ، عمم فشمل كل القبائل
الكنعانية ، كما ان التوراة (١) لقبت الكنعانيين بالصيدونيين في
أماكن عدة ، وذلك لعدة أسباب منها : ان صيدون كان بكر
كنعان الذي تضخم فأصبح أمما بدوره ، ومنها انهم كانوا أمما
ساحلية ، تعمل بالصيد والتجارة ، فلفظ صيدون يدل في أصله
على « صيد السمك والطيور » .

ويبدو انها تفرقة بيئية قصد بها الساميون الرعاة « أصحاب
الوبر » اطلاقها للتفريق بينهم وبين جيرانهم أصحاب الصيد
والبحر ، كما انهم أطلقوها بعامة على الحاميين والكنعانيين ، ولما
كانوا قد اعتبروا النماردة ، حاميين أو كوشيين أو كنعانيين ،
أجناسا واطئة . فنمرود الجبار الكوشي أو الاسود ـ الذي حارب
ابراهيم (٢) ـ هو أول جبار في الارض ، وكان جبار صيد أمام
الرب ، ولذلك يقال كنمرود جبار صيد أمام الرب .

(١) عدد ١٣ : ٢٩ ـ أيوب ٤٠ : ٣٠ ـ أمثال ٣١ : ٢٤ .

(٢) تكوين ١٠ : ٨ ، ٩ .

ويبدو ان كلمة « صيد » استعملت بمعنى اقتناص الناس
واصطيادهم ، اذ انه سرعان ما استعملها الرسل المسيحيون بعد
ذلك بنفس المعنى وهو اصطياد الناس « اتبعوني لتصيروا صيادي
الناس » . يقول القديس أوغسطين (١) : « كانت الحرب في نظر
المحاربين الاولين ، صيدا للناس » . كما عرّف أرسطو الغزو بأنه
نوع من أنواع الصيد .

ونظرا لان هذه المجموعة من الاقوام أو القبائل الكنعانية ،
كانت شبه مبددة ، أي انها لم تصل الى الدرجة من التوحد
والالتئام الذي سارت فيه حضارات الشعوب الزراعية ، أو حضارة
دالات الانهار المتاخمة ، في دلتا مصر والعراق وفارس والهند ،
فهي لم تتخط حضارات المدن الدول ، وهو ما كانته الحضارة
السومرية التي ترجع الى الالف الرابعة ق.م. في مدن لجش
ونينوى والاركاء أو الورقاء ، أو ما أصبحته الحضارة المينوية
الموكونية ، في جزر الارخبيل أو البحر الايجي ، والتي توارثتها
حضارات المدن الهلينية الدول في اثينا ، وآرجوس ، وطروادة ،
فيما بعد . وعلى هذا ، فلقد كان لكل مدينة من هذه المدن
الكنعانيةالفينيقية ، تراثها الاسطوري المتميز والمتوحد ـ الى حد ـ
في ذات الوقت .

فمثلا أيدت الكشوف الحفرية في جزيرة قرطاجنة بتونس ،
انه كان للفينيقيين سكان مدينة صيدا ، اله يسمى صيدا ، وآخر
يعرف بصيدون ، كان يكتب اسمه على نقود المدينة الدولة صيدا :
« وهو من نسل صيدون بن اجبت «أي الاجبتيين» ، أو «المصريين»
كما يقال ان صيدون هذا جاء من مصر الى فينيقيا أول ما جاء ،
وهزم القبائل الكنعانية التي تسمى بأرض فلسطين ، واستوطنها
وبنى فيها مدينة صيدا » .

وفي احدى الاساطير المصرية القديمة ، التي جمعها المؤرخ

(١) مدينة الله ١٥ : ٤ .

الهليني « ايسوب » (١) ، يبدو ان الالهين قدم وفينق ، قد جاءا أول ما جاءا من مدينة طيبة ـ تيبه ـ المصرية ، ليتملكا على مدن صيدا وصور ، وان أوزيريس خلال طوافه في الارض ، أقام الاله بوصير ملكا متوجا على فينيقيا .

أما أساطير مدينة صور فتتركز حول الهها الحامي « بعل شميم الذي أقام بمدينة صور وصنع الاكواخ من القصب والخيزران والبردى ، وجرت له مع أخيه عوس منازعات طويلة . فعوص أو العيص ، كما يسميه العرب ، أول من اهتدى الى اتخاذ الثياب من جلود الحيوانات التي كان يقتنصها ويقتلها بيديه » .

وفي سلسلة النسب العبري ، يتبدى عوس ، أو عيسو أو العيص ، كشقيق توأم ليعقوب بن اسحاق بن ابراهيم الخليل . وهو الرجل الاشقر ، كما تحدد أوصافه أساطيرهم المتعددة ، التي قد تتشابه أو تتطابق مع قصتنا المصرية المعروفة منذ الدولة الوسطى بقصة الاخوين .

وتحكي أساطير هذين الالهين الشقيقين التي عثر عليها بمدينة صور ، أن حريقا هائلا شب في مدينة صور ، فأقام هذان الاخوان الهياكل لآلهتي الريح والنار ، وبعدما مات هذان الاخوان أو ـ الكبيران ـ عبدهما أبناؤهما بعد ذلك .

وخلف عوس ابنه دامور ـ أي النخيل أو التمر ـ ، ثم أعقبه هركل أو هرقل ، « أول من اخترع الارجوان وقلد به عشتروت » . ويبدو ان هرقل هذا هو أول من غزا جزيرة قبرص وفتحها « وكان تحت امرته مقاتلون من الفينيقيين ، والعرب ، والافريقيين واليونان وغيرهم » . وبعدها فتح بلاد اليونان وصقلية ، وقتل « فونا ملك ايطاليا الذي كان يذبح الغرباء » ، ووهب لابنه « سرد » جزيرة سردينيا التي تسمت باسمه . وغزا هرقل بلاد

(١) « ايسوب » ، أهم مؤرخ ومصدر للاساطير والملاحم والبالاد الشعرية ، والحكايات الخرافية ، ويقال انه كان عبدا اغريقيا يعيش في القرن السادس ق.م. ، ويرى البعض انه شخصية خرافية ، مثله مثل الشاعرين هوميروس وهسيود .

الغال ـ أي فرنسا ـ واسبانيا ، « حيث التقط تفاحات الذهب » . وخلال صراعات هرقل الصوري هذا وفتوحاته ، لدغه التنين ذو الرؤوس السبعة ، فأشارت عليه آلهة دلفي بأن يدهن جروحه بورق شجرة تشبه التنين ذا الرؤوس السبعة ، موجودة في مدن الشرق . وينسب لهرقل الصوري انه أول من بنى مدينة عكا . وذلك بعد أن عثر بها على النبات الذي شفيت به جروحه الدامية.

* * *

أما عما وصل الينا من تراث وأساطير مدينة دمشق أو ما كان يعرف قديما بسوريا العليا ، فجاء تراثا مخالفا ـ الى حد ما ـ لتراث العالم الكنعاني أو الفينيقي . ذلك لان سوريا كانت تنتمي الى القسم الشرقي ، أو البابلي الاشوري ، أي حضارة ما بين نهري دجلة والفرات بعامه في أغلب أحقابها التاريخية ، كذا تواتر اليها وساد تراث ومعتقدات التراث البابلي ، المتأثر بدوره بتراث العالم الآري ، وبشكل أخص التراث الفارسي المجوسي ، اكثر من تأثرها بتراث القبائل الفينيقية الكنعانية في ربوع الشام وفلسطين ، والواقع بدوره تحت النفوذ الاشعاعي للحضارة المصرية القديمة .

لذا لم يكن هناك اختلاف طويل بين ما وصل من آلهة ومعتقدات متوارثة من حضارات ممالك كلدة وآشور وبابل ونينوى في العراق ، وهو التراث الحضاري بعامة الذي توارثته هذه الحضارات من سابقتها الحضارة السومرية اللاسامية ، وبين تراث مدينة دمشق .

فكان الاله هدد ، أو حداد ، هو اله سوريا ، وكانت سميرنا التي اتخذت اسمها لقبا ـ فيما بعد ـ الملكة الالهة سميراميس ، التي حكمت وتملكت على بابل .

وهي الملكة التي خالطت الاساطير التاريخ في منشئها واختفائها على السواء . وكان طائرها المقدس هو الحمامة ، ونسب لها تشييد مدينة بابل والحدائق المعلقة ، كما نسب اليها السوريون الاقبية التي عثر على بقاياها بالقرب من نهري بيروت وابراهيم في

لبنان ، كما نسب اليها القديس صفرون الدمشقي انها هي سميراميس التي سوّرت مدينة دمشق . ويقال ان سميراميس كانت ملكة سوريا في منشئها ، ثم تملكت بعد ذلك « بلاد آشور وآسيا الصغرى والجزيرة العربية » .

ومعنى اسم الالهة سميرنا ، أي أم الحمام التي منها جاء اسم الملكة سميراميس ، أو كاهنة الحمام ، ذلك انها حين ولدت من رحم أم سماوية كانت قد تركتها في الخلاء عقب ولادتها ، فتعهدها بالرعاية سرب من الحمام ، كما انها حين ماتت ، تحولت الى حمامة ، ولهذا تتوحد سميراميس مع راشيل زوجة يعقوب ، وأم النبي يوسف ، التي تسمت أيضا بالكاهنة الحمامة .

ولعل هذا يفسر لنا مدى احتفاء الادب الشعبي بالحمام والغناء له : « ما تطخي يا بندقية ، ورا الحيطة حمام » ، وحمام الحما وعبد العال في ملحمة السيد البدوي ، يتحول الى حمامة .

وعندما كبرت سميراميس أحبها وتزوجها حاكم سوريا ورئيس مجلس شيوخها . ولما كانت سوريا جزءا من العالم الاشوري ، فقد رآها الملك نينوس ملك آشور وأحبها خلال احدى حروبه ببلاد بقطريانه ، حين كانت برفقة زوجها القائد حاكم سوريا . وأحبها ملك آشور وهام بها لانها لعبت دورا حربيا هاما رجح كفة الاشوريين في الحرب ، فطلب من زوجها حاكم سوريا التخلي له عنها ليتزوجها ملك آشور الشيخ ، على أن يهبه ابنته بدلا منها زوجة له . ولما رفض زوجها القائد : « انني أرفض أن أصبح صهرا لملك آشور الذي يسلبني زوجتي » ، هدده الملك بخرق عينيه ، فكان أن انتحر زوجها القائد ، وتزوجها الملك نينوس ، وبعدها قتلته انتقاما لزوجها السابق ، واتسعت فتوحات سميراميس بعد ذلك في فارس والهند وأرمينيا ، الى جانب كل شواطىء البحر المتوسط . وكما يقول اسطفان البيزنطي ، فان سميراميس فتحت مصر ، وزارت الاله آمون ـ المشتري ـ لكي تستوضحه نبوءة عن نهاية حياتها ، فأنبأها آمون بأنها ستختفي مثل حمامة، وتفوز من أكثر الشعوب الآسيوية بتقدير لا يمحى » .

وخلاصة القول ان هذه الالهة السورية سميرنا أو سميرام السورية هذه ، التي نسب اليها المؤرخ سترابون أغلب خوارق غرب آسيا ، تتشابه الى حد كبير ، خاصة في تضمينه قتلها لعشاقها عقب الجماع ، مع الملكة البابلية سميراميس .

كما ان سميرام ، أو سميرنا السورية هذه ، تتطابق مع سير أساطير بلقيس ملكة سبأ الحميرية اليمنية ابنة هود أو الهدهاد بن شرحبيل ، وكذلك تشابه سيرها وحكاياتها ، مع ما دار حول « ميرنا » ملكة « الامازون » الليبيات ، بحسب روايات ديودوروس الصقلي :

« ان ميرنا ملكة الامازون الليبيات ، جندت جيشا قدره ثلاثون الفا من المشاة ـ الامازون ـ واثنا عشر الفا خيالة ، وطافت افريقيا ، وعندما مرت بمصر، صادقت حور بن ايزيس ، الذي كان ملكا متوجا بها ، ثم زحفت من هنا على العرب وذبحتهم ذبحة عظيمة ، وعادت بطريق الشمال وغزت سوريا » .

أما ما تبقى من تراث وأساطير المدينة الدولة هليوبوليس ، أو بعلبك ، التي استمد اسمها من الاله الشمسي بعل ، فانه يؤكد اكثر فأكثر سيطرة التراث العقائدي والاسطوري المصري ، على فينيقيا ، وبحسب ما يقول عالم الاساطير المقارنة ماكروبولوس ، الذي أشاد به فريزر في اكثر من مكان في موسوعته الفولكلورية الانثروبولوجية « الغصن الذهبي » ، فان أصل هذا الاله الشمس، قد جاء الى بعلبك من مصر : « حمل من مصر ومن المدينة التي تسمى أيضا بهليوبوليس » . وما عناه ماكروبولوس هو الاله الشمس المصري رع ، الذي كان مركز عبادته مدينة هليوبوليس ، أو عين شمس .

وكان الاله تيفون واحدا من الآلهة الهامة التي ورد ذكرها في الميثولوجي الفينيقي الكنعاني . وتيفون اله مشؤوم لا سامي ، اذ انه كان اله القبائل الرعوية اللاسامية ، الذين عرفوا بالهكسوس.

ويرى روبرت جريفز ، أحد علماء الانثروبولجي ، ان الهكسوس قبائل رحل رعوية ، جاؤوا من ارمينيا وما يجاورها ، فغزوا سوريا وفلسطين ، ثم دخلوا مصر حوالي عام ١٧٨٠ ق.م. وأقلموا أنفسهم على الاستقرار في دلتا النيل وشمال مصر عامة .

وجعل الهكسوس من الههم الحامي تيفون أخا لاوزوريس ، الا ان المصريين وحدوا تيفون بست ، قاتل اوزوريس ومغتصب عرشه ، فكان تيفون ، الاسم المستعار لست ، من ألدّ أعداء أوزوريس .
ولقد رمز به المصريون ، الى عالم الظلام والشر ، اذ انه عندما رأى قدر أصدقائه ، جدف منزعجا بكلام أشبه بنهيق الحمار ، وبسبب كلماته الخبيثة أصبح شيطانا ، وظلّ خصما للابن حورس ، وسببا دائما لموته السنوي أو الموسمي .

ويذكر بلوتارخ عن طرد الهكسوس من مصر ، بقهر اوزوريس لتيفون وطرده من مصر ، بل من غرب آسيا عامة : « ان تيفون بعد أن غلب وفرّ من المعركة ركب حمارا ، ولم يصب الامان الا في سابع يوم لهروبه » .

فلقد لعب هذا الاله الشرير الذي وحده الساميون مع الحية « فتن » ، التي من صدرها رضع تيفون « أدوارا متعددة لدى الشعوب الآسيوية بشكل مجمل ، فتروي عنه الخرافات الفينيقية انه كان تنينا هائلا » . وعندما ضرب بالصاعقة ضربات هائلة غاص في قاع الارض ، فحفر مجاري الانهار ، وفجر الينابيع ، حتى فاضت مياهها فملأت مجاري الانهار ، لذا سمي النهر طيفون » .

وفي حكاية أخرى ، نقلها سترابون عن المؤرخ السوري « بوصيدون » ، يقال انهم « عثروا في سهول مقره بفينيقيا ، على حية ميتة ، شغلت جثتها فدان أرض ، وأما ضخامتها فشيء عظيم، فيمكن لفمها أن يبتلع حصانا براكبه » . وفي حكاية فينيقية أخرى « ان تيفون تسبب في اشعال حريق هائل باشعاله غابات أرز لبنان ، حتى عمّ الحريق آسيا بأسرها ، ووصل الى الهند » ، وذلك بسبب ما كان ينفثه حلقه من لهيب .

وارتبطت بعلبك بالاحتفالات السنوية الماجنة ، بعيد قيامة الاله الممزق أدونيس ، ثم ديونيوس خلال حكم اليونان ، وأخيرا باخوس بعد مجيء الرومان ، وكانت الاحتفالات تقام في السهول الممتدة حول بعلبك ، حيث الكروم والخمر التي « أسكرت الناس وثنيات السهول الخصيبة » .

ولقد وحد الفينيقيون بين النخلة ، التي اعتبرها الساميون بعامة شجرة الحياة في جنة عدن ، وبين ألهة الاخصاب الجنسي والتعشير عشتروت أو عشار ، فالنخلة كانت شجرة الميلاد أو شجرة العائلة عند كل شعوب غرب آسيا ، في مصر وبابل وفينيقيا والجزيرة العربية ، كما ان من اسمها جاءت تسمية فينيقيا أو فينيق أبو الفينيقيين ، بمعنى « الدامي » ، اذ ان شعوب البحر الابيض عامة ارتبطت وربطت بين عمليات اخصاب النخيل ، أو ما يعرف بـ « الطلوع » أو التلقيح التي بدونها لا تطرح النخلة أو تثمر ، فهناك علاقة بين النخيل ، وبين الموت ثم القيامة ، أو توالي الولادة والاستمرار .

وكانت النخلة هي شجرة عشتروت المقدسة ، فمن ثمرها — أو تمرها — تسمت عشتروت ، كما ان من اسم ثمرها جاء اسم الاله « دامور » أو « تامور » أو « تامير » أي التمر ، ووجدت آثار هذا الاله في جزر البحر المتوسط التي استعمرها الفينيقيون، فكان يصكّ على النقود في شكل أو شعار نخلة وافرة الثمار .

فلقد سمى اليونان فينيقيا والشرق الادنى القديم عامة ، ببلاد النخيل ، كما أن من اسم النخلة تسمت مدن « تدمر » في كل من الشام واليمن والحجاز ، كذلك فقد عبد العرب نخلة نجران ، كالهة ، وكانوا يزينونها سنويا بأزياء نسائية (١) ملونة ، كما يقول جريفز .

ودخلت النخلة الميثولوجي الاغريقي ، فكل من الآلهة أبولو ، ونبتون ، وذيلين ، ولدوا تحت نخلة ، وكذلك المسيح في الميثولوجي السامي .

وتضيف أساطير بعلبك ، ذات الاصول أو المنابع المصرية ، ان طائرا يسمى فينيق أو النخيل كان يحجّ الى هليوبوليس ، أو بعلبك ، فيموت بها ثم يعاود الحياة من جديد .. فيقال ان فينيق

(١) وهو تقليد ظل ساريا حتى عصر الفاطميين في القاهرة الفاطمية ، بل والمملوكية .

هذا هو بعينه الطائر المصري الخرافي « بينو » ، وهو طائر خرافي لم يتشكك الاقدمون في الايمان به ، فعبدوه في هليوبوليس كروح لاوزوريس ، كما ربطت عبادته بعبادة رع ، وعدّ في أغلب الاحيان صورة ثانية له ، ووحده الفينيقيون بطائرهم فينقس ، الذي وصفه هردوت (١) بأنه كان يشبه العنقاء ، وقال بأنه يظهر في مصر مرة واحدة كل خمسمائة عام ، وما أن يولد « فينقس » في أعماق الصحراء أو الجزيرة العربية ، حتى يطير رأسا حاملا جثمان أبيه ، ليحطّ على مذبح معبد هليوبوليس ، وهناك تحرقه أعشاب المر ، ويتم هذا في احتفالات ضخمة هائلة تحشد لدفنه ، وتتم في جو جنائزي كبير . ويعدّ موت هذا الطائر فينقس أو بينو أهم حادث لاهوتي في كل مصر .

وفي احدى الحكايات التي أوردها القديس هيرونيم عن هذا الطائر ، الذي لقبه الفينيقيون باسمهم فينيق : « ان هذا الطائر يعيش في الهند لمدة خمسين عاما ، ثم يجيء الى فينيقيا ، ليجمع طيوب لبنان ، ويصنع منها عشا فيغطي كاهن معبد هليوبوليس ، هيكل الاسرار ، الذي يلقي عليه فينيق بطيوبه المزوجة بالعنبر . لكن ، ومع شروق الشمس ، يخفق فينيق بجناحيه ، فيلتهب العنبر بواسطة أشعة الشمس ، وتشتعل الطيوب فتحرق فينيق ، لكنهم في اليوم التالي ، يرون دودة متولدة من رماده ، وفي اليوم الذي يليه ، ينبت للدودة أجنحة ، وفي اليوم الثالث يطير «فينيق» عائدا الى وطنه .

وفي الاساطير العبرية : « ان فينيق طائر يعيش ألف سنة ، وبعد انتهائها ينبعث في عشه لهيب فيحرقه ، لكن تبقى فيه بيضة يعاود منها فينيق الحياة ، وان هذه القيامة أعطيت لفينيق من عند الله ، لانه كان الطائر الوحيد الذي استنكر أكل حواء من الثمرة المحرمة » .

وواضح انها هي بعينها فكرة تقديس الجعران في اللاهوت المصري القديم ، من حيث المغزى المتمثل في الموت ومعاودة القيامة.

1 — Larousse p. 46 — Diction of Mythogy .

وبحسب تفسير د. مرغريت مري ، فان الجانب الصلد الذي كان يتبقى من الجعران الميت ، يصبح بعد ذلك وعاء يبيض فيه جعران جديد ، أي ان من الموت تنبت الحياة .

ولقد لعبت هذه الشعيرة الفينيقية ذات الاصل المصري ، أهم أدوارها بعد ذلك فيما يتصل بمعتقدات الموت والفناء ، ثم معاودة الحياة ، أو الولادة ، أو القيامة ، فلقد امتدت مناقشات لاهوتية لا حصر لها حول هذه الفكرة الزراعية عن الموت والقيامة ، وموجزها البذرة التي تفسد لتنبت وتزهر . واتسعت هذه المناقشات والمجادلات في القرون السابقة على ظهور المسيحية بل وعقبها ، واشترك فيها من المؤرخين والمفكرين ــ فيما قبل المسيحية ــ بليني وسولون الابدري وفيلسترات ، ومن اللاهوتيين المسيحيين ، اقليم الاسكندري ، وأوريجان ، وأوساب ، والقديس غريغور النزنزيري ، والقديس كيرلس الاورشليمي ، والقديس هيرونيم ، والكثيرون غيرهم .

ويبدو ان احتفالات موت فينيق وقيامته الهائلة كانت تقام بمدينة بعلبك ، لمشاهدة شعائر موت واحتراق ذلك الطائر فينيق ، ثم قيامته المظفرة « حيث كان يرتقي الاعشاب العطرية ، ارتقاءه عرش الخلود ، فتحرقه أشعة الشمس على مرأى من الملوك والعظماء ، والكبراء والكهنة والاحبار ، وعدد لا يحصى من الشعوب المتقاطرة ، لمشاهدته من جميع جهات آسيا ، ولا يلبث قليلا حتى يحيا ثانية من بين رماده ، ويطير مجددا شبابه السماوي الخالد » .

كما يبدو ان ثمة علاقة غريبة ، لم يتنبه اليها أحد بالدرجة الكافية ، وهي العلاقة بين الاسم فينيق أبو الفينيقيين ، وبين نباته أو شعاره المقدس أو طوطمه ، الذي هو النخلة ، وكذلك بين معتقدات الموت والفناء ، ثم معاودة البعث والقيامة التي كان يمثل أطوارها ذلك الطائر المقدس المسمى فينيق .

والذي أود أن أتلمسه وأشير اليه ، هو ان من ثمر النخلة ، أو بلحها ، كان سكان الشرق الادنى القديم يصنعون خمرهم المعروف بالجعة أو العرقي ، وكانوا يشربون ويسكرون ، قرى بأسرها

تشرب وتسكر وتنام كلما خيم الليل « وذلك مخافة الانزلاق والتفكير في معميات الحياة والموت والفناء » .

وهي واحدة من لمسات أبو التاريخ هردوت وتفسيراته التي دوّنها في كتبه التسعة خلال طوافه بشعوب شرقنا الادنى القديم الغابر .

وفي ملاحظة أخرى تتصل بعلاقة ـ عرقي ـ البلح بالموت ، يضيف هردوت : « ان المصريين كانوا يخرجون أحشاء الميت كلها فينظفونها ويغسلونها بنبيذ التمر » (١) .

ولقد تداخلت الممالك أو المدن الدول الكنعانية الفينيقية ، مع مايتاخمها ويجاورها من شعوب وقبائل سامية ، أي الآرامية المنحدرة من نسل آرام أكبر أبناء سام ، في ممالك .. آرام دمشق « التي يقال ان مؤسسها هو عوص بكر آدم ، وممالك صوبه وحماه وحمص ورحوب في سهل البقاع ، وكذلك جشور ، ويطور ، نسبة الى يطور بن اسماعيل بن ابراهيم من هاجر .

فالكنعانيون : « ملعونو العهد القديم » جابوا البحار ونشروا تجارتهم الواسعة ، على عكس ما فعله الآراميون سكان الجبال الذين خافوا ركوب البحر واقتحامه وعدّوه محرما أو تابوا ، كالمصريين القدماء .

ولقد واصل اليونان والرومان بعد ذلك اتهام هؤلاءالكنعانيين بالخسة والوضاعة ، مثلما فعل جيرانهم الساميون من العرب واليهود ، فقال عنهم شيشرون : « انهم ولدوا للعبودية » ، وكذلك نظر اليهم سقراط . وكان من بين أمثلتهم : « سوري ضد فينيقي » بمعنى خبيث ضد خبيث .

والواقع ان الامبراطوريتين الاغريقية والرومانية استفادت أشد الاستفادة من تمزق هذه الشعوب القبلية العرقية المتنافرة في الشام وفلسطين من فينيقيين وآراميين وسريان وعبرانيين وانباط وعرب .

---

(١) « هردوت يتحدث عن مصر » ، ص ١٩٥ .

الا ان الشيء الهام الذي خلفه النسل أو الرهط ـ اللعين بحسب اعتقاد القدماء ـ هو اللغة الكنعانية ، التي منها جاءت العبرية القديمة لغة الكتاب المقدس ، والتي لم تكن الابجدية الفينيقية سوى احدى أفرعها ، والابجدية الفينيقية « هي ما أصبحت اللغة اليونانية ، التي كتب بها اليونانيون منذ القرن الثامن ق.م. كما يقول توينبي » .

ولقد حفظت هذه اللغة الكنعانية العريقة ، بعد الفتح العربي « في لغة الطقوس الدينية المسيحية عند الموارنة والسريان في لبنان » (١) .

ولقد خلفت هذه الشعوب السامية ، أسماء أسلافها وأسماؤها على كل مكان وطئته .

وبحسب قول عبيد بن شريه الجرهمي ، فان قارة افريقيا سميت هكذا ، نسبة الى الملك الحميري « أفريقيس بن أبرهه ، الذي يقال انه عندما غزا المغرب ـ شمال افريقيا ـ متجها اليه من أرض البربر ، فرأى بلادا كثيرة الخير ، قليلة الاهل ، فنقل البربر من بلادهم فلسطين الى مصر . فلما بلغ افريقيس حيث بلغ من فتوحات أمر ببناء مدينة بتلك الارض من افريقيا ، فبنيت مدينتها وانما سميت باسم افريقيس ، وكذلك تسميها بربر اليوم ، فأما العرب فتقول افريقيا » (٢) .

واسم الشام (٣) ، نسبة الى سام ابن نوح ، وأصله في العبرية والسريانية « شام » أو « شم » ، كما أطلق اسم آخر أبناء سام ، وهو آرام ، على معظم لبنان وسورية وما بين النهرين ، أي آرام النهرين ، كما انهم أطلقوا على مصر حام ، وأما ابنه كنعان ، فقد سموا به المنطقة الممتدة من الاردن الى البحر الابيض ، كما انهم أطلقوه على لبنان ، وبشكل خاص على الريف الفينيقي الزاخر بالكنعانيين . كما ان تسمية اليمن ، تتصل بيعرب بن قحطان ،

---

1 — Larousse p. 498 .

(٢) أبو الفدا ـ ص ١٠٢ .

(٣) تكوين ١٠ : ٢٢ .

الذي كناه أباه بأيمن « أن أيمن يا يعرب » . وكان العرب يعنون باسم اليمن ، كل ما هو واقع على يمين القبلة ، ولذلك شملت تسمية بلاد اليمن الشام بأسره .

كما تنسب تسمية ارمينيا – بالاتحاد السوفياتي اليوم – الى هجرات آرامية يقال انها وقعت في القرن السابع قبل الميلاد الى أرمينيا التي كانت تعرف قبلا بأرض أراراط .

كما ان الميثولوجيين الساميين سموا كل ذوي البشرة السوداء كوشيين (١) ، وذلك نسبة الى حام – ابن اللعنة – الذي تحمل أبناؤه فيما بعد وزر أو خطايا أبيهم حام ، حين عصى حام أباه نوح ، وجامع أمرأته خلال حجهم للبيت ، فلعنه نوح : « اللهم سوّد وجهه ووجه من عصى ووطىء امرأته » . وعندما ولدت امرأة حام غلاما ، جاء أسود اللون ، وسموه كوشا ، وولد لكوش الحبشة ابن كوش ، أما شقيقه الثاني الذي لحقته لعنة أبيه أيضا ، وهو « ماريع بن حام » ، فقد ولد ثلاثة أولاد أو أجناس ، هم كنعان بن ماريع ، وبربر بن ماريع ، والنوبة بن ماريع .

وكذلك فقد خلفوا حضاراتهم على أعلى قمم جبال لبنان (٢) وفلسطين ، مثل جبال السامرية والعربية وجلعاد واليهودية ، الى جانب جبال شعيب صاحب مدين في الشام وسيناء ، وشعيب بن حضور بن آلوت نبي القحطانيين في اليمن ، وأيضا جبل ضهر في اليمن الذي وحدوه بالنبي هود : « لن نطيع الدهر هودا » ، وجبل حرمون ، أو الجبل الشرقي في لبنان ، أي جبل الحرمان ، سمي كذلك بحسب تفسير القديس « هيرونيم » الذي فسر حرمون أي بالموت حدادا على هابيل ، ذلك لان جنوبي هذا الجبل ، يطلق عليه اسم هابيل .

ولقد أورد زكريا القزويني ، حكاية غريبة بسهل عكا في أطراف لبنان ، فقال ان :

« بها عين البقر ، وهي بالقرب من عكا ، يزورها المسلمون واليهود

(١) التيجان – وهب بن منبه ، ص ٢٤ – ٢٥ .
(٢) تاريخ لبنان – الاب مارتين اليسوعي ، ص ٨٩ .

والنصارى ، ويعتقدون ان البقر الذي ظهر لآدم فحرث عليه ، لاول مرة ، اخرج من هذه العين » ، وهي نفس العين التي سماها الفرنسيون بعد ذلك في القرن السابع عشر بـ : « عين العذراء مريم » .

ونهر القاسمية ، كان يسمى نهر الليطاني أو الممنوع أو الملعون أو الحرام ، وكذلك نهر قديشا أو المقدس الذي سموه « ليطا » وفسروه بالشرير ، أما نهر الاولي ، أي نهر المدينة الاولى، فقد سماه العرب قديما بنهر الفراديس ، وكذلك فقد استبدل العرب نهر أدونيس ، باسم ابراهيم ، ويشير « رينان » الى وجود علاقة بين ابراهيم وأيل اله جبيل ، بل ان العرب خلطوا بين ابراهيم وبين الاله « بل » اله الكنعانيين .

واستنادا الى ما يقوله أحد قدامى الرحالة الفرس (١) ، فان أحد سهول بيت المقدس وهو سهل « الساهرة » ، اعتقد العامة في انه سيكون ساحة القيامة والحشر : « ولهذا يحضر اليه خلق كثيرون من أطراف العالم ، حتى يموتوا ، فاذا جاء وعد الله ، كانوا بأرض الميعاد » . كما انهم اعتقدوا في ان هذا السهل ، هو « بيت فرعون » وسموه « وادي جهنم » .

ومن أماكن اليمن المشؤومة جبال ختا أو خياف ، والجبل الاشيب سيد جبال النار ، وقطب اليمن ، فيقال ان ذلك الجبل ، يظهر عليه أهل النار والخراب ، وتعوي فيه الذئاب ، كما ان من بين الاماكن الملعونة نجران وصعده ، وبكلي ، ويروى عنها الكثير من الخرافات ، وأما جبالها المقدسة فهي جبال حضور ، وحنين ، ورأس جبل علي ، ورأس صبر ، وتعكر ... الخ .

وباليمن وادي يعرف بوادي عشار « كثير الاخصاب » ، نسبة الى الآلهة ايشار أو عشتروت ، كما ان اليمنيين نسبوا أقدم قصور اليمن ، وهو قصر « غمدان » ، الى سام بن نوح الذي « ابتدأ بناءه واحتفر بئره » . وتنسب حوله الخرافات ، ان طائرا اختطف المقرانة وطار بها ، وتبعه سام ، لينظر أين أوقعها الطائر ، ثم أقام البناء » .

(١) سفر نامة – ناصر خسرونامة .

كما اعتبرت مدن الشام وقراها ، مسرحا لما لحق الخطيئة الاولى .. فيقال : « ان آدم لما اخرجه الله من الجنة (نعيم عدن) سكن جبل حرمون – جبل الشيخ – وان ولديه – قابيل وهابيل – أقاما طويلا شرقي الفردوس في سهل البقاع ، ويستدل على صحة هذا التقليد اليوم من قبور هابيل وقابيل وشيت المقامة في المحل المشار اليه » (١) . ويقال ان تسمية دمشق ، نسبة الى اراقة دم قابيل لاخيه هابيل . ويقول القديس هيرونيم : « ان معنى دمشق شراب الدم » . كما يقال انه من أرض دمشق هذه قيل لقابيل : « والآن فملعون أنت من الارض التي فتحت فاها لتقبل دماء أخيك من يدك » .

ويقال ان هذا التقليد ، كان منتشرا بكثرة في أيام الحروب الصليبية ، كما يقال بأن باني دمشق هو « اليعازر » خادم النبي ابراهيم ، في نفس الحقل الذي قتل فيه قابيل أخاه هابيل .

اما دمشق فهي أرض « آدم » التي منها جاءت تسمية آدم ، بمعنى اديم الارض أو القدم ، ويبدو ان تسمية أدوم كانت تشمل جزءا من الاردن . وهي الارض التي نزلها عيسو أو العيص بن اسحاق (٢) .

فيبدو ان ادوم كانت تشمل أيضا جزءا من الاردن . ويؤكد هذا الكشوف الحفرية التي توصلت اليها البعثة التي أعلنت بعض نتائج اكتشافاتها في يوليو ١٩٧٤ .

وينتشر بين سكان جبل قاسيون ، شمال دمشق ، اعتقادا بأن جريمة « القتل الاولى وقعت في أعلى قمم الجبل » . وينسب القزويني لاحدى صخور دمشق الكبيرة ، انها كانت المكان الذي قدما عليه قربانهما « حين تقبل من صاحب الزرع ، ولم يتقبل من صاحب الرعي » . وهناك حجر عليه مثل آثار الدم ، اعتقد الدمشقيون القدماء في انه الحجر الذي هشم عليه الاخ أخاه ، لذا سميت المغارة المجاورة لهذا الحجر « مغارة الدم » .

(١) البطريرك اسطفان الدويهي في تاريخه .
(٢) المصدر السابق ، في تفسير نبوة حزقيال (٨ ف ٢٧ : ٨) .

وبينما يرى المسلمون ان الجريمة وقعت داخل « أغوار » (١) صحراء شديدة الجدب ، ومنذ ذلك اليوم لم يقرب الندى جدب هذه الصحراء ، يرى اليهود ان الجريمة وقعت في احدى قرى جبل قاسيون ، وهي قرية بسيمة .

ولقد وحد الاقدمون بين قابيل والشيطان « اشمودي » الذي ينسب له تشييد مدينة بعلبك ، التي اعتبروها أول مدينة في العالم . اذ ان قابيل ابن آدم عندما اعتراه الارتعاش أمر ببنائها ، ولقبها باسم ابنه اخنوخ – النبي ادريس – وأسكن فيها الجبابرة والمهترجية ، ولكثرة فواحشهم أرسل الله عليهم طوفان الماء « أو طوفان نوح » .

ويسمى وادي البقاع بسوريا بسهل نوح ، وبه قبر نوح بالقرب من زحلة ، وان ملكا هو الملك الظاهر – عام ١٢٥٨ م – أعاد بناء القبر فجعله « واحدا وثلاثين مترا » .

وبالنسبة لابراهيم ، فان في مدينة القدس صخرة يقال ان « عليها آثار سبع أقدام » (٢) . وسمعت ان ابراهيم كان هناك ، وكان اسماعيل طفلا فمشى عليها ، وهذه هي آثار أقدامه . « ويرى البعض ان قبر نمرود الجبار، الذي حاربه ابراهيم، موجود بجبل لبنان » ، الا ان هناك من يقول ان في قرية « أرواد » أربعة قبور لاربعة من أبناء كنعان .

ويعتقد سكان قرية كفر ناحور بلبنان ، ان قبر كنعان موجود على احدى الصخور الموجودة هناك ، كما يقال ان النمرود بن كنعان هو باني قلعة بعلبك . وفي بعلبك بقايا آثار قصر سليمان ، ودير الياس ، وجبل سعيد الذي على قمته أقدم ابراهيم على ذبح ابنه وبكره اسماعيل .

وفي مدينة عكا ، توجد قبور « عك » باني المدينة ، وعيش ، وشمعون ، وذي الكفل ، وهود ، وعزيز ، وشعيب ، وابنته زوجة

(١) تبعد ٩ كيلومترات عن دمشق .
(٢) خسرونامة ، ص ٦٤ .

النبي موسى . وفي قرية اربل ، أربعة قبور لاربعة من أبناء يعقوب ، وكذلك غار ، وجد به قبر أم موسى ، ويشوع بن نون ، بالاضافة الى سبعين نبيا .

أما في جنوب بحيرة طبريا فيوجد بحر لوط ، ويقال ان مدينة لوط (١) كانت تقع على شاطئه .

موجز القول ان الاقوام السامية قد خلفت أساطيرها ومعتقداتها الخرافية في عصور الظلمات أو عصور ما قبل العالم على آثارها ومنشآتها ومعالمها الطبيعية بشكل غاية في الافراط .

---

(١) سدوم وعموره ، مدينتا البحر الميت ، وهو ما أشارت اليه وأكدته كشوف أو نصوص البحر الميت الهامة .

الفصل الرابع

تدوين التراث

لم ولن تكون الميثولوجيا العبرية والتراث اليهودي عامة ، حكرا ووقفا على اليهود ، ذلك انها الجانب التسجيلي المبكر لمجرى الاحداث المبكرة لتاريخ الشرق الادنى القديم ، بهجراته ومنازعاته ولاهوته ومعتقداته ونكباته ، وأدق خصائص كل رهط وقبيلة ومدينة دولة وشعب ، لاقوام الشعوب السامية أو غير السامية التي تنازعت الوجود على أرض هذا الجزء من العالم ، وهو شرقنا الادنى الموغل في القدم والعراقة والتجدد الدائم .

ودور اليهود في هذا التراث ، لا يعدو انهم كانوا مدونيه المبكرين وحفظته من الضياع ، ومن خلال دورهم فيه ، مع عدم تناسي موقفهم الحلقي القبلي المغلق ، الذي أبرز دورهم كقبائل عنصرية فاشية متفوقة « من الاولياء » كما يدعون ، وهي مرحلة حتمت عليهم تلقي مجرى أحداث العالم الخارجي من حولهم ، من خلالهم هم بالذات .

الا ان ما يجدر تأكيده ، هو ان التراث العبري ملك مشاع مشترك لكافة شعوب الشرق الادنى ، نظرا لكونه وثيقة مدونة مبكرة لها أهميتها في التعريف بماضي هذه الاقوام مجتمعة ، تضاف الى بقية الوثائق ، من حفرية أو تاريخية ونصية وشفاهية،

في القاء المزيد من الضوء على ذلك الماضي ، بهدف اعادة انارة وجلاء مستقبله . فما أحوجنا اليوم الى المعرفة شبه العلمية لماضينا ومكوناتنا الاولى ، بالقدر الذي يسهم في ايضاح طريق المستقبل .

لذا فمن الصعب ، بل المستحيل ، أن يتكامل تاريخ حضاري شامل متكامل لشرقنا القديم ، بمعزل عن المدوّنات العبرية ، من مقدسة وغير مقدسة ومحظورة أو ممنوعة وهكذا. من ذلك التوراة أو العهد القديم والتوراة الشفاهية ، أي التلمودان البابلي العراقي والاورشليمي الفلسطيني ، والتلمود الحجازي ، والاسفار المحظورة « الابوكريفا » .

وليس هذا برأي جديد ، اذ ان كثيرا ما ترفض حركة الاساطير والفولكلور العالمية اعتبار التراث اليهودي العبري بعامة ، تراثا متميزا مكتمل الشخصية ، على اعتبار انه « في مجمله ينتمي لتراث البلدان المتاخمة » ، أي ان هناك شرعية في ملكيتنا أيضا لهذا التراث البالغ الاهمية الذي ينتمي في مجمله لتراث البلدان المجاورة ، في فلسطين والشام ، ومصر والعراق واليمن.

وكما يقول كامل زهيري ، فان اليهود قوم تكمن مأساتهم في انهم يمتلكون تاريخا دون جغرافيا ، بمعنى وطن ، أو قطعة أرض. فهم كجنس تراجيدي غريب ، واصل طوافه المتصل الدائم ، من مجتمع الى آخر ومن قارة لاخرى ، على طول تاريخهم – سواء القديم أو الحديث – مما أكسبهم لفولكلور ومعتقدات وثقافات تلك الشعوب التي عاشروها واتصلوا بها ، منذ خروج القبائل الرعوية العبرية من أور الكلدانيين في دلتا العراق مع انتهاء الالف الثالثة قبل الميلاد ، ونزولهم أول أمرهم جيرانا في بادية الشام ، ثم دخولهم أو مجيئهم الى مصر ، ثم نزولهم الى فلسطين أو أرض كنعان، واتصالاتهم وتعاملهم مع الكنعانيين والاموريين، وامتصاصهم الدائم لتراث هذه الاقوام وغيرها .

وتجيء بعد ذلك عصور اتصالاتهم بالبابليين والاشوريين والفرس منذ الالف الاولى قبل الميلاد ، فمن بابل وآشور أخذوا

أغلب معتقداتهم عن السحر والحيوانات الخرافية السحرية التي تتبدى بكثرة شديدة في رؤى دانيال ومراثي آرميا وحزقيال .

ومن الفرس جاءتهم كل تصوراتهم ومعتقداتهم عن الملائكة والشياطين والجن ، بمعالمها وأسمائها الفارسية المجوسية ، الى جانب الثنائية الفارسية عن الخير والشر ، أو الموجب والسالب ، والتي تميز بها هذا التراث الآري المجوسي وسط حضارات العالم القديم عامة والتراث السامي بشكل أخص .

ولقد جاءت الكشوف السومرية اللاسامية في العراق ، فأوضحت الكثير من الغموض بالنسبة للتراث السامي بشكل عام، والتراث العبري بشكل أخص . فلقد أوضحت هذه الكشوف السومرية – الالف الرابعة قبل الميلاد – عن حقيقة « أصل التوراة ذاتها ومنشئها ، وان هذه المجموعة من المآثر العظيمة لم تجىء الى الوجود كالازهار الصناعية ، وهي كاملة النمو ، بمعنى انها تنتشر انتشارا واسع المدى في تراث الاقوام المجاورة » .

وليس بغريب ان تراث العبريين هو على وجه التقريب تراث وحضارة أولئك السومريين اللاساميين وصل اليهود عن طريق الوساطة الكنعانية ، مثلهم في هذا مثل بقية الاقوام والجماعات السامية ، وذلك عقب انتقال ذلك التراث السومري الى الورثة المباشرين ، وهم الكلدانيون والبابليون والآشوريون والحثيون والكنعانيون .

وعن الكنعانيين الذين سبقوا العبريين في استيطان فلسطين، وبعض مدن الساحل الفينيقي ، سرى الى الوجود تراث تلك الحضارة اللاسامية المندثرة مثلما توارث العرب – خاصة القحطانيين سكان اليمن والجنوب العربي – حضارات لاحقيهم من القبائل العربية المندثرة التي ترجع الى ما قبل الالف الثالثة قبل الميلاد ، وهم قبائل عاد وثمود وطسم وجديس والعماليق وغيرهم.

وقد لعبت الحضارة الكنعانية ، وطليعتها البحرية فينيقيا – نظرا لاقتحامهما المبكر للبحرين الابيض والاحمر – دور الوسيط

في حمل تراثي مصر وبابل ، والابحار به ونشره على طول سواحل البحر المتوسط .

لذا يرى البعض ان كلا التراثين العقائديين العبري اليهودي والفارسي المجوسي ، بالاضافة الى التراثين الهليني والمسيحي ، جاء جميعه تحت التأثير المباشر الكنعاني ، السوري أو الاشوري فيما بعد .

فيبدو ان خليطا عريضا من أجناس وأقوام شعوب البحر المتوسط قد استوطنوا المدن السورية على مدى تاريخها ، مما ساعد على اثراء التراث السوري الكنعاني .

ويذكر غوستاف لوبون (١) ان سكان مدن سورية وقراها « مزيج من المصريين والفينيقيين واليهود والبابليين والفرس والافارقة والرومان والعرب والمغول والشركس والصليبيين والترك ، وغيرهم من الامم التي استولت بالتتابع على سورية » .

ويرى توينبي (٢) ، بالنسبة لليهود ، ان شعب مملكتي « اسرائيل ويهوذا قد رفع نفسه مكانا ساميا ، ابان فترة من تاريخه الذي بدأ في طفولة الحضارة السورية وبلغ الاوج في عصر الانبياء » .

ويرجع السبب في تركيزي على الحضارات أو المنابع الام أو حضارات الجيل الاول في دلتا العراق ، حيث الحضارة السومرية الاكادية ، وفي دلتا وادي النيل حيث الحضارة المصرية الفرعونية ، الى محاولة تعرّف النبتة الاولى لكل موتيف أسطوري أو فولكلوري وامكانية تتبعه ، وذلك نظرا لتعدد المصادر وتنوعها بالنسبة للفكرة أو الموتيف الواحد ، مما قد يوقع الباحث في الخطأ وفقدان الطريق ، واعادة هدم ما أوشك في بدئه ، وهو ما أصبح تقليدا ساريا بالنسبة لدارس تراث قلب العالم القديم .

فما من اضافة كشفية اثرية اركيولوجية أو نصية ، أو

(١) حضارة العرب ـ جوستاف لوبون ، ص ٧٩ .
(٢) مختصر دراسة التاريخ ـ توينبي ج ٢ ص ٥٩ .

شفاهية ، لم تسهم في اعادة تكامل جزئيات هذا التراث الهائل ، مما يترتب عليه دوام الهدم المستهدف ـ أصلا ـ لتوالي البناء واستقامته .

فيمكن اعتبار الدراسات الفولكلورية ـ محتوية أو متضمنة الاساطير ـ أحد المركبات الهامة اليوم ، في اعادة بناء تاريخ الجسد الحضاري ، لاي شعب أو مجموعة من الشعوب .

مثل هذه الدراسات قد قطعت شوطا كبيرا ، خاصة فيما يتصل بالتصنيف ، أي تجميع وتراكم عينات الفكرة أو المقولة الواحدة ، ثم بعد ذلك اعادة تعرّف تاريخ حياة كل فكرة على حدة ، والاخذ بمبدأ ان أي فكرة أو مقولة أو شعيرة ، تصبح بلا قيمة ، ما لم يتحدد أصلها وفصلها ، وما طرأ عليها من تغيرات واضافات ، من عصر لعصر .

وبمعنى آخر فان فكرة خلق حواء من ضلع الرجل ـ مثلا ـ ترد منحدرة من التراث السومري اللاسامي ، متبدية في التراث السامي عند الورثة البابليين والحثيين ، منتقلة الى الكنعانيين الفينيقيين ، متبدية في أسطورة الاله « موت » !

فكان أن نقلها العبريون الى أسطورة الخلق أو سفر التكوين ، وكذلك طوّف بها الكنعانيون وطليعتهم البحارة الفينيقيون الى الحضارة الايجية ، ومنها دخلت هذه الجزئية الى التراث الهليني اليوناني ، ثم الروماني فيما بعد ، ثم اللاتيني في العهد المتأخر .

وبشكل مجمل يمكن القول بأن أسفار التكوين الاحد عشر الاولى ، تنتمي بكاملها الى الميثولوجيا الكنعانية المتوارثة مباشرة من الحثيين والبابليين .

ومن هذه الافكار خلق العالم ، وتوحد الخالق بالماء ، واقدامه على خلق العالم عن طريق رسله الثلاثة ، ثم فكرة خلق الانسان الاول « يوم خلق الله الانسان ، على شبه الله عمله » (١) ، وهو ما تتميز به أساطير الخلق السامية ، على تراث العالم أجمع ،

(١) تكوين ٥ .

ومنها خلق المرأة من ضلع الرجل ، وتوحدها بالحية التي توحدت بدورها بالشيطان ، ثم الخطيئة الاولى ، وكذلك تمشى الاله في الجنة عند هبوب الريح (١) ، كقرين للريح ، وعرّي آدم عقب الخطيئة . وعقاب الاله للخطاة الثلاثة آدم وحواء والحية ، الذين حسدهم ابليس أو الشر وأضلهم فكان أن طردوا من الجنة الى ـ الجحيم ـ الارض ، وكان أن دخل الموت الى العالم « فان الله خلق الانسان خلدا ، وصنعه على صورة ذاته ، لكن بحسد ابليس دخل الموت الى العالم » (٢) ، وما توالى بعد هذا من عقاب للمرأة مثل ادماء حواء الشهري (الحيض) وتسيد الرجل عليها : « تكثيرا اكثر اتعاب حملك وبالوجع تلدين أولادا والى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك » (٣) .

وكان أن قهرت المرأة وسلب سلطانها ، خلال توالي هذا التراث الابوي البطركي الذي سيد أول ما سيد الرجل الذكر على المرأة الانثى ، وألحق بها وزر الخطيئة الاولى : « فمن المرأة ابتدأت الخطيئة وبسببها نموت جميعا » (٤) .

ثم يعقب هذا سلسلة الانساب المفقودة ، أو المفتقدة ، لحين مولد الجبابرة أو العماليق أو النماردة ، ملوك بابل والشام . فمن المعتقد ان أولئك الجبابرة البادئين أو المندحرين ، هم بذاتهم الذين حاربهم العرب والعبريون على السواء .

ويذكر ابن خلدون عن الجبابرة :

« وسطروا عن عاد وثمود والعمالقة في ذلك أخبارا عريقة في الكذب ، من أغربها ما يحكون عن عوج بن عناق ، رجل من العمالقة الذين حاربهم بنو اسرائيل في الشام ، فزعموا انه كان لطوله يتناول السمك من البحر ويشويه في الشمس » .

ونسجوا حولهم الخرافات والاساطير ، ومنها شخصية

(١) تكوين ٣ .
(٢) 2 -- Apocrypha
(٣) تكوين ٣ .
(٤) يشوع بن سيراخ ، فصل ٢٥ .

« عوج بن عناق » ، وهو شخصية خرافية ، فيقال انه المخلوق الوحيد الذي لم يهلكه الطوفان ، كما يقال بأن قاتله هو النبي موسى . ويذكر في التوراة مع الجبابرة تحت اسم « عوج ملك باشان » . ولاستكمال التعرف على هذه الشخصية الاسطورية ، يمكن الرجوع الى دراسة الاستاذ فوزي العنتيل الموجزة الوافية في كتابه القيم « الفولكلور ما هو ؟ » (١) .

كما يقال ان اولئك الجبابرة هم الذين استأصلهم وأبادهم العمونيون والموآبيون ، سكان الاردن ، المنحدرون من نسل لوط ، والذين سبقوا ـ الاسرائيليين بالتحديد ـ في استيطان شرق الاردن .

ويضيف الجاحظ ان قبائل وملوك جرهم (٢) ـ وهم من العرب البائدة ـ جاءت :

« من نتاج ما بين الملائكة وبنات آدم ، فكان الملك من الملائكة ، اذا عصى ربه في السماء ، أهبطه الى الارض في صورة رجل ، كما صنع بهاروت وماروت ، وما كان من شأنهما وشأن الزهرة ـ أناهيد ـ ، فحين هبط جرهم في صورة الرجل تزوج أم جرهم فولدت له جرهما » .

وهم المنحدرون من نسل شيث ابن آدم « والى شيث تنتهي أنساب جميع أبناء آدم » .

وتزعم الملل والنحل ، المعروفة « بالصابئة » ، انه ولد لشيث ابن آخر اسمه صابىء بن شيث ، واليه تنسب الصابئة ، وشيث يلقب عند هؤلاء « عاد يموت » . وعاد هذا ، يمكن ان يكون رأس قوم عاد ، الذين أرسل لهم الله هودا ، وكانوا أهل أصنام ثلاثة . وكان عاد وثمود جبارين طوال القامات . ومما يلفت النظر ان نحل الصابئين هذه « كانوا مكذبين لنبوة ابراهيم ومن دونه ، وكانوا مصدقين بنبوة ادريس (٣) الذي هو أيضا احدى صور شيث ابن آدم ، أول من اخترع الكتابة .

(١) « الفولكلور ما هو ؟ » ـ من ص ١٩١ حتى ٢١١ .
(٢) كتاب الحيوان للجاحظ ، جزء ١٨٧ .
(٣) ابن حزم ، ص ١٠٢ .

وكان الصابئة يقولون بقـدم الاصلين « الله والشيطان » ، أو الخير والشر ، والموجب والسالب ، مثلهم مثـل المجوس ، ويعتقدون في « الكواكب السبعة والبروج الاثني عشر ، ويقربون الذوابح ويصلون خمس صلوات في اليـوم والليلة ، ويصومون شهر رمضان ، ويستقبلون في صلواتهم الكعبة ، وحرموا الميتة ولحم الخنزير ، وكان الذي يدين به الصابئة أقدم الاديان على وجه الدهر والغالب على الدنيا ، وبقاياهم بحرّان يسمـون الحنفاء ، ويتفقون مع النصارى في التثليث وفي ان خالق الخلق ثلاثة » .

وقد يلقي التفسير التالي مزيدا من الضوء على قدم حقيقتي أولئك الصابئة أو الحنفاء ، وهو ان « يهوه » اله القبائل الاسرائيلية عرف بيهوه صابؤات (١) ، « أو يهوه صابىء أي رب الجنود ، أو يهوه القائد » .

ويبدو تقديس الساميين « أصحاب الوبر » لهؤلاء الاسلاف من الجبارين « بني الوهيم » ، أو العماليق ، فـي تلك الاسطورة التي تكشف عن أصل منشئهم . ويلاحظ جيدا في هـذا التراث الاسطوري السامي ، انه ما من شعب أو قوم أو قبيلة أو رهط ، لم تصاحبه أسطورته التي دفعت به الى الوجود وجاءت به الـى العالم ورسمت له أرض ميعاده .

وسنحاول توضيح هذا عند التعرض لكل مجموعة أو حضارة أو شعب بقدر من التبسيط . ونظرا لان هـذه الحضارات أو المجموعات أو القبائل المتجانسة هي ما ستطالعنا بشكـل متوال يفضي بنا الى متاهات علوم الانساب ، أو الكوزمولوجي .

فيرجع سفر التكوين الاسطورة المصاحبة لمولد وجود هؤلاء الجبابرة الى ان اتصالا كان قد تم بين الملائكة وبنات الناس « حين دخل بنو الله على بنات النـاس وولدن لهم أولادا ، وهؤلاء هم الجبارون الذين منذ الدهر ذوو اسم » . وتذكر أغلب المصـادر السامية ان هذا الاتصال وقع على جبل « حرمون » أو جبل الشيخ

(١) التوراة : فؤاد حسانين ، ص ١٢ .

بلبنان وتحت ظلال أشجار أرز لبنـان ، شجر عشتروت الهـة الاغصاب الجنسي ، « وهناك ولد الجبارون المذكورون الذين كانوا في البدء الطوال القامات الحاذقين بالقتال » .

وعلى هذا فرقت الاقوام السامية بينها وبين أولئك الجبابرة، بل انهم حاربوهم واعتبروهم خارج النسل السامي .

والملفت ان أحد مصادر الميثولوجيا العربيـة وهو عبيد بن شريه الجرهمي ، ينسب عادا (١) الى شجرة النسب السامي ، فهو كما يقول « عاد بن عوص بن سام بن نوح ، وهو الذي أحدث لـه عشرة أولاد هم : شداد ، وكان أول ملـوكهم الذي بنى مدينة أرم ذات العماد ، والخلود وهم : رهط النبي هود ، وتيم بن عاد ، وبهار ، والعنود ، والحقود ، والوصور » ، ثم تجـيء بعـد ذلك الاسطورة النوحية ، نسبة الى النبي نوح ، الذي « وجد نعمة في عيني الرب ، فأقام معه عهدا في نسله ، فأنجب نوح أولاده الثلاثة حام وسام ويافث » ، ثم حلول الطوفان كعقاب، وانقاذ نوح للجنس البشري حين صنع فلكه وحمل معه من كـل جنس أو مخـلوق « سبعة سبعة ذكرا وأنثى » (٢) ، وما أعقب الطوفان من انتقـال حضاري منها بداية التعريف بالمحارم : « غير ان لحما بحياته دمه لا تأكلوه ، وأطلب أنا دمكم لانفسكم » (٣) ، واقامة الله الميثـاق مع بني نوح : « وضعت قوسي في السحاب فتكون علامة ميثاق بيني وبينكم » ، ثم تجيء بعد ذلك أول أفكار القبيـلة أو الرهط الملعون ، متمثلة في خطيئة حام ، حين سخر من عري أبيـه نوح والتي بسببها أصبح وجـه الحاميين ــ ذوي البشرة السوداء ــ أسود في المصادر العربية، ولعن بسببها كنعان ابن نوح في الاساطير العبرية : « ملعون كنعان عبد العبيد يكون لاخوته » (٤) .

(١) نبوءة باروخ : فصل ١ ــ التيجان ــ أخبار عبيد بن شريه الجرهمـي ، ص ٣٢٦ .

(٢) تكوين ٧ .

(٣) تكوين ٩ .

(٤) تكوين ٦ : ٢ .

وكان أن انحدر من حام ابن نوح « كوش » ـ أبو الكوشيين في النوبة والسودان ـ ومصرايم وفوط وكنعان و « كوش » ـ أبو الصيادين في البر والبحر ـ ولد نمرود ، الذي ابتدأ أن يكـــون جبارا في الارض ، « أما ابنه كنعان ـ ابن اللعنة ـ » (١) فولـــد صيدون ـ مؤسس مدينة صيدا ـ في القرن الخامس والعشريـــن قبل الميلاد ، وبكره حثا ـ أبو الحثيين ـ واليبـــوسي والاموري والجرجاشي « وكانت تخوم الكنعاني من صيدون حينما تجيء نحو جرار الى غزة وحينما تجيء نحو سدوم وعمورة وآدمة ـ آدم ـ وصبوييم الى هالاشع » .

ومن نسل سام جاء عيلام ـ أبو العيلاميين ـ وآشـــور وولد آرام ـ أبو الآراميين ـ وشالح وعابر « ولعابر ولد ابنـــــان اسم الواحد فالح لان في أيامه قسمت الارض واسم أخيه يقطان » .

ويقطان هو قحطان ـ أبو القحطانيين ـ ومنه جـــاء العرب القحطانيون الجنوبيون سكان اليمن ، كما انه أبو العرب العاربة ، وابنه يعرب بن قحطان « أول من تكلم العربية » ، ومن نسله جاء ملوك سبأ ، وكان أولهم الملك عبد شمس بن سبأ ، الذي سمي سبأ لانه كان يسبي أعداءه ، وبحسب ما يشير به نسابة العرب ، فان من نسل سبأ انحدر ملوك حمير ، وكهلان .

فمن حمير ملوك بني قضاعـــة ، وبنو كلب بن وبرة ـ وهـــم الكلبيون ـ ، ومن كهلان انحدرت سبعة بطون ، تضخموا الـــى قبائل وحضارات كبيرة فيما بعد ، وهم : طيء ، ومذحج ، وهمدان ، وكنده ، ومراد ، وانمار ، والازد . ومن الازد انحدر الغساسنـــة ملوك الشام ـ عقب خراب سد مأرب ـ وكذلك انحدر منهم قبيلتا الاوس والخزرج ، ملوك يثرب ، ومنهم أيضا انحدرت قبائل خزاعة ، سدنة أو كهنة الكعبة قبل الاسلام .

ومن نسل الاخ الثاني عابر ، انحدر العبريون ، ويقال انـــه انما سمي عابر لانه كان أول من عبر الارض ، وهو أبو القبـــائل

(١) تكوين ١٠ .

العبرية ، بمعنى ان لفظ عبري تشمل معنى أوسع وأشمل من لفظ اسرائيلي أو يهودي ، فاسرائيلي ترتبط بشكل خاص بيعقوب الذي سمي اسرائيل ، ويهودي نسبة الى ابنه يهوذا ، وهو ما سنتعرض له في حينه .

فالقبائل العبرية الرعوية ، قبائل صحراوية ، وعندما نزلوا فلسطين (١) كانت لغتهم عبارة عن لهجة آرامية ، أقرب الى العربية منها الى أي لغة سامية أخرى ، كما كانت معتقداتهم الفولكلوريـــة واللاهوتية ، نتاجا صحراويا مكتمل المعالم .

ويبدو ان عابر ، كان هو أبو القبائل الرعوية ، أو البدو الرحل أصحاب الوبر سكان الصحراء ، اذ ان عابر أنجب « رعو » ، بمـــا قد يشير الى رعي أو رعاة ، ومن رعو جاء تارح الذي أنجب بدوره « ابرام ـ ابراهيم ـ وناحور وهاران ، وولد هاران لوطا » ، وهكذا تكتمل بداية أصول قبيلة ابرام أو ابراهيم الخليل ، حين هاجرت من العراق الاعلى منطقة الجزيرة بين دجلة والفرات المعروفة الى اليوم في العراق بـ « أور الكلدانيين » .

وكان اسم امرأة ابرام ساراي ، وكانت ساراي عاقرا ليس لها ولد » . وما يهمنا هنا هو هجرة قبيلتي ابراهيم ولوط ابـــن أخيه هاران ، « فخرجوا من أور الكلدانيين ليذهبوا الـــى أرض كنعان ، فأتوا الى هاران ، وأقاموا هناك » .

ويؤرخ لهذه الهجرة ابتداء من الالف الثانيـــة قبل الميلاد ، حوالي ١٩٢٠ ق.م. .

ويوحد دارسو الميثولوجيا السامية (٢) بين « ايل » أعظـــم آلهة الشعوب السامية ، وبين ابراهيم ، فيحفظ سفر التكويـــن لابراهيم انه أقام « شرقي بيت ايل ، ونصب خيمته ، وله بيت ايل من المغرب وعاي من المشرق .. فبنى هناك مذبحا للرب » (٣) ..

(١) مصر والشرق الادنى القديم ـ د. نجيب ميخائيل ابراهيم ، ج ٣ ص ١٤٧ .
(٢) التوراة ـ د. فؤاد حسنين علي ، ص ١١ .
(٣) تكوين ١٢ .

وفي نفس هذا المكان الذي هو بيت ايل ، بـدأت أسطورة أرض ميعاد الآباء لدى القبائل الاسرائيلية ، حين وعد ابراهيم من الرب ـ الذي قد يكون ايل ـ : « لنسلك أعطي هذه الارض » (١) .

وتجيء بعد ذلك سلسلة الاحداث المعروفـة ، مثل تغرّب ابراهيم الى مصر حين « حدث جوع في الارض » ، واغتصاب فرعون مصر ، الذي تصرّ أغلب المصادر العربية على الاحتفاظ باسمه وهو الوليد بن مصعب ، لسارة « أخت ابراهيم في الرضاعة وزوجته وابنة عمه » ، وغضب الرب على فرعون هذا ، فكان أن أكرم ابراهيم ، وأهداه هاجر . ويجيء بعد ذلك حادث انفصال قبيلة لوط عن قبيلة ابراهيم ، ونزوله الى الاردن « فاختار لـوط لنفسه كل دائرة الاردن وارتحل شرقا » (٢) . ثم يجيء حـادث تخريب مدينتي البحر الميت ، سدوم وعمورة ، وخروج لوط مع ابنتيه واحتمائهم في احدى المغارات .

وهنا تمهد الاسطورة « اللوطية » الى خروج قبائل الموآبيين والعمونيين الى الوجود ، سكان الاردن الـذين نازعوا القبـائل الاسرائيلية بعد ذلك على طول تاريخ الاسرائيليين في فلسطين ، فبعد أن احتمى لوط بالمغارة مع ابنتيـه « قالت البكر للصغيرة : أبونا شاخ ، وليس في الارض رجل ليدخل علينا كعادة أهل الارض، هلمّ نسقي أبانا خمرا ونضطجع معه » . وهكذا تعاقبتا الاضطجاع مع أبيهما ، فولدت البكر ابنا ودعت اسمه مواب وهو أبو الموابيين الى اليوم ، وولدت الصغيرة أيضا ابنا ودعت اسمه بن عمي ، وهو أبو بني عمون الى اليوم .

وهي تضمينة أسطورية مهاجرة من أصل مصري ، وترد في الميثولوجيا المصرية مرتبطة بآلهة المـوت « الندابة نفتيس » التي سماها بلوتارخ بـ « افروديت » و « نيك » ، ومن ألقابها « سيدة القصر » ، وجاء مولدها في اليوم الخامس النسيئة .

(١) تكوين ١٢ .
(٢) تكوين ١٣ ، وابن حزم ص ١٠٥ وما بعدها ص ٢٢ .

وتروي أساطير هذه الالهة نفتيس : « انها كانت تتمنى ان تنجب طفلا من أخيها الاكبر أوزوريس ، ولهذا الغرض أسكرتـه وضاجعته ، وكان ثمرة هذا اللقاء الدنس انجابها للاله أنوبيس » .

ويعتبر هذا الاله المصري أنوبيس ، بمثابة النبتة الاولى للملاك ـ الرسول جبريل أو جبرائيل في الميثولوجيا السامية .

* * *

وكانت القبائل العمونية ـ بالاردن ـ قبائل زراعية ، قريبة لهجاتها من العربية ، بينما كان الموآبيون بدوا صحراويين رحلا ، وهي فكرة ستتكرر بشكل متـوال فيما بعد ، وموجزها الصراع الازلي بين الزراعة والبداوة ، أو بين الفلاحين والبدو .

ويقال ان موسى كان قد حرّم على الاسرائيليين ، في سيناء ، قتالهم للموآبيين والعمونيين (١) ، لانهم عبريـون من بني لوط « حين نزولهم أرض الميعاد ، على عكس ما أوصاهم وأمرهم باتباعه بالنسبة للاقوام الكنعانية والامورية والحثية، وما تشعب منها » (٢)

« وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب الهك نصيبا ، فلا تستبق منها نسمة ، بل تحرمها تحريما ، الحثيين والاموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين » .

وبالنسبة للاساطير المصاحبة لقبيلة ابراهيم ، فحين تزوج ابراهيم بهاجر المصرية ، أنجب منها اسماعيل ، أبا القبائل العربية الرعوية سكان شمال الجزيرة العربية ، في الحجاز ونجد ، حين سخطت سارة وغارت عقب انجاب هاجر لاسماعيل فطردته وأمه ، فأسكنهما ابراهيم وادي « فاران » أي مكة : « رب اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم » ، فكان أن أسكن الله أفئدتهما بقبائل جرهم والعماليق. وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية ، وكان ينمو رامي قوس ، وسكن في بريـة فاران ، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر (٣) .

(١) تثنيـة ٢٠ .
(٢) تكوين ٢١ .
(٣) تكوين ٢١ .

وتنسب هذه الاساطير لمجموعة واسعة جدا من شعوب وقبائل الاقوام السامية الانحدار من صلب ابراهيم ، فلقد تزوج ابراهيم بنساء ثلاث ، منهن هاجر المصرية التي أنجب منها : اسماعيل أبا العرب ، سكان نجد والحجاز ، وقيدار وحدد ويطور وقدمه الخ .. (١) .

ومن رحم سارة ، أنجب اسحاق ، الذي أنجب بدوره يعقوب أبا القبائل الاسرائيلية الاثنتي عشرة وهم : رأوبين وشمعون ولاوي ويهوذا ويساكر وزبولون ودان ويوسف وبنيامين ونفتالي وجاد وأشير (٢) . وكذلك أنجب اسحاق « بني عيسو » أو بني العيص ، نسبة الى ابنه البكر العيص ، أبي الملوك الادوميين في بادية الشام والاردن وجزيرة العرب .

وكانت زوجة ابراهيم الثالثة ، التي تزوجها عقب وفاة سارة ، امرأة كنعانية تدعى قطورة ، فمن رحمها انحدر ستة ملوك أو أقوام هم : زمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوحا ، ومنهم جاء ملوك شبا أو سبأ ، وددان أو ديدان ، وسيناء الخ ..

ويقال ان هذه الاقوام والقبائل العربية من آدوميين وموآبيين وعمالقة وعمونيين ومديانيين ، وغيرهم من أعراب سوريا ، تحالفوا عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد وغزوا مصر تحت اسم « الهكسوس » أو ملوك الرعاة ، واخضعوها لمدة قرنين .

وطبعا كان لكل من هذه الاقوام والقبائل ، التي تكاثرت بدورها متمددة متطاحنة ، كان لكل منها أنبياؤها وطلائعها ومشرّعوها .

فالى قبائل الجبابرة — أبناء الله ومنهم قبائل عاد البائدة — ارسل النبي هود ، الذي يمكن توحده مع الدهر أو المنايا أو المنون أو القدر .

والى ثمود ، أرسل صالح ، وطوطمه المتمثل في الناقة ، أو

(١) أخبار الايام الاولى ١ .
(٢) أخبار الايام الاولى ٢ . حضارة العرب ٩٠ .

الابل . كما كان أيوب نبيا للادوميين ، أهل أدوم ، في بادية الشام بسوريا .

وكان مثلهم مثل بقية الاقوام الكنعانية ، بل السامية بعامة ، يقدمون التضحيات البشرية وغير البشرية « قدس لي كل فاتح رحم من الناس والبهائم » ، « وأطلب أنا دمكم لانفسكم فقط . من يد كل حيوان أطلبه . ومن يد الانسان أطلب نفس الانسان » .

كما انهم اعتقدوا في الجن والشياطين والعفاريت والارواح الشريرة والخبيثة .

ويرى بعض المستشرقين مثل « نولدكه » ، ان معتقداتهم هذه عن الجن والشياطين جاءتهم من الايرانيين .

فانتقال العرش من شاول ، أول ملوكهم ، الى بيت داود ، خطيئة مرجعها طلب شاول الى الجن للسؤال ، ولم يسأل من الرب فأماته وحوّل المملكة الى داود بن يسي .

وهي نفسها الخطيئة التي بسببها جزّ الفلسطينيون رأس شاول هذا « وسمروها في بيت — الههم — داجون ، اله الحبوب » .

كما ان هذه التضمينة ، عادت فتبدت مع داود ، فكانت خطيئة داود التي بسببها « وقف الشيطان ضد اسرائيل » حين أغوى — الشيطان — داود ليحصي اسرائيل ، ومنها تواترت الفكرة الشفاهية عن « ان العدد يقلل البركة » ، وكان أن غضب الرب وأرسل الى داود ثلاث لعنات ليختار احداها ، لينتقم بها من اقدام داود على احصاء شعبه : « اما ثلاث سنين جوع ، أو ثلاثة شهور هلاك أمام مضايقيك وسيف أعدائك يدركك ، أو ثلاثة أيام يكون سيف الرب ووباء في الارض ، وملاك الرب يعثو في كل تخوم اسرائيل » (١) .

فلقد استغرقت تلك القبائل الاسرائيلية في الخرافات الطوطمية ، ومثلهم مثل القبائل العربية الجاهلية ، اعتقدوا في الجن التوابع ، وحرموا عتبات البيوت .

(١) أخبار الايام الاولى ١٠ .

فلقد كانت القبائل الجاهلية من « الحمس » أو الاحامس ، متضمنة لقبائل : قريش وخزاعة والأوس والخزرج وصعصعة وأزد شنوءه ، وجذم وسليم وعمر واللات وثقيف وغطفان والغوث وعدوان وعلاف وقضاعة ، هم أهل الحرم ، المتشددين في دينهم – المتحمسين – ، كان هؤلاء الاحامسة « يعزفون عن المرور تحت عتبات البيوت » ، لذا اخترعوا ودخلوا البيوت من فتحاتها الخلفية، وفيهم قيل : « ليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها » ، وهو ما لا يزال شائعا ومعروفا بالنسبة للمدخل الخلفي في بيوتنا القروية ، ويطلق على ذلك المدخل – الشعائري – اسم الخوخة الى اليوم .

ويبدو انها فكرة أو تضمينة أسطورية متوارثة منذ السومريين .

كما ان منها الربط بين الخطايا ومداخل البيوت وأعتابها ، في الميثولوجيا المسيحية : « خطيئة رابضة عند الباب ، واليك اشتياقها » .

كما حلت القباب الحمر ، محل تابوت العهد عند العرب ، ومنها « قبة مصر الحمراء » أو « القبة الحمراء وهي من أدم » أو « أهل القباب الحمر » ، وهو ما مرّ الحديث عنه . وكذلك المنازعات الطويلة حول رأس عيسو أو العيص أبو الادوميين .

ويلاحظ انه منذ بضع سنين – يوليو ١٩٧٤ – اكتشفت احدى البعثات الانكليزية ، أطلال مدينة أدوم بالاردن ، وترجع الى ٢٧٠٠ ق.م. .

ومع تسيد الاسرائيليين على جيرانهم ومتاخميهم ، تسيد – بالتالي – طوطمهم ، أو تابوت العهد ، فكانوا يقدمون له القرابين « واحد لاشدود ، وواحد لغزه ، وواحد لاشقلون ، وواحد لعقرون وفيران الذهب – بعدد جميع الفلسطينيين ، وشاهد هو الحجر الكبير الذي وضعوا عليه تابوت الرب » .

ومع انتصار داود على سلفه وغريمه الملك شاول – أول ملوك اسرائيل – وانتقال الملك الى سبطه أو عائلته ، نقل داود التابوت

الى مدينته « مدينة داود » بفرح ، وكان كلما خطا حاملو تابوت الرب ست خطوات ، يذبح ثورا ، وعجلا معلوفا ، وكان داود يرقص بكل قوته أمام الرب » . ويبدو ان انطلاق داود وتهتكه امام التابوت ، لم يرض الارستقراطية الاسرائيلية الجديدة ، اذ ان زوجته ميكال ابنة الملك شاول الذي خلفه داود – وكان كلاهما من القاع – على عرش اورشليم ، لم ترض ميكال عن تصرف داود هذا حين أطلت من الكوة ورأت الملك داود يطفر ويرقص أمام الرب ، فاحتقرته في قلبها » .

ونصب داود التابوت « في وسط الخيمة التي نصبها له » ، والخيمة هي ما أصبحت بعد ذلك « خيمة الاجتماع » ، مثلما كانت « بيوت الحلفاء » ، أو المعابد المجدولة من الحلفاء ، نواة للمعبد المصري القديم ، ومثلما كانت الكعبة في أدنى أشكالها يسمونها « الاخشف » أو « الغبغب » ، وهي المكان الذي نصب عليه الكاهن الخرافي عمر بن لحي الجرهمي ، أصنام مكة التي قيل انها بلغت ٣٦٠ صنما ، بعدد أيام السنة القمرية .

وكانت خيمة الاجتماع هذه بمثابة التمهيد لاقامة المعبد الاسرائيلي ، أو الهيكل الذي بناه المهندسون والفنانون الفينيقيون على نمط المعابد المصرية من حيث المعمار ، والنحت ، والتصوير الاشوري البابلي من حيث التشكيل .

ولقد حدثت حكاية طريفة حول اقدام داود على تشييد أول معبد عبري ، حين قال الملك داود لناثان النبي : « أنا أسكن القصر ، وتابوت الله ساكن داخل الشقق » .

فكان أن غضب « يهوه » أو « التابوت » ، أو « الطوطم السلف » ورد اليه ناثان قائلا : « اذهب وقل لعبدي داود ، هكذا قال الرب ، أنت تبني لي بيتا لسكناي ، لاني لم أسكن في بيت منذ يوم أصعدت بني اسرائيل من مصر الى هذا اليوم ، بل كنت أسير في خيمة وفي مسكن » . كما قال يهوه لداود : « أنا أخذتك من المربض من وراء الغنم لتكون رئيسا على شعبي اسرائيل » .

وكثيرا ما كان انبياؤهم ، يمنعونهم من « مضاجعة النساء المجتمعات في بيت خيمة الاجتماع » .

وفي تلك المرحلة الطوطمية ، كانوا يلقبون النبي ب «الرائي» ، اي الذي يرى حجب المستقبل ، وكان « الكهنة من بني لاول ، حاملي تابوت عهد الرب » يمنعونهم بحسب وصايا موسى من مضاجعة البهائم والحيوانات ، من على قمم الجبال ، فكانوا يقولون : « ملعون من يضجع مع امرأة أبيه ، لانه يكشف ذيل أبيه وأمه ـ ملعون من يضطجع مع حماته » الخ ..

ومثلهم مثل بقية الاقوام والقبائل الطوطمية ، كانوا يقدسون الاحجار والشواهد .

ويرد ذكر الاصنام أو الاحجار ـ المقدسة ـ أو الشواهد ، خلال ذكر تاريخ ذلك الطور الطوطمي ـ الانيمي ـ الذي مرت به هذه القبائل أو الاقوام المتنافرة في بعض مدن الشام وفلسطين .

ولعل « اختيار » داود للاحجار الخمسة التي نازل بها خصمه الفلسطيني جالوت ، له دلالته .

وعندما انتصر الاسرائيليون على الفلسطينيين أخذ الكاهن النبي « صموئيل حجرا ونصبه بين المصفاة والسن ، ودعا اسمه حجر المعونة » (١) .

وحين عاهد يشوع القبائل العبرية عامة ـ قبل وفاته ـ بألا يعبدوا الآلهة الغريبة عنهم ، نصب لهم حجرا ، قائلا : « ان هذا الحجر يكون شاهدا علينا لانه قد سمع كل كلام الرب » (٢) .

فلقد كانوا يقدسون مظاهر الطبيعة من حولهم من آبار ماء وحيوانات وكهوف أو مزارات وأماكن مقدسة ، لكل منها بعله أو سيده أو حاميه ، فيقال : « بعل المكان الفلاني » ، « أي اله ذلك المكان » أو حاميه .

---

(١) صموئيل الاول ٢ .
(٢) صموئيل الثاني ٧ .

وأورد سير جيمس فريزر ، كثيرا من الشواهد على تقديسهم لمظاهر الطبيعة من حولهم ، ومنها تلك الحيوانات والطيور والاشجار التي ترد بكثرة شديدة عندهم ، مثل حكاية أشجار « يوثام » التي حكاها لهم من فوق أعلى جبل : « اسمعوا يا أهل شكيم ، يسمع لكم الله . مرة ذهبت الاشجار لتمسح عليها ملكا ، فقالت للزيتونة : املكي علينا ، فقالت لها الزيتونة : أأترك دهني الذي به يكرمون بي الله الناس ، وأذهب لكي أملك على الاشجار ؟ ثم قالت الاشجار للتينة : تعالي أنت واملكي علينا .. فقالت لها التينة : أأترك حلاوتي وثمري الطيب وأذهب لكي أملك على الاشجار ؟ فقالت الاشجار للكرمة : تعالي أنت واملكي علينا .. وقالت لها الكرمة : أأترك مسطاري الذي يفرح الله والناس ، وأذهب لكي أملك على الاشجار ؟ ثم قالت جميع الاشجار للعوسج : تعال أنت واملك علينا .. فقال العوسج للاشجار : ان كنتم بالحق تمسحونني عليكم ملكا ، فتعالوا واحتموا تحت ظلي ، والا فتخرج نار من العوسج وتأكل أرز لبنان » .

وتكشف الكيفية التي اختار بها جدعون ـ في المرحلة الطوطمية لشيوخ القبائل ـ رجاله لقتال الميديانيين « سكان سيناء » الذين استعمروهم ، عن كيف ان هذه القبائل ، كانت مغرقة في الطوطمية .

وقال الرب لجدعون : كل من يلغ بلسانه من الماء ، كما يلغ الكلب ، فأوقفه وحده . « وهكذا فرز جدعون هؤلاء ـ الكلبيين ـ وأخذهم وقاتل بهم الميديانيين « العرب » ، وأمسكوا أميري الميديانيين ، غرابا وذئبا ، وقتلوا غرابا على صخرة غراب ، وأما ذئب فقتلوه في معصرة ذئب » .

وكانت النخلة شجرة الميلاد المقدسة عندهم ، كما كانت عند أغلب الشعوب السامية ، مثل نخلة نجران عند عرب الجنوب ، ونخلة تدمر أوتمر ، عند القحطانيين . وكانت النخلة هي الشجرة المقدسة عند الكاهنة دبورة ، أقدم شاعرة عبرية ، « ودبورة امرأة نبية ، وهي جالسة تحت نخلة دبورة بين الرامة وبيت ايل » .

ومثلهم مثل بقية القبائل والشعوب السامية البدائية ، اكثروا من الاغراق في المعتقدات الغيبية ، مثل السحر والتنجيم ، والايمان بالحظ أو الميسر مثل الجاهليين ، فكانوا يحتكمون الى القرعة في أغلب ما يخصهم من أمور مثل الحرب والاغارة . فبعد أن شاخ يشوع وتقدم في الايام ، جمعهم وقال محذرا من الاستغراق في الخرافات . ذلك رغم ان موسى كان قد حذرهم في وصاياه من العيافة والعرافة واستثارة الموتى ، وغير هذا : « لا يوجد فيك من يجيز ابنه أو ابنته في النار ، ولا من يعرف عرافة ولا عائفا ولا متفائلا ولا ساحرا ولا من يرقى رقيه ، ولا من يسأل جانا أو توابعه ، ولا من يستثير الموتى » .

ويبدو ان معتقداتهم عن التشاؤم والتفاؤل والعرافة والعيافة، قد انتقلت اليهم من جيرانهم الفينيقيين ، اذ ان هذه المعتقدات كانت جزءا حيويا من كيان المعبد الفينيقي ، حيث خصصت الحجرات السفلى من هذا المعبد لممارسة هذه الطقوس الخرافية ، بنفس ما كان متبعا بالنسبة للمعبد البابلي .

وطبعا لا حد لاهالة التراب والرماد والطين وتمزيق الثياب والندب حول طوطم الآباء « فمزق يشوع ثيابه وسقط على وجهه الى الارض أمام تابوت الرب الى المساء هو وشيوخ اسرائيل ، ووضعوا ترابا على رؤوسهم » (١) .

فما من أمر لم يحتكموا فيه الى القرعة قبل تعيين الكهنة والخزنة والقضاة والحروب واختيار رؤساء الجيوش والغزو وجهاته وهكذا . .

وكان يشوع عاتيا في ارسائه لتشريعاتهم المغرقة في القبلية، مثل رجم السارق ، وابادة بيته ، بل وعشيرته . من ذلك ان احدهم ويدعى عخان اعترف له باخفائه بعض الاسلاب عقب احدى الغزوات ، فكان أن « أخذ يشوع عخان بن زارح والفضة والرداء أو لسان الذهب وبنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته ، وكل ما له وجميع اسرائيل معه ، فرجمهم جميع اسرائيل بالحجارة

(١) يشوع ٢٣ ، يشوع ٧ ـ ٤ ، يشوع ٧ ـ ٥ ، أخبار الايام الاولى ٢٦ .

واحرقوهم بالنار ، وأقاموا فوق رجمهم حجارة عظيمة الى هذا اليوم » .

فكانت خطايا الآباء تحلّ بالابناء ، ويقع وزرها على رؤوسهم، ويرد هذا صراحة في وصاياهم : « وقد أخبرته بأن أقضي على بيته الى الابد ، من أجل الشر الذي يعلم ان بنيه قد أوجبوا اللعنة على أنفسهم » . فلعنة نوح لابنه حام وقعت مباشرة على رأس كنعان ابن حام ، وهكذا .

وكانوا يرجمون الابن الذي يعصي والديه ، بحسب وصايا موسى لهم في سيناء .

كما كانوا يشهرون دم العروس « أخذ وشها » ، واذا لم تكن للبنت العروس عذرية « يرجمها رجال مدينتها بالحجارة حتى تموت لانها عملت قباحة » .

باختصار هو تراث طوطمي قبائلي ، لا يختلف كثيرا عن تراث العرب البائدة ، وورثتهم الجاهليين .

ومن هنا ، فمن العبث دراسة هذه المنطقة ، قلب العالم القديم ، بمعزل عن هذا التراث العبري السامي .

وبنفس هذا المنهج يتلقانا العالم المتحضر ، على اعتبار اننا منطقة متوحدة التراث .

الفصل الخامس

« عبدة القمر »

ويتبنى العرب العدنانيون ، أي المنحدرون من نسل اسماعيل ابن ابراهيم الخليل ، فكرة أو رواية ، مؤداها ان عرب الجزيرة العربية ، كانوا حنفاء بمعنى انهم كانوا على دين ابراهيم الخليل ، موحدين لا يعبدون الاصنام والاوثان ، فمن « كان على دين ابراهيم فهو حنيف . فلقد كانوا يختتنون ويحجون البيت ويغتسلون ، ويتجنبون الاوثان الخ .. » .

ويرى بعض الباحثين ان لفظة « حنيف » أو « حنف » من أصل آرامي ، وعنهم أخذها اليهود العبريون والسريان والعرب ، وخاصة سكان اليمن . ويقال انه كان من الموحدين الحنفاء : قس بن ساعدة الايادي ، والشاعر الجاهلي العظيم أمية بن أبي الصلت ، وأرباب بن رئاب ، ووكيع بن سلمة بن زهير الايادي ، والشاعر زهير بن أبي سلمى ، وخالد بن سنان العبسي ، وسيف بن ذي يزن ، وورقة بن نوفل القرشي وغيرهم ، وهو ما أورده القرآن في سورة آل عمران آية ٦٧ وما بعدها . وكان هشام وابنه محمد الكلبي ، على رأس المروجين لهذه النظرية التي شغلت عددا كبيرا جدا من المستشرقين وعلماء السامية المحدثين.

وينسب ابن الكلبي ، لشخصية ملك أو حاكم خرافي ، هو

عمر بن لحي الجرهمي ، انه أول من جلب الاصنام ونصبها حول الكعبة « فكان أول من غير دين ابراهيم ، وسبب السائبة ووصل الوصيلة » .

ويبدو ان عمر بن لحي الجرهمي هذا كان منتسبا الى واحدة من القبائل العربية البائدة أو المندثرة ، وهي قبائل جرهم ، فأمه « يقال لها قمعة بنت معاف الجرهمي » .

وتنسب المصادر الميثولوجية العربية المتمثلة في الرواة العرب ، القبائل جرهم المندثرة مثلها مثل قبائل عاد وثمود وطسم وجديس ، انهم – أي جرهم – كانوا أخوالا للعرب العدنانيين ، وان اسماعيل بن ابراهيم تزوج منهم بعد أن كبر حين تركه أبوه ابراهيم « بواد غير ذي زرع » فآنس الله وحشته وأمه هاجر ، بقبائل جرهم والعماليق . يقول عبيد بن شريه الجرهمي : « فكنا نحن جرهم أصل البلد الحرام ، فنشأ اسماعيل فينا ، وتكلم العربية ، وتزوج منا ، فجميع ولد اسماعيل من بنت معاف بن عمرو الجرهمي ، فاسماعيل وأبوه منا ، وأنتم يا قريش منا ، والعرب منا » .

ويقول الهمداني عن رواية لوهب بن منبه انه « لما أخذ جرهم التابوت – أي تابوت عهد الرب – وبه جثمان آدم ، وهم قبائل عدنان ومن معهم من العرب العماليق ، طسم وجديس ، انهم واروه ودفنوه في مزبلة ، فنهاهم عن ذلك الحارس بن معاف الجرهمي، والنبي اسماعيل بن الهمبسع بن ثابت بن فيدار بن أسماعيل بن ابراهيم ، فلم ينتهوا، فأهلك الله الفريقين جرهم وعدنان ، والذين هلكوا مائتا ألف ونيف ، أرسل الله عليهم الرعاف ، فحزن الحارس بن معاف على قومه لما هلكوا ، وسار على وجهه يسبح في الارض ثلاثمائة سنة ، حتى ألم به الكبر والهرم والعمى ، وهو القائل هذه الاشعار المكتوبة في مقام ابراهيم :

وكنا ولاة البيت من بعد ثابت

نطوف بذاك البيت والعز ظاهر

وصرنا أحاديثا وكنا بغبطة
كذلك عصتنا السنون الغوابر
فسحت دموع العين تجري لبلدة
بها الامن أمن الله فيها المشاعر

فيبدو ان ثمة صراعا قد نشب بين القبائل العربية البائدة والباقية ، أو بين قبائل جرهم وقبائل اسماعيل أو الهاجريين – وبقاياهم الى اليوم بالسعودية – بنفس ما حدث مع عرب الجنوب القحطانيين ، وأسلافهم من العرب البائدة عاد وثمود وطسم ، وما حدث مع الكنعانيين والعبريين والعمالقة أو العماليق في ربوع الشام وفلسطين. بمعنى حلول أحقاب تاريخية أو حضارية بحسب تفسير هذا التاريخ الاسطوري التخميني .

ويبدو ان هذا النزاع بين القبائل البائدة والباقية ، الذي قد يكون – على سبيل التخمين – نزاعا ذا طابع حضاري مفرق في القدم ، وانه كان متبوعا بانقلاب أبوي ، أي نقل السلطة من الام الى الاب ، أي من سارة وهاجر الى ابراهيم واسماعيل ، أو من « بنت مضاض بن عمرو الجرهمي الى اسماعيل وابنه قيدار وثابت الخ .. » . وهذا ما دعا عبيد بن شريه الجرهمي الى القول بأن « جميع ولد اسماعيل من بنت مضاض الجرهمي ، وأيضا اسماعيل وأبوه ابراهيم وقريش والعرب من جرهم » نسبة الى الالهة الام القبلية .

بل ان الصراع على التابوت ، تابوت العهد الذي أخذته قبائل جرهم كما يقول وهب ، يشير اكثر الى طبيعة ذلك الصراع ، ومعناه ان هذه القبائل السلفية كانت من عبدة جثمان آدم . فيقال ان الجثمان كان مخبوءا في كهف ماكبيلا ، وان قبيلة كالب عبدته ، ويقال ان قبائل كالب « العربية والعبرية » كانت تعبد جثمان آدم.

وكالب اسم لقبائل عربية وعبرية وكنعانية ، ومن أسمائها بن كلب ، بن وبره ، و « بني كلب » بن « ربيعة بن صعصعة » ، و « الكلبيين » و « كليب » الخ .. كما يقال بأن الاشياء التي كانت قد سرقتها راشيل – أم النبي يوسف – الالهة القمرية الام لقبيلة

يعقوب ، « ولابان بن ناحور » بعد زواجها من يعقوب ، كان من
بينها رأس آدم . وراشيل ـ أو الكاهنة الحمامة ـ هي الالهة الام
التي من اسمها جاءت تسمية اسرائيل .

وكانت قبائل كالب ، عشائر أدومية ، ومنها جاءت تسمية
آدم بمعنى الرجل الاحمر . وتوجد اشارات في التلمود الى ان
رأس العيص ابن اسحاق ، ابو الادوميين ، كانت بدورها مجالا
لصراع متواصل . ويقال ان يوسف الصدّيق تمكن من انتزاع
رأس عيسو أو العيص ودفنها في عبرون .

ويرى البعض ان ثمة علاقة بين القبة الحمراء التي كانت
تتخذها قبائل قريش وتابعوهم من القبائل المعروفة بالاحامسة
أو الحمس أو الاحامس ، أو بنو أحمس ، بمعنى المتحمسين لآلهتهم
وللكعبة ، وتميزوا بتلك القباب الحمر حتى أطلق عليهم أهل القباب
الحمر من الادم (١) .

واذا ما كانت لفظة ـ الادم ـ تعني أديم الارض ، فقد يشير
هذا الى علاقة بين تابوت العهد أو التابوت الذي به جثمان آدم ،
بالاضافة الى رأس العيص ابن اسحاق « الرجل الاحمر » أبو
الادوميين . مما يؤكد اكثر ان تلك القبائل السالفة البائدة قد
اورثت لاحقيهم من العرب الجاهليين عبادة أسلافهم الاول : آدم
عند الهاجريين والعبريين ، وابنه شيث ابن آدم أو اخنوخ أو
ادريس عند الصابئة ، وابراهيم عند الحنفاء ، وحفيده العيص
ابن اسحاق عند الادوميين أشقاء العبريين .

بل ان احداث الصراعات المتوالية حول ما يعرف في أساطير
الشرق الادنى بعصا شعيب أو يثرون ، يجعل من تلك العصا رمزا
سلفيا مرادفا أو متطابقا مع جثمان آدم ورأس العيص ابن اسحاق
وقباب الحمس ، فيقال عن تلك العصا : « انها هدية الرب لآدم
عقب طرده من جنة عدن ، وانها توارثت من أب لابن ، الى أن
وصلت ابراهيم ، فأورثها ابنه مدين وأمه قطورة بنت مقطور من

(١) ابن مسعد (١ ـ ٤) ـ المحبر ص ١٨١ .

العرب العاربة ، فأورثها مدين شعيب ، الذي أورثها بدوره لموسى
عقب زواجه من صفورة ابنة شعيب » .

وفي رواية أخرى يقال ان يوسف سرقها من شعيب وزرعها
في حديقة بيته ، الى أن جاء ـ الفلام الجعد ـ موسى فانتزعها .
ويقال انها كانت من آس الجنة ، كما يقال بأنها كانت في طول
قامة موسى ، وانها هي بعينها ما أصبحت بعد ذلك بقرون بمثابة
الصليب الذي صلب عليه المسيح .

فيبدو ان الصراع بين جرهم وعدنان كان في صميمه صراعا
بين عبدة جثمان آدم وتابعيهم من الحنفاء الذين حجوا البيت
واختتنوا كما أوصاهم ابراهيم (واذا كان آدم وابراهيم ، ما هما
الا وجهان لنفس البطل السالف) ، كما يشير روبرت جريفز (١) ،
أدركنا طبيعة ذلك الصراع السلفي الابوي أو البطركي ، لتلك
القبائل التي تتبع الآلهة والتقويم القمريين .

واذا ما انتقلنا الى نقطة تالية وهي تبعية القبائل البائدة
أو المندثرة من عاد وثمود وطسم وجديس وعملاق وجرهم للالهة
« الانثى » القمرية ـ ذات الاطوار الثلاثة ـ أو الثالوث الذي أصبح
أهم رقم مقدس فيما بعد عند الساميين بعامة . فكان لقبائل عاد
أصنام يعبدونها تسمى صداء وبفاء وصمود :

لنا صنم يقال له صمود   يقابله صداء والبفاء

وتؤكد النصوص الحفرية التي خلفتها هذه القبائل المندثره
ودونت بالخط المسند « انها لم تتجاوز في عبادتها آلهة ثلاثة هي
القمر والزهرة والشمس » .

ويدل هذا الثالوث الفلكي في رأي الباحثين في أساطير
العرب الجنوبيين على ان القمر كان هو الاله الذكر الاب ، والابن
هو الزهرة ، والام هي الشمس .

ويلاحظ ان هذا التعريف النوعي ما يزال محفوظا في اللغة
العربية « فالقمر مذكر بينما الشمس مؤنثة » .

1 — White godess — 212, Robert. graves .

أما الزهرة فكانت تسمى « عثتر » أي عشترت أو عشتار أو عشار بالمعنى الواسع للاخصاب من أرض وانسان وحيوان .

ويفسر الانثروبولوجيون ، الاطوار الاربعة التي طرأت على تلك القبائل خلال تحولها من الامومية الى الابوية . ففي أغلب المجتمعات البدائية ، عبد القمر كأسمى آلهة ثلاثية أطلقوا عليها اسم « نجم » وعند الساميين « هلال » ، ولعبت كاهنة الالهة نجم دورا في قيادة الهاجريين والانتقال بهم الى طور جديد ، فأصبحت القاضي والكاهنة والملكة أو الاميرة الام ، وأقيم لها مزار ، كما انها اتخذت لنفسها حيوانا أو نباتا طوطميا كان يحمى بالتابو أو « المحرم » .

ويلقي هذا بعض الضوء على التكونات أو الاتحادات القبلية العشائرية « القديمة » وهي تواصل تكوناتها وتشكيلاتها ، بحيث رفعت وعممت الشعيرة — أو الشعار — التي سادت أقوى قبيلة لتصبح شعارا عاما لآلهة الولاية أو مجموع البطون والعشائر .

وتمثل الانتقال الثاني في ظهور الاله الاب — الذكر — أو المذكر الذي نبنى أيام الاسبوع السبعة عند السومريين — اللاساميين — وكأسطورة شبه متفق عليها عند أغلب المجتمعات البدائية . فقد تزوجت الالهة الام — نجم أو هلال من مخلوق وهمي أو سماوي — ومن هنا أصبحت كل شعيرة قبيلة مرتبطة بواحدة من القوى السبعة للكواكب السبعة السيارة ، وقدم لطوطم الالهة القمرية — نجم أو هلال — زواج مقدس سنوي ، يقتل فيه الكهنة التجسيد البشري للاله الذي هو الملك زوج الالهة القمرية الام ، يقتله الكهنة في نهاية كل عام .

ولقد مرت القبائل اليونانية والايجية — وأبناء عمومتهم الليبيون — بهذا الطور ، كما ان د. مرجريت مري ، تضيف بأن مصريي ما قبل التاريخ ، مروا بهذا الطور ، فأراق الكهنة المصريون دم الملك الالهي الذبيح ، ونشروا رماده بالارض « قبل موعد شقها بالمحاريث » أي مع موعد الحرث . ويقال ان الرماد المتخلف من حرق جثمان الملك الالهي كان يوزع على أقاليم مصر بالتساوي .

وكان الحثيون القوة الرئيسية الكبرى الموازية للمصريين على طول الشام وفلسطين ، والورثة الموازون للبابليين في مناصفة التراث الحضاري السومري بعامة ، بحسب ما يراه ارنولد توينبي .

كان الحثيون ينثرون دم الملك المقتول المضحى به قبل موعد شق الارض بالمحاريث ، مثلهم في هذا مثل جيرانهم المصريين . أما جسد الملك (١) فكانت تأكله الجنيات ، وهن وصيفات الملكة الالهة القمرية ، وهن مرتديات أقنعة من رؤوس الكلاب أو الجياد أو الخنازير .

وتمثل الانتقال الثالث في ان عشيق الالهة الام أصبح ملكا ووقر على اعتبار انه الهيئة الذكرية للاله الذكر — القمر .

ولقد تبدى هذا خاصة ، في الاله الفينيقي بعلهامان « الذي كان فينيقيو الشام وفلسطين ، يضحون له بقتل طفل سنويا كبديل لقتل الملك الالهي ، وظلت عبادته سارية في الشام وفلسطين الى ما بعد القرن الرابع الميلادي ، وعرفت هذه الملة أو النحلة بـ « الاوردجيين أو النشابة » (١) .

وجاء الانتقال الرابع متبديا في تضخيم قوة الملك، واكتساب هذه القوة من الملوك المحليين الذين يعبدون القمر ، فلقد اعتبر هذا الملك الاب نفسه ، ممثلا أو متقمصا لاله القمر ، واتخذ من نفسه ملكا شمسيا في اللاهوت المصري القديم ، وواصل زواجه السنوي المقدس محررا نفسه اكثر من الاعتماد على القمر .

بل ان الملك سلب الملكة أو الالهة القمرية سلطتها ، « فكان يرتدي ملابس نسائية ويضع أثداء صناعية ممثلا الملكة » .

وفي هذه المرحلة حل الزواج الابوي بدلا من الزواج الاموي، وتسمى الناس بأسماء آبائهم بدلا من أمهاتهم ، ووحدت القبائل ببطل ذكر سالف ليقدس ، وهو ما حدث مع معظم شعوب العالم

(١) الاشتراكية والفن — ص ٦٠ ، ترجمة أسعد حليم .
(٢) الفهرست — ص ٣٤٢ وما بعدها .

القديم ، ومنه يونانيو ما قبل التاريخ ، والبلاسجيون ، والليبيون وغيرهم ، وحلّ بالتالي التقويم الشمسي بـــدلا من القمري ، وأصبحت السنة ٣٦٥ يوما بدلا من ٣٦٠ يوما .

ولقد كشفت نصوص المسند عن ان القبائل العربية أو المتعربة البائدة ، وهي قبائل عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم والعماليق والصفوة الخ.. ، كانت تتبع الآلهة القمرية والانتساب الامـوي . وعلى أي الاحوال فان دراســة التراث العربي أو تراث القبائل العربية الجاهلية بمعزل عن دراسة أسلافهم من هـــذه القبائل المندثرة أمر غير مجد وغير علمي خاصــة اذا ما عرفنا ان تراث المندثرين ، قد تواتر كالعادة ، فتوارثه الاحفاد من العرب العاربة، أي ما تعارف على تسميتهــم بالجاهليين كما حلا لهم أن يتسموا ويتميزوا . فمثلا ظلت تقويمات المتعربة الاول أو البائدة ساريــة لدى الاحفاد حتى الى ما بعد الاسلام ، بل والى اليوم .

فظلت أسماء شهور قبائل ثمود يجري استعمالها في جنوب الجزيرة العربية حتى وقت لاحق للاسلام . هذا رغم ان نصوص المسند كشفت عن ان التغيير الوحيد الـــذي طرأ على تقويمات وأسماء الشهور العربية أو الهجرية لم يقع الا في عام ١١٥ قبــل الميلاد ، اذ بدأ ظهور أول تقويم ثابت تعاملوا به حتى قبيل ظهور الاســلام .

من أسماء الاشهر التي ظلت سارية منذ العرب البائدة حتى وقت ظهور الاسلام ، وهي فترة تصل الــى اكثر من الفي عام ، شهور : ذي حجتن أي « ذو الحجة » ومعناه شهر الحج ، وذو تمنع ، وذو اثرات ، ومؤتمر ، وربى ، وعادل ، وناطل ، وورنه ، وموجب ، ومورد ، وهوبل أو دابر ، وذي يمر ، وهو شهر رمضان أول شهور السنة عند المتعربة أو العاربة المندثرين ، اما شهــر موجب فهو ما سمي شهر محرم ، ومورد هو شهر صفر .

أما الشهور التي ثبت استعمالها قبلّ الاسلام وبعده ، فهي : المحرم ، وصفر ، وربيع الاول ، وربيع الثاني ، وجمادى الاولى ، وجمادى الاخرى ، ورجب ، وشعبــان ، ورمضان ، وشوال ،

وذو القعدة ، وذو الحجة . ويقال ان أسماء هذه الشهور جــاءت مستمدة من أحداث أو شعائر أو انتقالات حضارية رؤي تمجيدها وحفظهــا .

كما ينسب لكلاب بن وبره انه أول من سماها ، وكان منها الاشهر الاربعة الحرم أو المحرمات التي اتفق عليها لتحريم الغزو والحروب والقتال والمنازعات بعامة ، لهذه القبائل المتطاحنة لدرجة الابــادة .

وكان أهم اكتشاف أوضحته نصوص المسند بالنسبة للاهوت وتقويم الجزيرة العربية بقسميها الشمالي العدناني ـ الرعوي ـ والجنوبي القحطاني ـ الزراعي ـ هو انه بينما كــانت القبائل الحجازية أو العدنانية تتبع الاله والتقويم القمريين، كان القحطانيون سكان اليمن يعبدون الشمس ويتعاملون بتقويمها ، بأيامهــا ، وأسابيعها ، وأشهرها .

أي ان الانتقال الحضاري الذي تمثل في ظهــور الملك الاب الذكر ، جاء عند اليمنيين بشكل أسبق من سكان الحجاز البدويين الرعويين ، ربما بأكثر من ألف عام .

ومن أسماء القمر عند العرب البائدة « سين » ، وهو نفس اسمه عند السومريين اللاساميين ، ويعتقد البعض ان البائــدة أخذوه عنهم ، وشهر كان من اكثر أسمائه شيوعا ، خاصة فـي الحبشة ، فكلمة شهر ، هي أحد أسماء الاله القمري .

في العربية ما يشير الى انها كانت اسما للالهة القمرية بعد انتقالها الى الطور الثاني ، أي طور الاله الاب الذكر .

ويرى البعض ان لفظة « قمر » كــانت الاسم المتأخر الذي أخفى به الساميون اسم « رب الارباب » ، أي بعــد أن تحــولت الالهة القمرية الانثى الى اله ذكر أب بظهور الملك الالهي الذي وقر على اعتبار انه الهيئة الذكرية للقمر ، فخوطب من أتباعه ومن عبدته « ود أب » أو « أب ود » ، كذلك فقد أصبح من ألقابه « عم » وهو ما يشير اكثر الى الانتساب الابوي .

فالاله « ود » أو « ود شهر » معناه « ود القمر » . ويرى

البعض ان لفظة قمر « هي تسمية متأخرة أطلقهـــا الساميون من أبناء الجيل الثاني لاخفاء الاسم الحقيقي لرب الارباب » .

كذلك فقد تسمت باله القمر قبائل كهلان باليمن ، اذ ان من ألقاب اله القمر في نصوص العرب البائدة فياليمن اسم « كهل » ، كما انه عرف بهذا الاسم « كهل » في النصوص أو النقوش التي خلفتها وتركتها القبائل البائدة للعرب الشماليين في الحجاز ونجد أو السعودية اليوم .

كما كان من ألقابه عند هؤلاء البائدة « صدق وصديق وحكم وحكيم وعلم وعليم ورحمن ورحيم ونهي ومحرم » ، والاسم محرم وجد بكثرة في النصوص الحبشية .

وكان الاسم « ود » مـــن أسماء الاصنـــام التـي أوردها القرآن (١) . كذلك ورد في شعر النابغة الذبياني :

حيـــاك ود واني لا يحـل لـه
لهو النساء وان الـدين قد عزمـا

كما تسمى باسم « ود » العرب الجاهليـون ـ عبد ود ـ ، وعبدته قريش وكانت توعده ادا ، وفي احدىالروايات التي تنسب للاهوتي العربي ابن الكلبي ان والد مالك بن حارثة كان يعطيه اللبن ويكلفه بالذهاب الى الصنم « ود » ليسقيه ويستغفره ، فكـان مالك يشرب اللبن سرا ويبخل به علىالصنم أو الاله القمري «ود» .

ووجد في النصوص المعينيـــة والسبئية والثمودية كتابات مثل « أموت على دين ود » ، و « يا الهـــي ود احفظ لي دينـي وأيـده » .

وذهب البعض استنادا الى لفظة « ود » العربية التي ما تزال متواترة بمعنى المودة أو التودد ، الى ان هذا المعبود الذي هو القمر يعني الود أو التحية ، كما وردت صراحـــة في أشعار النابغـــة الذبياني « حياك ود » .

(١) سورة نوح آية ٢٣ .

فالاله القمري « ود » ، هو أيضا الاله « المقة » ، ومن هذا الاسم جاءت تسمية مكة ، كما انه عرف وبالتحديد في ممالكسبأ، وكذلك عرف بنفس اسمه السومري في الالف الرابعـــة ق.م. « سين » عند الحضرموتيين ، كما انه عرف باسم أو لقب « عم » عند القتبانيين أو العمونيين ، ومن اسمه جاءت تسمية العاصمة الاردنية عمان .

وكان هذا الاله القمري « سين » ابن الالهـــة عشترت في كتابات المسند الحضرموتية .

كما كني عن الاله القمري « المقة » بثور في اليمن ، أي الاله « ثور » ، وكان هذا هو اسمه في كتابات المسند ، كما ان مـن القابه « ثور » بالاضافة الى ان الثور كان حيوانه المقدس ، ووجدت صور رأس الثور في الجزيرة العربية بكثرة شـــديدة . فكانت الثيران من اكثر الحيوانات التي يضحى بها لاله القمر « المقة » ، كما ان قبائل وعشائر بأسرها تسمت باسم « ثور » .

كذلك كان من أسمـــاء اله القمر اسم « الساهـــور » أو « السلطيط » أو « التغرور » ، فلقد عرفه بهذه الاسماء عـــرب الجاهلية ، ووحد مع الله تحت نفس هـــذه الاسماء في شعر أمية بن أبي الصلت .

ومما يضاعف تأكيدنا في ان ثمة انقلابا حضاريا أو اجتماعيا من مرحلة الامومة الى مرحلة الابوية أو البطركية ، قد يقف فاصلا متمما لنزاعي القبائل البائدة أو العاربة وخلفائهم من العرب العاربة أو العرب الجاهليين ، ويتمثل هذا الانقلاب الحضاري ، فـي ان النصوص التي خلفتها القبائل المندثرة ، والتي ترجع الى منتصف الالف الثالثة قبل الميلاد ، جاءت فأكدت ان أهم وأعظم الآلهـــة السامية مثل ايل وبعل ، وأدون أي أدونيس ، وملك اله ثمـود ، ومولك الالهة الموسس عند العمونيين ، كانت تطلق عليهـم بصفتهم الهات أناثا ، وأصبحت بعد ذلك تطلق عليهم كآلهة ذكور لدى كـل الشعوب والقبائل السامية في آسيا الغربية بل وآسيا الصغرى كما هو معروف .

ومن المهم معرفة انه بالقدر الذي حفظت به نصوص المسند لعرب اليمن البائدة الذين توارثهم القحطانيون ، وهم قبائل عاد وطسم وجديس ورائش ، كذلك فقد حفظت النصوص الثمودية واللحيانية والصفوية ، آلهة ومعتقدات قبائل الشمال المندثرة (الصفويين) .

ومما جاءت به النصوص الثمودية — في نجد والحجاز — تركيزها على أعظم الآلهة الساميين بعامة وهو الاله ايل ، مثل « يعذر ايل — صنم ايل — عزرائيل — سعد ايل — ود ايل » .

وكذلك أسماء الهة الخصب « عثتر » الى جانب الآلهة « تيم » و « يغوث » و « هدد » أو الاله الفينيقي « حداذ » اله المطر ، وشمس ، وعزيز ، والالهة « منى » أو مناة ، وكهل ، واللات ، و « جد » أي السعد ، وكذلك الاله « رضى » الذي يقول عنه العالم العراقي الكبير الدكتور جواد حسني انه هو ما أورده الميثولوجيون أو الاخباريون العرب ، باسم « رضى » أو رضاء ، وانه كان في منزلة عشترت عند العرب المتأخرين الجنوبيين . وأيضا وجدت أسماء ملوك الرها المندثرين ، الذين تسموا بأسماء الآلهة مثل أبجر ومعن ، بمعنى النعيم أو الـ «منعم» وعزيز وعبد الملك و « ملك » الذي كان في منشئه اسما للاله ثم أصبح لقبا سياسيا فيما بعد كما هو واضح .

كذلك جاءت الكشوف اللحيانية والصفوية بأسماء الآلهة والآلهات التي عرفها العرب الجاهليون فيما بعد ، مثل « اللات — العزى — مناة — عوض — ديدان — بعل سمين — احرام أو التحريم — جد — صالح — ذو الشرى — رضى — رحيم — سمع — نصر — نسر — مناف — ديان » وهكذا .

وكانت الفرس أو المهرة من أقدم الحيوانات المقدسة للشمس عند هؤلاء البائدة من قدامى الساميين ، وهو ما تردد طويلا في الشعر العربي ، من جاهلي ومعاصر .

كما كان للانباط سكان البتراء آلهة مثل « ذو الشرى ، واللات (وكانت الهة مؤنثة أم لجميع الآلهة) ومنتوا أو مناه ،

وهبل ، وشيع القوم ، أو حامي القوم » وهو اله القوافل ، والسواقين فيما بعد الى اليوم .

وكانت الهة ممالك تدمر في اليمن هي الالهة بل أو بعل أو الناقة ، واله القوافل « شيع القوم ، وشمس ، واللات ، وايل » ، كما كان من ألقاب وصفات أو نعوت هذه الآلهة التي حفظتها نصوص المسند « رب العالم » و « الله المحسن » و « رب العالمين » و « الرحمن » و « المتجبر » الخ ..

ويلاحظ عند مقارنة نصوص المسند التي خلفتها القبائل العربية البائدة بقسميها اليمني والحجازي أو الجنوبي والشمالي ، مع ما تناقله الرواة والميثولوجيون والاخباريون العرب ، انه لم يكن هناك اختلاف كبير طبعا بين التراثين ، المدون والشفاهي ، ومعنى هذا ان القبائل المندثرة أورثت لاحقتها من العرب العاربة أو عرب الجاهلية الاولى تراثها فأفاضت الاخيرة اللاحقة عليه .

كما يلاحظ ان الاختلافات ليست كبيرة بين تراث المندثرين وتراث السومريين فيما بين النهرين عن طريق وساطة البابليين والحثيين ، كما يقول ارنولد توينبي وغيره .

كذلك يمكن ملاحظة ان تطور القسم الجنوبي اليمني القحطاني، عن شقيقه العدناني والحجازي في نجد كان أسبق وأنضج ، اذ ان اليمن واصلت انتقالاتها من عبادة الالهة الانثى القمرية الى الانقلاب — الشمسي الذي تسمى به ملوكهم مثل عبد شمس بن يشجب بن سبأ .

أما الملاحظة العامة أو المجملة فتتركز حول عبادة تلك القبائل المبكرة التي ترجع الى ما قبل الالف الثالثة قبل الميلاد ، للالهة الفلكية أو السماوية ، مثلها هذا مثل بقية الاقوام السامية الزراعية في مصر والعراق والشام وفلسطين .

كما يلاحظ بشكل أخير ، ان معظم هذا التراث ، ما يزال يواصل نموه وسريانه في تراثنا المعاصر أو في مجمل حياتنا اليومية ، الآن وفي هذا المكان .

الفصل السادس

« الغيب والقدر والدهر في هذا التراث »

يستوقف المتصدي لدراسة التراث الفولكلوري العربي المعاصر ، أول ما يستوقف ، ذلك المدى الهائل المتمثل في الاغراق في القدرية ، والقسمة والنصيب ، وأفعال الزمان ومكائده ، وهي القدرية التي قد لا يبرأ منها نص أو فكرة ، شفاهية ، خاصة في تراثنا الفولكلوري المصري والعربي بعامة .

ولقد وصل الامر الى حد ان القدرية والدهرية أصبحت ملمحا مميزا لتراثنا الفولكلوري ، أي انه ما من جزئية أو « فكرة أو موتيفة » تصادف باحث فولكلور في أي منطقة في العالم عن القدر والقدرية ، الا ويمكن له ارجاعها الى موطنها الاصلي الام ، وهو التراث السامي بعامة ، والعربي بشكل أخص ، والاسلامي بشكل اكثر دقة .

ولقد سبق لموضوع القدر أن احتل منزلة واسعة من الجدل والبحث ، خاصة عندما يعرف بعلماء « الكلام » من العرب المسلمين فيما بعد ، خاصة المعتزلة ، وغيرهم أو ما تفرع عنهم من الشيع مثل الجبرية ، والصابئة ، والمختلطة ، والقدرية ، والمرجئة ، والوعدية ــ نسبة الى الوعد ــ أو القدر والمكتوب ، وكذلك الشيعة والخوارج .

وكان المعتزلة يلقبون بالقدرية ، وبشكل مجمل فقد كان القاسم المشترك الاعظم عند تلك الفرق وغيرها ، هو القدر ، فقالوا ان « لفظ القدرية يطلق على من يقول بالقدر ، خيره وشره » .

ولقد تعاظم دور هذهالشيع والفرق ، حتى ان النبي صلىالله عليه وسلم قال عنهم : « القدرية مجوس هذه الامة » .

والقدرية والدهرية والوعيدية والمنايا ، أفكار مترادفة وردت بكثرة شديدة جدا سواء في الشعر المنتسب الى القبائل العربية البائدة أو عند لاحقيهم من العرب الجاهليين ثم الاسلام ، وكذلك ترد بكثرة شديدة في الآلاف المؤلفة ، بل الملايين منالمواويل والشعر الشفاهي الشعبي المعروف بالمواويل الحمراء ، أي تلك التي تتصل مواضيعها بأفعال ونكائد الدهر والزمن وتقلبات الدنيا والايام وامساكها بالمصير الانساني .. الخ .

ولقد عرفت شعوب غرب آسيا ، الابدية التي أطلق عليها العرب الجاهليون مرادف الدهرية ، والدهر ، والمنايا ، والحتف ، والآجال ، والحمام ، والمنون ، والقضاء والقدر ، والمقدر والزمان والايام والليالي والخطوب .

ولقد وحد الساميون الاوائل من القبائل العربية البائدة ، بين القدر أو الدهر أو المنايا وبين الله ، وكذلك تسمت آلهتهم باسم « منى » ومناة ، وهي الاخت الثالثة من بنات الله الثلاث كما كانت معروفة بهذه الصفة والاسم منذ البابليين الاوائل (٢٨٠٠ ق.م) وعنهم أخذتها بقية الشعوب والقبائل السامية ، خاصة العرب الجاهليين فيما بعد .

وتؤدي لفظة « مناة » معنى القدر ومنها « الماني » بمعنى القادر ، نسبة الى بن ماني ، الذي قتله الملك « بهرام » ملك الفرس وقال له : « أنت الذي تقول بتحريم النكاح يستعجل فناء العالم » . ومنها جاءت تسمية المذاهب « المنانية » أو « المانوية » نسبة الى « ماني » وكان راهبا بحرّان وأحدث « دين المنانية » . والمنية تعني الموت ، أو ان الموت مقدر محسوب . ويبدو ان لفظة « منية » كلمة سامية مشتركة ، وردت في أغلب لهجات الشعوب

والقبائل السامية . ويرى البعض انها مرتبطة بالالهة البابلية « مامانتو » وعنهم أخذها الكنعانيون ولقبوها « منى » ، والالهة الثمودية « منوات » ثم « منات » عند العرب الجاهليين ، ومنها « عوض » وهو اسم صنم ، وحده الشعراء مع الدهر ، و «عوض» كان اسم صنم أو معبود قبيلة بكر بن وائل .

بل ان المستشرق « نولدكه » يرى ان كل هذه المترادفات للقدر والمنونوالدهر والموت ما هي الا أسماء لآلهة دهرية « وليست أسماء أعلام » .

ولقد وحد قدامى العرب خاصة القحطانيين سكان اليمن ، بين الدهر وبين الموت الذي يلتهم الرجال ، كما جاء في قصيدة تنسب « لامرؤ القيس » بن حجر المقصور بن الحرث آكل المرار الكندي ، يذكر ذا القرنين الصعب ذي مراثد الحميري :

ألم يخبرك ان الدهر غول
خثور العهد يلتهم الرجالا

وروت أساطير الحميريين وأفاضت عن بحث ملوكهم عن ماء الحياة الذي يهب الخلود ، ومنها مصاحبة الخضر لذي القرنين في رحلة عبورية جابا فيها ربوع الارض ، وعندما وافت « المنية » ذا القرنين دعا الخضر وأنشد :

لما رأيت من المنون وعيدا
قوضت رحلك سحره تجديدا
هتكت خطوب الدهر عزك هتكة
أمسى حسامك دونها مغمودا
سيموت من تنسى المنية يومه
وتنال بنت الدهر منه بعيدا

ومن أشعارهم التي تنسب لاحد ملوكهم « عبد المسيح بن بقيله » ، الذي وجد على قبره انه عاش مائة عام وقتل في مبارزة :

حلبت الدهر أشطره حياتي
ونلت من المنى بلغ المزيد

وكافحت الامـــور وكافحتنـــي
فـلم اخضـــع لمعضـــلة كـــؤود
وكـــدت أنــال بالشرف الثريـــا
ولكن لا سبيـــل الى الخـــلود (١)

كما ان من الاشعار المنسوبة لابنه « مضاض بن عبد المسيح » في رفضه وزهده عيشة الدنيا :

منزلا قـد تحكـم الـدهر فيــه
ليس للنـــازلين فيـه ثبـــات (٢)

وتكشف قبوريات ومراثي اولئك الملوك الحميريين ، عـن موقف غريب معاد في جوهره للدهر كمرادف للمـوت . بل كثيرا ما يسخط من قضية الباطشين التي تذهب بالانسان وتغيبه، ولكنه كثيرا ما يغرقه التساؤل ، فبأي حق يكون دوام الدهر متمثلا في تعاقب الليل والنهار دون الانسان ، وهو في النهاية يستصغر من شأن الدهر وعشوائيته ويصفه بأنه غير جدير بالمعاتبة ، أي ان الدهر دون مستوى العتب :

أقول وقـــد فاضت بعيني عبرة
أرى الدهر يبقى والاخـلاء تـذهب
أخـلاي لو غير الحمـــام أصابكم
عتبت ولكن ما على الـــدهر معتب

وفي احدى أساطيرهم ، ما يشير الى ان سام بن نوح أبـو كل الاقوام السامية ، كان جزوعا مرعوبا من الموت كما يقول وهب « وكان سام جزوعا من الموت ، فسأل نـــوح الله الا يميته حتى يسأل الموت ـ أي حتى يطلب سام نفسه الموت ـ فعاش أربعـــة آلاف عام ، بنى الفين وعمر الفين ، الى أن سئم الحياة واعتل ، فسأل ربه الموت فمات » .

وعندما سئل سام بعد موته عن الكيفية التي رأى بها الحياة قـــال :

« كبيت من بابين ، دخلت من هذا وخرجت من ذاك » .

(١ و ٢) الاكليل ١٧٨ ـ ١٨٩ .

ويورد « الساجستاني » تضمينة مرادفة للفكرة السابقـة ، نسبها الى نوح : « فبعد أن عاش نوح ١٤٥٠ سنة ، أتـــاه ملك الموت وسأله : يا نوح ، يا أبا كبير الانبياء ويا طويل العمر ويا مجاب الدعوة ، كيف رأيت الدنيا ؟ قال : كبيت له بابان : دخلت من باب وخرجت من الآخر » .

ومما تناثر حول خرافات لقمان ونسوره السبعة وتشبثـه بالخلود ، ينسب لشاعر يدعى « يثم اللات » شعرا يقول فيه :

رأيت الفتى ينسى من الدهر حقـه
حذار لريب الدهر والـــدهر آكله
ولو عاش ما عـــاشت للقمان أنسر
لصرف الليالي بعـد ذلك يأكـله .

ولقد وحد العرب الاوائل في أشعارهم وأقوالهم بين نبيهـم أو الههم الاب « هود الذي كان قد أرسل الى قبائل عاد البائدة » وهو الذي سلط على قوم عاد طوفان الرياح وأبادهم من الوجود .

وفي احدى القصائد الاسطورية التي تنسب الى امرأة كاهنة تدعى هزيلة ، أجابت قومها حين سألوها عما حدث لقوم عـــاد ، فقالت هزيلة : « سأقول شعرا وأرويه الجرادة تسمعكموه » ، وقـــالت :

ان عادا آثرت حقا على الرشد الصدودا .
لم تقل في غيها حين عتت قـولا سديدا .
بل طغت بغيا وقالت لن نطيع الدهر هودا .
عابدين من ضلال صنما يدعى الصمودا .

وفي هذا الشعر يبدو واضحا توحد النبي ـ الاله « هود » بالدهر الذي خلف اسمه على قصور ومعابد وقبائـل « دهر » ، والذي من اسمه اشتق « جبل ضهر » ، فيقال بأن « مـن ضهر خرج سبعة فراعنة حكموا مصر » .

بل أن الاسم الكامل لهود قد يزيد الامر وضـــوحا ، فهو « هود بن عبد الله بن الخلود بن عاد » (١) .

(١) المحبر ، ص ٢٨٥ .

والغريب ان قائل هذا الشعر – التالي – يتحسر على ان « بنات الدهر » رمينه غيلة فأصبن منه مقتلا ، دون أن يكون في مقدوره الرد على مغتاليه . « وكانوا يصفون الدهر بالرامي أي ذلك الذي لا يخطىء الرماية » :

رمتني بنات الدهر من حيث لا أدري
فما بال من رمى وليس برام
فلو ان ما ارمي بنبل رميتها
ولكنما أرمي بغير سهام
وافنى ولا أفني من الدهر ليلة
وما يفن ما أفنيت ملك نظامي

كما تصوروا الدهر ساقيا يسقي الانسان كأس المنايا :

أسلموا للمنون عبد يغوث
وبعض الكهول حولا يراها
بعد ألف سقوا المنية صرفا
فأصابت في ذاك سعد مناها

ووسع العرب الجاهليون في مفهوم وخرافات الدهر فقالوا : « يد الدهر » و « ريب الدهر » و « عدواء الدهر » و « غلواء الدهر » . كما قالوا : « ما هي الا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » (١) .

وعلى هذا أنكر هؤلاء الدهريون الخالق والبعث ، وان كانوا قد توسلوا من جانب آخر الى الدهر والزمن والدنيا . والغريب انهم كثيرا ما ارتدّوا واندفعوا يسبون ذلك القادر أو المعطي او « الماني » ، فكانوا اذا وقعت بهم الكوارث يسبون الدهر ويلعنونه .

ومن هنا يتضح ان الدهر هو ذلك الاله القادر المهيمن والمتحكم في المصائر والاعمار واستمرار العالم .

(١) الجاثية ، آية ٢٤ .

وفي الاحاديث النبوية يتوحد الدهر بالله تمام التوحد وذلك حين نهى النبي بشدة عن لعن الدهر : « لا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر » . أو فان الدهر هو الله . ومن حديث : « يؤذيني ابن آدم يسبّ الدهر ، وانما أنا الدهر .. أقلب الليل والنهار » (١) . وكان أصحاب الوبر بعامة من عرب وعبريين لا يؤمنون بالبعث والقيامة ، وهي تلك الافكار التي اكتملت مؤخرا في الميثولوجيا السامية ، خاصة عند البدو والرعاة ، فقالوا : « فانما حياتنا ظل يمضي ولا مرجع لنا بعد الموت لانه يختم علينا فلا يعود أحد » (٢) .

وقال البعض ان الدهر اسم من أسماء الله الحسنى ، وكذلك فقد تبدت هذه العقائد القدرية عند أغلب فحول الشعراء الجاهليين، مثل أمية بن أبي الصلت ، وزهير بن أبي سلمى ، ولبيد ، وسويد ابن عامر المصطلقي ، وهو القائل :

لا تأمننّ وان أمسيت من حرم
حتى تلاقي ما يمني لك الماني
فالخير والشر مقرونان في قرن
بكل ذلك يأتيك الجديدان

والشاعر أبو ذؤيب الهذلي ، الذي قال :

أمن المنون وريبها تتوجع
والدهر ليس بمعتب من يجزع

ومن تصوراتهم التي أنطقوها الحيوانات والطيور ، حول الموت وحلول القضاء (٣) ، ما فسر سليمان به غناء البلبل : « اكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء » . والهدهد يقول : « اذا نزل القضاء عمي البصر » . وكل حي ميت ، وكل جديد الى زوال . و « لدوا للموت وابنوا للخراب » . والنسر يقول : « يا ابن آدم ، عش ما شئت فانك ميت » .

(١) تاج العروس ، الجزء ٣ ، ص ٢١٨ . اللسان ، الجزء ٥ ، ص ٣٧٨ .
(٢) سفر الحكمة (الابوكريفا) ، فصل ٣ .
(٣) البداية والنهاية .

ويقول الطبري :

« ان اول ما خلق الله القلم فقال : أكتب ! فجرى في تلك الساعة بما هو كائن . ويقال ان القلم سال الرب قال : يا رب وما أكتب ؟ قال : أكتب القدر . فجرى القلم في تلك الساعة بما كان وبما هو كائن الى الابد » (١) .

فيقال ان « الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » .

ولقد دارت حول الملك النبي « داود » عديد من الاساطير التي تكشف جزعه من الموت ، مثل سلفه « سام بن نوح » ، وترد هذه الاساطير والخرافات في صور ومصادر كثيرة ومتنوعة ، منها ان آدم سأل الله عن « داود » فقال له الله : هذا ابنك داود . ولما سأل عن عمر داود ، قال له الله : ستون سنة . فقال آدم : رب زده في عمره . فرفض الله قائلا : لا بل تزيده أنت من عمرك . ولما كان عمر آدم ألف سنة فقد وهب لداود من عمره أربعين عاما . فكتب الله عليه بذلك كتابا ، وأشهد عليه الملائكة ، لكن عندما حضرت المنية آدم وأشرف على الموت ، جعل يخاصمهم في الاربعين سنة التي كان قد وهبها لداود .

وتنفرد احدى أساطير « الخضر » ، معللة السبب في ان الخضر حي خالد لا يموت ، لانه هو الذي قام بدفن جثمان آدم ، ولهذا أصبح الخضر أطول بني آدم عمرا . و « الخضر » أو « الرجل الاخضر » هو الذي قال عنه الرب في العهد القديم : « أنت الخضر ، وكلما مست قدماك الارض اخضرت » .

ويقال انه عندما حضرت الوفاة آدم ، جمع بنيه وقال لهم : ان الله منزل على الارض عذابا فليكن جسدي معكم بالمغارة ، حتى اذا هبطتم ، فابعثوا بي وادفنوني بأرض الشام . فكان جسده معهم الى ان بعث نوحا ، وضم الجثمان معه ، الى أن وقع الطوفان الذي أغرق الارض زمانا ، فجاء نوح حتى نزل ببابل وأوصى بنيه الثلاثة ، سام ويافث وحام ، أن يذهبوا بالجثمان الى المكان الذي أمرهم أن يدفنوه به ، فقالوا : « الارض وحشة ولا أنيس بها ،

(١) تاريخ الطبري ، ص ٢٤٨ وما بعدها ، المعمرون والوصايا .

ولا نهتدي الطريق » . فقال لهم نوح : « ان آدم قد دعا الله ان يطيل عمر الذي يدفنه الى يوم القيامة » . فلم يزل جسد آدم حتى كان « الخضر » هو الذي تولى دفنه « وهو يحيا الى ما شاء الله أن يحيا » .

وتربط الميثولوجيا العربية بين أساطير الخلق والبدء وبين أفكار القدرية والجبرية ، والدهر الذي وحده وعبده الساميون بعامة ، ثم العرب الجاهليون خاصة ، الذين عبدوا الدهر والقدر والماني أو المنايا في هيئة أصنام ، فكان الصنم : منايا أو مناة ، من أقدم المعبودات الجاهلية .

ويذكر هشام الكلبي ، ان صنم الالهة مناة ، كان منصوبا على ساحل البحر ، بين مكة والمدينة (١) ، وكان معبودا لقبائل الاوس والخزرج من أهل يثرب .

ويضيف ابن الكلبي : ان العرب جميعا كانوا يعظمون الالهة « مناة » ، ويذبحون لصنمها الذبائح ، كما انهم تسموا باسمها : « عبد مناة ، وزيد مناة ، وتيم مناة » .. الخ .

والالهة « مناة » من منشئها ، الهة الموت والقدر عند البابليين العراقيين ، وعرفت بنفس اسمها العربي عندهم : « مامانتو » (٢) ، وعن البابليين عرفها الكنعانيون ، والاراميون ، والانباط ، الى أن وصلت العرب فيما بعد ، فعرفوها بنفس الاسم أو ما يقاربه « منى» ، وذكرت منى متوحدة مع الاله « جاد » اله قبيلة جاد في العهد القديم (٣) .

ويشير الجمع بين هذين الالهين ، منى وجاد ، الى ارتباط المنايا والاقدار بالتنبؤ ومعرفة المستقبل ، الذي ارتبطت المعرفة به بالاله « جد » أو « جاد » ، والذي من اسمه تسمت قبائل جاد العبرية .

(١) البكري ٩٥٦ ـ الاصنام الجزء ١٣ ـ تاج العروس الجزء ١٠ ص ٣٥١ .

(٢) وكان البابليون يتخاطبون معها باسم « ويا مناة يا الهة الموت والقدر ، أو يا أيها الروح المخيفة وملك الموت » .

(٣) 3 — Babylonian — Lit. p. 110

كما ان الاله جد أو جاد كان من آلهة القبائل الثمودية المندثرة قبل منى أو مناة ، وكهل .. الخ . ومن اسم جاد تسمى الاله « بعل جاد » عند اليهود والاراميين والعرب الشماليين في سوريا، وكان يعرف باله السعد والحظوظ والمستقبل عامة .

ومن هنا يأتي ارتباطه بالآلهة الدهرية والقدرية .

ومن هذه الآلهة الدهرية القدرية الهة القمر السبئي نسر أو نسور ، الذي ورد في نصوص المسند والسبئية باسم « بيت نسور » ، بل لقد أطلق على أهل سبأ بعامة « أهل نسور » . ويبدو انه كان لهم مذهب ديني شبه مميز ، نسبة الى عبادة النسر أو النسور ، وسمي معه أيضا أحد رموز السنة السبئية المتأخرة « ذي نسور » .

وتشير الاسطورة التي أوردها عبيد بن شريه الجرهمي ، عن الحكيم لقمان بن عاد صاحب النسور أو « ذي نسور » الذي ارتبط موته بفناء أنسره السبعة ، وكانت أسماء هذه النسور على التوالي: المصون ، وعوض ، وخلف ، ومغبغب ، واليسر أو الميسرة — أي الحظ — ، وانسا — أي لقمان الانس — ، وكان سابعها هو النسر لبد . وفسر عبيد الجرهمي « لبد » بمعنى الدهر ، بل ان لقمان نفسه عرّف « لبد » بالابد أو الابدية .

فحين وافت المنية ذلك النسر السابع « لبد » ، وسقط مشرفا على الموت ، ولم يطق أن ينهض ، وتفسخ ريشه ، هال ذلك لقمان هولا عظيما ، ووقع موته منه موقعا جسيما ، وناداه : انهض « لبد » أنت الابد . وأنشد لقمان يبكي نفسه :

موتي اني أموت اليوم يا لبد
وحسرتي أن قد تعرم الابد

فطر كما كنت سالما أبدا
تحيا ونحيا معا ونحتفد

ويلاحظ في الاسماء السبعة التي أطلقها لقمان على نسوره السبعة انها من الاسماء التي تطلق على الخلفة والذرية ، مثل

« خلف » و « المصون » و « عوض » ، وعوض أيضا اسم للاله الجاهلي — القدري — عوض .

كما يلاحظ ان الاله القمري « نسر » الذي يتوحد بالدهر والزمن ، هو ما أصبح رمزا قوميا لدى أغلب الشعوب العربية والسامية عامة .

كذلك فانه مما يثير الالتفات ، تلقيب لقمان لنسره الخامس باسم الميسر ، أو الميسرة ، وهي كلمة مرادفة للحظ والسعد ، ومنها جاء الميسر بمعنى القمار .

ومن المعروف عن المقامرة « انها نوع من التكهن والاستشارة، انها جواب الآلهة للسائل » . ولعب الميسر كان في منشئه شعيرة فلكية لاهوتية مثلها في هذا مثل القرعة .

فيقال انه كان هناك اعتقاد شعبي شائع لدى المصريين القدماء، مؤداه ان الايام الخمسة النسيئة المنتزعة من السنة المصرية القديمة بحسب التقويم الفرعوني السنوي ، ما هي الا الايام الخمسة التي كسبها الاله تحوت أو هرمس ، اله الكتابة ، حين لاعب الالهة القمرية الام « ايزيس » الدومينو أو السيجة ، وكسب منها ، وكانت هذه الايام الخمسة بمثابة ميلاد للآلهة المصرية الخمسة : أوزوريس ، حورس ، ست ، ايزيس ، نفتيس . فأصبحت بعد ذلك بمثابة أعياد سنوية — خارج الزمن أو الدهر — يجري الاحتفال بها في جزيرة البيت المضيء ، التي عرفت باسم فاروس ، وهي ما أصبحت مدينة الاسكندرية فيما بعد .

والذي أود توضيحه ، هو ان ثمة علاقة دينية بين لعب القمار أو الميسر ، وبين التقويم الفلكي اللاهوتي ، منذ فترات مبكرة جدا عند أغلب الشعوب الاسيوية .

وقد يلقي المسعودي تفسيرا أوضح للعلاقة المبكرة بين الميسر أو لعب القمار أو الزهر — الطاولة — ، وبين « اللاهوتي » الفلكي أو الزمن الذي هو الدهر ، يقول : « وقد ذكر ان أردشير بن بابك، أول من صنع النرد ، ولعب بها ، وجعل بيوتها اثني عشر بيتا ،

بعدد الشهور ، وجعل كلابها ثلاثين كلبا ، بعدد أيام الشهر ، وجعل الفصين مثلا للفوز وتقلبه بأهل الدنيا » .

وكان منوطا بالاله هبل ، الذي استقدمه الكاهن عمر بن لحي الجرهمي ، ونصبه في جوف الكعبة ، ضرب القداح ، وما من أمر قام به العربي الجاهلي ، لم يستشر فيه هبل . فكان في جوف الكعبة ، قدامه ، سبعة أقداح ، مكتوب في أولها « صريح » والآخر « ملصق » ، فاذا شكوا في مولود أهدوا اليه هدية ، ثم ضربوا بالقداح ، فان خرج « صريح » ألحقوه ، وان خرج « ملصق » دفعوه ، فكان لكل مطلب قدح : قدح على الميت ، وقدح على النكاح ، وقدح للاختصام والسفر والعمل » .

ويبدو ان الجاهليين كانوا قد استقدموا صنمه من خارج الجزيرة العربية ، ويرجح انهم جاءوا به من العراق ، اذ ان تمثاله بحسب وصف ابن الكلبي كان « من عقيق أحمر على صورة انسان، مكسور اليد اليمنى ، أدركته قريش فجعلت له يدا من الذهب » . وكان قربان هذا الاله مائة بعير .

ويبدو ان العرب الجاهليين قد أحلوا لشعائر الحظ والميسر والبخت أن تتحكم وتشرّع في معظم حياتهم وأفعالهم ، وهو ما نهى عنه الاسلام بعد ذلك ، مثل ما كان يعرف عندهم بالبحيرة والسائبة والوصيلة والميسر والحام والاستقسام بالازلام ، وكانت تشريعاتهم التي أخذ بها أصحاب الوبر ، غير تلك التي اختصت بأصحاب الحرث أو الزرع ، فكانت البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، شعائر متصلة بأصحاب الوبر ، كأن يسيب أو ينذر للآلهة البهائم أو البشر ، فتصبح في حكم المحرمات ، منافعها للرجال دون النساء ، وهو تعبير ما يزال متواترا حتى الآن ، ويطلق على البغايا من النساء ، فيقال مثلا : « ان ابنة فلان سايبة » ، بمعنى انها حق مشاع للرجال .

ولجأوا الى ضرب القداح أو « الاستسقام بالازلام » في كل صغائر وكبائر حياتهم ، مثل الخصومات والحرب وانتساب الاطفال، وكل ما يتصل بعلاقة الرجل بالمرأة .

واطلقوا على طريقة تقسيم الذبائح اسم الميسر ، والبدء ، والنصيب .

وعلى هذا تحكمت الحظوظ والبخوت ، في كل مصائر الناس .

وكانت تلك الاقداح التي كتبوا عليها « العقل » و « السعد » أو « نعم » و « لا » ، هي المتحكم الاخير ، في الحروب والاغارات وحفر الآبار وتقديم الهبات واختيار الحكام والكهنة وسدنة الكعبة وهكذا .

وأغلب هذه الشعائر والافعال والمعتقدات ما تزال محفوظة متداولة في الفولكلور المصري والعربي عامة ، منها الحكايات الخرافية التي تدور حول « خروج العقل » و « احلال السعد » و « ضرب الزهر وانكساره » ، ومنها ان شعيرة ضرب الاقداح ، تحولت الى احدى ألعاب الحظ والزهر ، يمكن التعرف عليها في الموالد الموسمية الشعبية ، في لعبة الكيزان .

وكثيرا ما كان المتعقلون من الشعراء العرب ، يسبون آلهتهم ، ويسخطون على ما تشير به من اتيان الكوارث والخراب ، ذلك الذي يخضع بكامله لتلك الحظوظ العشوائية ، التي تحكم نواصيها الصدفة ، مثلما يتضح من هذه الابيات التي تنسب لامرىء القيس يسبّ فيها الصنم الاله ذا الخلصة ، وكان قد نهاه عن الحرب طلبا لثأر أبيه القتيل :

لو كنت يا ذا الخلصة الموتورا
مثلي وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا

ولا حدّ لخصوبة معتقداتهم التي ما تزال تتلمس طريقها خلال حياتنا المعاشة اليوم ، مثل « الهامة » التي تخرج من رأس القتيل في شكل طائر هائم مرفرف ، يبتغي القصاص ، يظلّ يصرخ ويندب : « اسقوني أسقوني » ، الى أن تراق دماء مغتاليه ، فيروى ويسكن .

وتتبدى هذه الفكرة أو التضمينة ، عند اليهود في أحد

أسفارهم الممنوعة ، وهو سفر الحكمة . ويرى البعض ان مصدرها القبائل العبرية العربيـــة : بني القريظة ، وبني النضير ، وبنـي فينقـــاع .

ومنها ما يتصل بتقاليد الموت المتـــوارثة ، مثل « النعي » العلني ، أي أن يركب كل ناع أو معزي فرسه ، ويصرخ بعـــلو صوته : « أنا فلان الفلاني أنعي الميت فلان » ، والرثاءة أو الندابة أو النواحة ، وما يتبع مراسيم الموت والدفن والمأتم ، مثل شـق الجيوب ، وجنازات النساء ، وتعفير التراب ، وحلق الشعـر ، وهي تلك العادات الواسعة الانتشار لدى كل المجتمعات السامية ، بل والمصرية القديمة ، مثل احتراف الندب وسبعة أيام العـزاء ، واستئجار الندابات ، وهو ما كان معروفا لدى المصريين القدمـاء والعبريين والبابليين .

وكانوا يقولون للميت وهم يوارونه التراب : « لا تبعد » :

يقولون ـ لا تبعد ـ وهم يدفنونني
وأيـن مكـان البعـــد الا مكانيـــا

وكانوا يعظمون ، أو هم يعبدون موتاهم وأسلافهم، فيحجون الى القبور ، ويحلقون شعورهم عندها ، ويذبحون لها ، ويعقدون المناحات والاشادة بفضائل الميت ، ويسكرون ويسكبون بعض الخمر ليشرب الميت ، ومثلهم كان يفعل العبريون : « اذ كانوا يخرجون حصة مما يأكلونه لتكون من نصيب الموتى » .

فكان العرب الجاهليون ، مثلهم مثل العبريين ، مفرطين في هذه المعتقدات ، ومن هنا جاء دور العرّاف والعائف والساحر وراقي الرقي ، والتمائم ، وسائل الجن والتوابع .

وتتبدى هذه الفكرة أو التضمينة ، عند اليهود ، في مرحلة متأخرة ، في أحد أسفارهم الممنوعة . فالهامة التي تخرج مـــن رأس الميت ، عندما انطفأت حياته ، وعاد الجسم رمـادا وانحلّ الروح : « كنسيم رقيق ، وزالت حياتنا كأثر غمامة اضمحلت مثل ضباب يسوقه شعاع الشمس ويسقط بحرها » . فالهامة هنا ،

مثلها مثل « النسيم الرقيق » أو « الغمامة » (١) .

كما ان من معتقداتهم الخرافية الجاهلية ، التفرس في وجه الموتى من الاسلاف ، وتصنيف الجن ، واحلالها بين قرني الثور ، وهو ماتخذته الارض الام ـ بعد ذلك ـ التي تستقر على أحـد قرني الثور الالهي . كما انهم أفرطوا في اتخاذ العرافة والقيافة وزجر الطير والاحلام وخطوط الرمل ، وسكك الحصى ، والتكهن والحدس والتنجيم ، وكذلك التنبؤ والفراسة والاستقسام بالازلام عند الاصنام ، وهي في مجملها معتقـــدات عرفها البابليـــون والكنعانيون والقبائل العبرية .

فمثلا عرفت القبائل العبرية العيافة ، بمعنى التنبؤ عن طريق ملاحظة حركات وسكنات الطيور والحيوانات، وسموها «الشاق» ، أي شق أجساد الحيوانات والطيور لدراسة أحشائها ، واستخلاص النبوءة ، كما كان زجر الطيور والحيوانات في العربية ، يقـابله الـ « نيحوشيه » في العبرية ، ومنها نحش ، وحنش ، وهو مـا يشير الى العلاقة بين التابوت والثعبان . وكـــان الكاهن يلقب بالزاجر ، والتكهن يقال له « طيرة » في العربية والعبرية ، والتطير بمعنى التشاؤم والتفاؤل ، وينسب لسليمان وذي القرنين والحكيم لقمان معرفة لغة الطير ، وطرق التطـــير ، وامكانية احكامـــه والسيطرة عليه .

وكان للكلدانيين ـ العراقيين ـ شهرة لا تبارى في معرفـة أساليب التطير ، عن طريق قراءة رئة الطيور وأكبادها وأحشائها .

وكانوا يتشاءمون ويتطيرون مـن المرأة والدار والفـرس ، وعتبات البيوت ومداخلها ، والغراب أو غراب البين ، أو الغراب الاسود ، وحتى العطاس والسعال ، كانوا يتشاءمون منه (٢) .

ولقد أجمع العرب والعبريون على اعتبار الغربان والبوم من الحيوانات النجسة المشؤومة ، وسموا البومة بـ « أم الصبيان » (٣)

(١) الكتاب المقدس ـ « الطبعة الكاثوليكية » ـ سفر الحكم ـ الفصل الثاني .
(٢) عمدة القارىء ، ٢١ ـ ٢٧٥ .
(٣) اللسان ٨٠٠ ـ ١١١ . تاج العروس ٦ ـ ١٩٣ .

« ام الخراب » ، واعتبروها الهامة التي تخرج من رأس القتيل ، تحجل بلا توقف على قبره ، في طلب الثأر والدم .

وترد أعظم الاساطير المتصلة بالاحلام ، عند الساميين ، في قصص يوسف الصديق ، وكيف ان سبب مأساته مرجعها الى أحلامه ، حين « حلم يوسف حلما وأخبر اخوته ، فازدادوا أيضا بغضا له ، فقال لهم : أسمعوا هذا الحلم الذي حلمت ، فها نحن حازمون حزما في الحقل ، واذا حزمتي قامت وانتصبت فأحاطت حزمكم وسجدت لحزمتي . فقال له اخوته : لعلك تملك علينا ملكا أم تتسلط علينا تسلطا » . وكان أن حقدوا عليه واحتالوا ليميتوه ، حين أرسله أبوه لهم : « اذهب أنظر سلامة اخوتك وسلامة الغنم ورد لي خبرا » . فلما أبصره اخوته قادما ، احتالوا ليقتلوه : « فقال بعضهم لبعض ، هو ذا صاحب الاحلام قادم ، فالآن هلمّ نقتله ونطرحه في احدى الآبار ونقول وحش رديء أكله، فنرى ماذا تكون أحلامه » .

وتتوالى هذه القصة ، متجمعة ، لتثبت صحة حلم يوسف وتفوقه على اخوته بل وبيت أبيه بعامة ، وانقاذه لهم من القحط والمجاعة .

بل ان دور يوسف في مصر ، لم يتعدّ انه كان موهوبا في تفسير الاحلام ، منها حلما خصيي فرعون رئيس السقاة ، ورئيس الخبازين ، ثم تفسيره حلم فرعون مصر ، فكان أن جعله فرعون نائبه : « أنت تكون على بيتي ، وعلى فمك يقبل جميع شعبي ، الا ان الكرسي — الذي أكون فيه — أعظم منك » .

كما ان الكلدانيين والعرب والعبريين تشاءموا من بعض الثيران ومن الحية والثعلب والاعور والمراة الطامث ، والرأس المستطيلة ، مثل الشمامة .

كما قد يتوحد « الهاتف » مع الدهر والقدر والزمن والماني — بمعنى القادر والعاطي — والدنيا الخ .. ولقد شبه العرب « الهاتف » بمعنى الرائي ، وكان العبريون الجاهليون يلقبون النبي بالرائي الذي يهتف للانسان والكهان بشكل أخص ، وهو ما قد

يتطابق مع الايحاء والوحي ، وما يمكن اضافته هو ان صوت الهاتف لا يرد ، بمعنى انه لا خيار — وبالتالي مرد — لذلك الذي يزوره الهاتف ، ويحطّ عليه ، ويتكشف له ، فالموعودة أو البغي التي يجيئها الهاتف ويأمرها بترك بيتها وزوجها ، والنزول الى الوعد والمكتوب ، أي أن تصبح سائبة — أو سايبة — مشاعا « للرجال دون النساء » ، ليس في مقدورها الافلات من صوت « الهاتف » .

وفي « شفيقة » ومتولي بشكل أخص ، يزور « الهاتف » شفيقة في قبرها ، بعد أن تموت — أو هي تنتحر — ويهتف بها أن تقوم ، لتواصل قدرها وتفي ما كتب عليها ، قائلا : « اللي عليك ما خلصش » . وكما هو معروف ، تقوم شفيقة من قبرها ، وتعود بعد قيامها من عالم الموتى الى معاودة الحياة المخططة المقدورة لها .

فالهاتف هنا هو اله كامل ، يحقق قيامة البغي ، ولا مرد لقضائه .

فكان يمكن للهاتف ، الامر بوأد البنات ، كما كان في مقدوره منع وتحريم وأدهن .

وفي احدى الحكايات التي صاحبت مولد كاهنة قريش الام « سوداء بنت زهرة بن كلاب » ، انه كان من عادة العرب وأد البنات اذا ما جاءت الى الوجود ناقصة التكوين ، كأن تكون كسيحة أو عوراء أو برصاء أو زرقاء ، ولما كانت تلك الكاهنة ، « سوداء » ، قد ولدت على بعض هذه الصفات ورآها أبوها كذلك ، أمر بوأدها، فأرسلها مع من جهز لها في الخلاء ، وهمّ بدفنها واهالة التراب عليها ، فسمع هاتفا يقول : « لا تئد الصبية ، وخلها البرية » فالتفت الحفار فلم ير شيئا ، فعاد ليدفنها فسمع الهاتف يسجع سجعا كهنوتيا ، يمنعه من وأدها ، فكان أن عاد بها الى أبيها ، وأخبره بما أشار به الهاتف ، فتركها حتى كبرت وأصبحت كاهنة قريش ، التي أنيط بها بعد ذلك رؤية البنات عقب ولادتهن ، وقول رأي أخير فيما يتصل بوأدهن أو العكس .

ويقال ان هذه الكاهنة ، هي التي منعت وأد آمنة بنت وهب .

كما يقال بأن سوداء بنت كلاب هذه ، كانت أول من ذكر « جهنم » في العرب .

وليكن واضحا ان مثل هذه الافكار الميثولوجية عن جهنم والسعير والفردوس أو جنة عدن ، باختصار كل ما يتصل بأفكار الموت والقيامة ، هي أفكار دخيلة ، جلبتها هذه الكاهنة العرّافة ، وغيرها من الشعراء الجاهليين ، مثل عمرو بن لحي ، وأمية بن أبي الصلت ، من الشام فيما بعد القرن الخامس الميلادي .

ويبدو ان مفهوم الساميين ــ والعالم القديم عامة ــ عن الحلم ، كان هو بعينه الهاتف ، ذلك الذي لا مردّ لامره ، فهو الذي كان يدفع بالملوك الى قتل الاطفال الذكور ، مثلما حدث مع نماردة بابل والشام وملوك الفرس وفراعنة مصر لقتل الاطفال ، بحسب روايات العرب والعبريين أصحاب الوبر .

ونسب العرب الرؤى أو الاحلام أو الهواتف ، لارواح خبيثة شيطانية ، وأخرى مصدرها الالهام الالهي ، وكثيرا ما يأخذ الالهام شكل متنبئات أو نساء قدريات ، مثل كاهنة سبأ طريفة ، وسوداء بنت كلاب التي مرّ ذكرها ، ومنهن أربع فتيات ، لهنّ هيئة الايرانيات في الميثولوجي الهليني ، ينشدن نبوءاتهنّ بطريقة شعرية كهنوتية ، ويعرفن في الميثولوجيا العربية ب « صواحبات مصاد بن مذعور القيني » .

وعرفت الميثولوجيا الفرعونية « الهاتف » بحسب الرواية التي أوردها هردوت « بشأن الهاتفين اللذين يوجد أحدهما عند اليونانيين ، والآخر في ليبيا » . وحكى هردوت عن هذين الهاتفين أو « الوحيين » حكايات تدور أحداثها حول مصر وليبيا وفينيقيا واليونان . وفي احدى هذه الخرافات يكون الهاتف على شكل كاهنة مقدسة ، وفي رواية أخرى يكون على شكل حمامة سوداء ، لها صوت آدمي . فيقول هردوت : « طارت حمامتان سوداوان من طيبة التي في مصر ، فذهبت احداهما الى ليبيا ، وجاءت الثانية الى اليونانيين . وعندما حطت هذه فوق سنديانة ، أعلنت

ــ في صوت آدمي ــ انه يجب انشاء هاتف لزيوس هناك ، وأدرك القوم ان هذا نبأ جاءهم من اله ، وتصديقا له ، أقاموا الهاتف . أما الحمامة التي توجهت الى ليبيا ، فتقول العرافات ، انها أمرت الليبيين باقامة وحي « آمون » .

ويبدو ان أماكن التزين بالحلى والاحتفاء عامة بالاشياء ، وهو ما يتبدى اكثر عند النساء والاطفال ، مثل العنق والاذن والانف والجبهة والصدر ، كانت أماكن لشعائر ورقى وأحجبة وتعاويذ ومنفرات ، اعتقادا فيما يكمن فيها من قوى سحرية خفية ، تجلب البخت والسعد ، وتطرد النحس والشؤم . فالساميون من العرب عبدوا الاشياء من تمائم وأحجار وشجر ونبات وجبال ووهاد ، اعتقادا فيما يكمن ويسكن هذه الاشياء المادية من قوى غيبية ، وعلى هذا علقوا الاجنحة اليمنى لطيور بعينها على صدور الاطفال ، واعتقدوا في رأس الهدهد وسنّ القطة والذئب والخنزير ، ذات الشكل الهلالي ، نسبة الى « الهلال » أو الالهة الام القمرية .

كما انهم أكثروا من استعمال هذه الطلاسم والرقى والمعوذات أو التعاويذ لدفع الاوبئة ، مثل الحمى ولدغ العقارب والحيات ، بالاضافة الى أغراضها الجنسية والعاطفية ، ومنها ما كان الفرض منه اتقاء الحسد و « النفاثات في العقد » ، وشرور العين ، و « النفس » الشريرة .

وهذه المعتقدات في مجملها ، أمكن التعرّف على منابتها الاولى منذ السومريين اللاساميين ــ الالف الرابعة ق.م. ــ ، منها الرقى والطلاسم والاحجبة ، والعين الحاسدة أو القاتلة ، والنفس أي النفس الخالق الذي وهب به الاله الانسان ، حين نفخ في حلقه فخرج من دبره وهو ــ نفسه ــ النفس القاتل المميت ، فيقال عن المصاب والمريض والمعلول ، انه « منفوس » ، كما قد يقولون « عائن » و « عيون » مثل عين الآلهة الاناث عند السومريين والبابليين « حين سلطت عليه نظرة الموت » ، التي أردت بها ابنها قتيلا ، وعين الام سارة ، الحاسدة ، التي كادت أن تقتل بها اسماعيل حين سلطتها عليه فأردته قتيلا ، حتى ان أمه هاجر ، وارته تحت الرمل ، وصلّت لاصنامها .

فالنفس الخالق ، هو نفسه النفس الميت .

وتنسب احدى أساطير القحطانيين ، وما أكثرها وأخصبها ، لكاهنة عريقة ، تدعى « طريفة » ، انها هي التي وهبت الكاهن المتنبىء الخرافي الذي لقبوه بسطيح ، ورووا عنه انه عاش ثلاثين قرنا ، النفس الخالق .

وهي أسطورة قحطانية عريقة ، تستوجب التأني ، تنسب أحداثها لهجرات حميرية مصيرية بالنسبة لمجرى وتاريخ أحداث الشرق الادنى ، ويؤرخ لها بما أعقب خراب سد مأرب .

فعندما وافت المنية الملك الكاهن عمران بن عامر ، دعا أخاه عمرو بن مزيقيا ، وأنبأه بخراب البلاد ، وبأهمية الزواج بالكاهنة طريفة . ومات عمران .

وعمرو سمي مزيقيا لانه كانت تنسج له في كل سنة ٣٦٠ حلة من الذهب الاحمر ، وكان يأذن للناس في الدخول ، فاذا أرادوا الخروج خلعت حلته ومزقت ، ولذلك سمي مزيقيا . ويقال انه أخذ سنته أو شعيرته هذه من ذي القرنين « يوم هتك عرشه ومزق حلته » . هذا ويبدو انها كانت بمثابة عيد أو شعيرة ، تتصل بالآلهة الزراعية الممزقة .

وترد بكثرة شديدة في ذلك التاريخ الاسطوري للملوك اليمنيين ، مرة في كيفية تمزيق الملك لثيابه على مرأى من قومه ، ومرة في طقوس هتك العرى للشعب أو الملك ــ أو التبع ــ لعرشه ، بطريقة موسمية محدودة .

والملفت ان هذه التقليدة ، ما تزال سارية في الحواديت والبلاد الشفاهية المصرية والعربية .

وتزوج عمرو بن مزيقيا الكاهنة طريفة « وكان عمرو أعظم ملك بمأرب ، وكان له تحت السد من الجنات ما لا يحاط به ، فكانت المرأة تمشي وعلى رأسها « مقطف » ، فلا تصل الى بيت جارتها الا وهي تملؤه من كل فاكهة ، من غير أن تمس منهاشيئا ؛ حتى انهم دعوا على أنفسهم « ربنا باعد بين أسفارنا » ، الى أن أرسل الله عليهم السيل ، فخرب السد ، وهو ما هتف به الهاتف أو « الآتي » وأخبر به طريفة في المنام ، حتى زارها وقال لها :

« ما تحبين يا طريفة ، علم تطيب به نفسك ، أو مولود تقر به عينك ؟ فقالت : بل علم تطيب به نفسي . فمر بيده على صدرها ، ومسح بظاهر كفه على بطنها ، فعقمت فكانت لا تلد ، واتسعت في العلم وأعطيت منه حظا عظيما » .

وكان زوجها عمرو بن مزيقيا ، يكنى بـ « ماء المزن» أو مأرب، أو « ماه رب » وهي كلمة أشورية بمعنى البلد والسهل والوادي ، كما ان « ماه » بالفارسية تعني القمر .

وكان ابن عمرو بن مزيقيا ، يدعى ثعلبة العنقاء ، وهو « جد الانصار من الاوس والخزرج » .

وأمرت هذه الكاهنة قومها من العرب الغساسنة ، بالنزول الى الشام ، فتملكوا عكاء ، بعد أن هادنوا ملكها « سملقة بن حباب العكي » ونزلوا غربي عكاء .

ورفض ثعلبة العنقاء قتالهم ، متمثلا قول سلفه يعرب بن قحطان : « ويل للمنزول عليه من النازل » .

الى أن تروى هذه الخرافة ، عن تدخل « جذع بن سنان » وهو من الجن ، فأوقع بين الغساسنة وأبناء أعمامهم أهل عكا ، الى أن قتلهم الغساسنة ونفوهم من الشام ، ثم أشارت عليهم الكاهنة ، بالمسير الى همدان ، فتملكوها ، وهكذا سارت بهم الى نجران ، تستحثهم على القتال وتخطب في المحاربين ، وترسم الخطط ، وكانت تسكنهم قبيلة قبيلة ، فملكت قبائل الازد عمان ، وملكت الاوس والخزرج « يثرب ذات النخل » أو المدينة ، وأنزلت همدان « نحو العراق بابل » ، وأنزلت علبة أو جفنة بن عامر بن غسان دمشق ، وأنزلت قبائل السراة بن غسان تهامة .

وكانت في كل مرة تقول هذه الكاهنة كلاما مسجوعا ، كأن تقول : « خذوا البعير الشدقم ، فانحروه وخضبوه بالدم ، حتى تأتوا أرض جرهم » . ثم حاربوا قبائل جرهم وبنو اسماعيل « فهزموهم حتى أدخلوهم مكة واستغاثوا بالحرم » .

وكانت مكة آخر مطاف تلك الهجرة القحطانية التي تزعمتهم هذه الالهة الكاهنة الام المدعوة « طريفة » ، مثلما تزعمت سارة الالهة الام لقبيلة ابراهيم ، القبائل العبرية الرعوية ، وضرتها هاجر

قبيلة الهاجريين والاسماعيليين ، وعبرتا الامازون الليبيات القبائل الليبية الخ ..

وقبل موتها تنبأت لخليفتها بعد ذلك بقرون ، الكاهن الجاهلي الخرافي « شق الذي يعلم ما حلّ وما دق » ، والذي تنبأت طريفة بمجيئه قبل أن يولد ، مقسمة بـ « الاسم والربا ، والعلم والابا ، والنور والضيا ، انه يولد في — قبائل — تميم ابن عم ، ليس له مفصل ولا عظم ، يخرج ممسوخا ، ثم تموت أمه لسبع ليال ، وينبىء — أي شق — بالزيادة والنقصان الى فراغ الحق والزمان ، وأقسم بالنور والفلق ، ما له رأس ولا عنق » .

وبعد أن ماتت أمه لسبع ليال ، أتوا به طريفة : « ففتحت فمه ، فنفثت فيه وقالت : لا تسقوه لبن امرأة الى بلوغه . ثم قالت : أنت خليفتي من بعدي » .

وينسب لطريفة هذه ، انها أول من سمت العروبة ، قبل موتها :

ان ابنة الخير لها أعجوبة   وميتة تقضي لها مكتوبة
تودي بها في ليلة العروبة

وماتت طريفة في « ليلة الجمعة في عقبة الجحفة ، فقبرها هناك مشهور » .

وروى العرب الجاهليون الخرافات تلو الخرافات حول ذلك الكائن الذي تنبأت به طريفة فقيل : « كان الشق بن انمار بن نزار هذا شق انسان ، له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة ، وكذلك كانوا يعتقدون — فيما يماثله — وهو سطيح ، بأنه ابن مازن بن غسان ، وكان يدرج كما يدرج الثوب ، ولا عظم فيه الا الجمجمة » وقالوا بأنهما « كانا شخصيتين بلا رأس ولا عنق ، وكانا من أشهر الكهنة الجاهليين ، وان كسرى استدعاهما ليفسرا له رؤياه ، كما انهم تصوروا شقا نصف آدمي ، ونسبوا اليه انه أول من تنبأ بوقوع غزو الحبشة لليمن ، وظهور الملك سيف بن ذي يزن الحميري » (١) .

(١) الاساطير الاسلامية ص ٧٠ . بلوغ الارب ٣ — ٣٨١ وما بعدها .

ويربط البعض بين شخصيتي شق وسطيح ، بحسب ما أورده الرواة ، وبين وجود القردة والنسانيس باليمن — القديمة — بكثرة شديدة ، منها ما ذكره الاصطخري : « وباليمن قرود كثيرة ، بلغني انها تكثر حتى لا تطاق بجمع عظيم ، واذا اجتمعت كان لها كبير تتبعه ، مثل اليعسوب للنحل ، وبها دابة تسمى العدار ، بلغني انها تطلب الانسان فتقع عليه ، فان أصابت منه ذلك ، تدور جوف الانسان فانشق . ويحكى عن الفيلان بها من الاعجوبة ما لا أستجيز حكايته » (١) .

وهذا ما دعا د. محمد عبد المعيد خان الى الربط بين تصورهم لشكل شق وسطيح ، وبين القردة ، وبقية أفكارهم عن السعلاة أو السلعوة ، المتواترة حتى الآن في المعتقد الخرافي المصري .

ويبدو ان ثمة علاقة بين القردة ، وبين معتقد العرب الجاهليين عن الدهر أو القدر ، الذي وحدوه بالخالق والقادر والماني الذي هو في آخر المطاف الله . فقالوا انه « في آخر الزمان ، تأتي المرأة فتجد زوجها قد مسخ قردا ، لانه لا يؤمن بالقدر » . كما يقال بأن الجاهليين ، كانوا يسجدون للقرد .

ورووا الكثير من الخرافات ، حول أناس خلطوا اللبن بالماء ، فمسخوا قردة ، ومنها حكاية عن رجل حمل معه خمرا في سفينة ليبيعه ومعه قرد ، وكان يغش الخمر بالماء مناصفة ، فسرق القرد صرة نقوده وصعد أعلى السفينة ، وراح يلقي بدينار في البحر ، ودينار في السفينة ، حتى قسمها نصفين .

ويبدو انهم اعتقدوا في ان القردة والخنازير ما هم الا أناس بشريون ، فلقد تواترت خرافات كثيرة عن ان الجاهليين كانوا يرجمون القردة الزناة . وروي عن الازدي قال : « رأيت في الجاهلية قردة زنت اجتمع عليها قردة فرجموها ، ورجمتها معهم » .

وقالوا : « ان الله لم يهلك قوما أو يعذب قوما ، فيجعل لهم نسلا ، وان القردة والخنازير كانوا قبل ذلك » . وربطوا في

(١) حياة الحيوان للدميري ، ج ٢ ، ص ١٨٠ ، ص ١٨٣ .

خرافاتهم المتعددة بين سكنى الجن والشياطين والسعالى ، لديار وخرائب القبائل العربية المندثرة ، عاد وثمود وطسم وجديس والعماليق وغيرهم ، ومسخ هذه الاقوام الى قردة . وفي خرافة تروي بعض الاقوام الاسرائيلية بهذا المعنى عن : « القرية التي كانت حاضرة البحر » ، وهي قرية سماها ابن عباس ب « أيلة » ، كانت تطلّ على البحر ويسكنها أناس من اليهود ، حرّم الله عليهم صيد الحيتان يوم السبت ، فكانت الحيتان تأتيهم في يوم سبتهم بيضا سمانا ، وفي غير يوم السبت لا تأتيهم الا بمشقة ، وحدث أن اصطاد أحدهم حوتا يوم السبت ، وشواه ، فوجد جيرانه رائحة الشواء تملأ القرية ، وأحلّ نصف القرية أكل لحم الحوت ، ورفض نصفها الآخر ، وأقسموا : « والله ما نساكنكم في مكان أنتم فيه » وخرجوا من السور ، وصرخ : قردة والله ولها أذناب تتعاوى ، ثم نزل ففتح الباب . وتدافعت الناس عليهم ، فعرفت القردة أنسابها من الانس ، ولم تعرف الانس أنسابها من القردة ، فكان يأتي القرد الى نسيبه وقريبه ويختلي به ، فيسأله الانسي : أنت فلان ، فيشير برأسه أي نعم ، ويبكي » .

وفي قول آخر : « فقدت – أو مسخت – أمة من بني اسرائيل ، لا أدري ما فعلت ، ولا أراها الا الفأر ، ألا ترونها ، اذا وضع لها ألبان الابل لم تشربها ، واذا وضع لها ألبان غيرها شربتها » .

ولم تتوقف حدود مسخ الامم والاقوام – المفتقدة – عند التحول الى القردة أو الجان أو الخنازير ، اذ يقال بأن أحد الخلفاء رفض أن يأكل ضبا ، والضب محلل أكله ، وقال : « لا أدري لعله من القرون التي مسخت » (1) .

ولعل موجز هذا الفصل ، ان أفكار القدرية والدهرية ، التي كانت تغرق ماضي بلداننا العربية منذ منبت الانسان المستهدف للعقل على أرض هذا الجزء من العالم ، هي بذاتها ما لا تزال تحكم مخيلة شعوبنا ، وتكبل ارادتنا ، وبالتالي تشلّ طاقاتنا الخلاقة . أليس كذلك ؟

---

(1) **الدميري ، ج ٢ ص ١٨٢ .**

الفصل السابع

خرافات الجن والشياطين والعفاريت والرياح

وقد ترجع أغلب معتقداتنا وتصوراتنا التي ما تزال تتواتر في مجتمعاتنا المعاصرة ، عن الجن ومواطنهم ومصاهرتهم للانس وقبائلهم ، وكذلك الغيلان والسعالى – أو السلعوة – والعفاريت والرياح والندّاهات والنفرات وسكان ما تحت الارض .. الخ ، ترجع بكاملها منحدرة من المتعربة البائدين – الالف الرابعة قبل **الميلاد – وبشكل أخص** سكان الجنوب (اليمن) القحطانيين ، نظرا لتيسر اتصالاتهم المبكرة بالفرس المجوس في ايران ، والتي يرجعها البعض الى الالف الثالثة ق.م. ، حين أخضع الملوك القحطانيون الفرس ، ومنهم ملوكها مثل الضحاك بن مرداس ، وذو الاذعار .

فلقد لعب موقع اليمن وقربها من البحر الاحمر جغرافيا على خط الاتصال بالهند وفارس الآريون ، دوره في جلب هذه الافكار والمعتقدات الخرافية ، عن الجان ، ثم تسريبها فيما بعد الى بقية شعوب العالم العربي ، ومنه عبرت الى أوروبا .

ويدافع « نولدكه » أحرّ الدفاع عن ان معرفة العرب بالجن ، جاءتهم من جيرانهم الشماليين ، وانها دخلت فلسطين من الايرانيين ،

وليس هذا برأي جديد ، فقد اعتبر عالما الفولكلور الالمانيان الاخوان جريم :

« ان حكاية الجان على رقعة العالم أجمع انتاج آري كامل » (١) ،

بل ان فكرة تحول العشيق الى حيوان عقب المضاجعة أو الزواج الشائعة اليوم في فولكلور كل العالم ما هي الا فكرة «عشتروتية» بمعنى انها كانت في منبتها الام جزئية أسطورية سومرية لاسامية، كما انها متصلة بفكرة الالهة الانثى القمرية ، والتضحية بالملك الاب الذكر ، وهي أصبحت فيما بعد حكاية جان ، واسعة الانتشار ، خاصة عند الساميين .

فيقال « ان بيذخ ابنة ابليس كان لها عرش على الماء ، وان المريد لها ، متى فعل معها ما تريد ، سحرته » .

وبشكل موجز ، فلقد كان للعرب — سكان الوبر — دور لا نهاية له في ترويج خرافات الجان هذه ، على اعتبار انها خرافات آرية هندوكية ، حملوها مع فتوحاتهم الى مصر وشرق افريقيا والاندلس ، وأوروبا عامة ، وهي النظرية التي تبناها المستشرق تيودور بنفي .

وفي تقديري ان ما كان ينسبه الساميون الاوائل عامة لآلهتهم ، عادوا فأورثوه الجن ، وبمعنى أدق فان أساطير انحدار الملك — البشري — الابن من صلب اله ، والتي تتبدى بشكل أخص في أساطير الملكات الساميات — التاريخيات — التي تجمع أساطيرهن على انحدارهن من رحم أمهات سماويات « اتصلن برجال بشريين ذكور ، فجئن الى الوجود مثلما حدث مع الملكة البابلية سميراميس التي تنسب لها أساطيرها ان أمها معبودة سماوية ارادت أن تستر زلتها ، فتركتها في الخلاء . وأما جانب تطابقها مع عشترت فيرجع الى قتلها عشاقها عقب الجماع، وكذلك سميرام السورية ، وميرنا أو شميرنا ، ملكة الامازون الليبيات ، التي

(١) علم الفولكلور — هجرتي كراب — ترجمة وشرح وتعليق رشدي صالح ، ص ٣٢ .

ينسب لها المؤرخ ديودوس الصقلي ، انها « عندما مرت بمصر ، صادقت حور — حورس — ابن ايزيس الذي كان ملكا متوجا بها » .

أما عن مراحل استبدال الامهات السماويات بأنثيات من الجن ، فيبدو واضحا في نسب بلقيس ملكة سبأ ، وامها الجنية المشهورة « رواحة بنت مسكن » ، وهو اسم ما يزال يتواتر على الشفاه في خرافات الجن المصرية . ومنها جنية جبل ضهر باليمن ، والجنية التي انحدر من رحمها الملك الحميري الصعب « ذو القرنين » ، والصعب بن ذي مرائد الحميري .

بل ان العرب نسبوا لسابقيهم من القبائل العربية البائدة ، انحدارهم من أمهات جنيات مثل قبائل جرهم ، التي قيل انها جاءت الى الوجود من نتاج ما بين الملائكة وبنات آدم . وكذلك قبائل جديس وثمود والعماليق أو العمالقة في الشام وفلسطين ، وهو تصور ليس ببعيد طبعا عن تصور العبريين ، من ان الملائكة هم أبناء الله « بني أيلوهم » ، أو عن عبادة العرب للجن ، وتحريمهم لاماكن شاسعة بكاملها ، لا يقربونها ، و « الحجر » اعتقادا منهم في ان هذه الاماكن كانت موطن الاسلاف من الجن مثل وادي « برهوت » و « يبرين » و « صيهد » ديارا لقبائل عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم والعماليق ، وغيرهم من القبائل المندثرة.

ومن هنا جاءت فكرة اعتبار القبور والاماكن المهجورة والخرابات بعامة ، مواطن للجن والعفاريت .. وان تحية العربي القديم لساكني المقابر من الجن والعفاريت ، والتي كانت اتقاء لشرورهم هي « عموا ظلاما » ، وهي ما أصبحت اليوم « مسيكم بالخير » ومرادفاتها المختلفة ، ومنها اجابة الجني أو الغول على البطل الانسي : « لولا سلامك غلب كلامك ، لكنت كلتك ورميت عضامك » وهكذا ..

وقد لا يقبل المرء بسهولة ادعاءات المستشرقين وعلماء الآرية مثل « نولدكة » و « بنفي » تصورهما للشرق الادنى القديم ، كمجرد معبر حضاري ثقافي ، اتخذه التراث الفولكلوري الآري — الهندو ايراني ، الى أوروبا والعالم الجديد ، ذلك ان الكشوف

السومرية العراقية الاكثر قدما من الآرية – بداية الالف الرابعة ق.م. – جاءت فأجلت الكثير من الغموض ، من ذلك مثلا ما جاء عن العفريتة الشيطانة « ميليث » التي تسكن الخرائب والاماكن المهجورة ، وهي الفكرة المتواترة اليوم ، عن سكنى العفاريت الخرائب ، وهو ما كشفه وأوضحه نص القصيد السومري المعنون « جلجاميش وانكيدو والعالم الآخر » ، أو « جلجاميش وشجرة الصفصافة » .

وتبدأ هذه القصيدة هكذا : « في قديم الزمان ، كانت شجرة الصفصافة مغروسة على شاطىء الفرات ، وحدث أن هبت عليها العواصف الجنوبية ، وفاضت عليها مياه الفرات ، فأخذتها الالهة « أنانا » الى مدينتها « أرك » أو – الوركاء – ، وغرستها في بستانها المقدس ، حتى اذا كبرت الشجرة صنعت من خشبها سريرا أو كرسيا ، وعندما حاولت « أنانا » قطعها لتصنع من خشبها سريرا وكرسيا أعجزتها حية شيطانية « ليليث » اتخذت منها مسكنها ، الى أن جاء البطل الالهي جلجامش فقطع الشجرة ، وذبح الحية ، وفرّت الشيطانة « ليليث » الى الاماكن الخربة المهجورة » .

وبالقطع هذه أول فكرة تاريخية أو حفرية ، عن سكنى العفاريت الخرائب .

ومع انتقال تراث السومريين الى خلفائهم وورثتهم البابليين، الذين عرفوا بالاكاديين نسبة الى اكدو عاصمتهم ، انتقلت فكرة الشيطانة « ليليث » اليهم ، وليليث كلمة بابلية أشورية ، ومعناها أنثى العفريت أو الريح ، كما انها ذكرت مرة أخرى في احدى القصائد الجلجاميشية البابلية – حوالي ٢٠٠٠ ق.م. – وتحول هذا اللفظ بعد ذلك من « ليليث » الى « ليل » .. وهي ما أصبحت تظهر ليلا ، وعرفت بالجنية ليل ، تسكن الاماكن الخربة وموارد المياه ، وتظهر كخارقة ليلية يغطي الشعر كل جسدها العاري ، في الفولكلور السامي المعاش اليوم بعامة .

ويبدو ان الليليث أو ليلى أو ليل السومرية هذه – ٤ آلاف

عام ق.م. – هي نفسها التي أصبحت تصادفنا في الشعر والاغاني الشعبية – يا ليل يا عين – كما ان الليليث أو ليلى ، **توجد بكثرة** هائلة في الاغاني الدينية الشعبية ، **المعروفة بأغاني التخمير** ، والزار .

ويبدو ان العبريين كانوا قد أخذوها عن الكنعانيين الذين سبقوهم في استيطان فلسطين . فليليث في اللغة الكنعانية أو الفينيقية معناها اناثا أو اناث – ومفردها أنثى – وهي ما تتوحد مع عشترت ، خاصة في طقوس العرس المختلط .

ولقد اعتقد الملك سليمان في ان بلقيس ملكة سبأ ، ما هي الا ليليث أي عفريتة ، نظرا لان جسدها كان مغطى بالشعر : « فلما نظر سليمان الى شعر ساقيها ، ورأى جسمها أحسن جسم ، صرف وجهه عن ساقيها للشعر » (١) . وكان أن وضع لها سليمان بعد ذلك بمعونة جنوده وأعوانه من الجن « الخلطة » التي تزيل الشعر ، وهي ما عرفه النساء بعد ذلك حين ينزعن ، أو ينتفن شعرهن بالحلوى .

أما عن فكرة توحد حواء بالحية التي تتوحد بدورها بالشيطان ، فتتبدى بكثرة في أغلب أساطير الخلق السامية . وتذكر هذه الاساطير ان الحية اذ ذاك لم تكن على شكلها الآن ، بمعنى ان مسخا قد حدث لها ، عقب توحدها بالشيطان ابليس ، حين وسوس لحواء – من فم الحية – الاكل من الشجرة الممنوعة أو المحرمة ، ويقال انها الحنطة : « ووعدهما ان أكلا منها أن يخلدا ولا يموتا » (٢) .

ففي أغلب الاساطير والشفاهيات العربية خاصة ، يغوي الشيطان المرأة زوجة الاله أو البطل ، مثلما حدث مع زوجة نوح ، حين مكنته من تخريب الفلك ثلاث مرات ، وكذلك فقد تسلل الشيطان الى الفلك خلال الطوفان عن طريق زوجة نوح ، عقب زواجه منها .

---

(١) **التيجان – وهب بن منبه** ١٦٢ .

(٢) **بداية القدماء** ، ص ١١ .

ووردت هذه الفكرة أيضا في الاسطورة الفلاشية عن تسلل الشيطان الى جوف الحوت الخالق ، مواصلا نشر كوارثه .

وتكشف النصوص المدونة والشفاهية لاسطورة الطوفان استعانة الشيطان بزوجة نوح ، للايقاع بنوح ، وتحطيم فلكه ، وفي أحد النصوص الايرلندية التي جمعها الاستاذ « جيمس ديللارجي » مدير عام الجمعية الايرلندية للفولكلور عام ١٩٥١ يقول هذا النص : « ان بناء فلك نوح استغرق ٨١ عاما ، اذ ان الشيطان كان يدمره مرة كل سبع سنوات ، مستعينا بالزوجة » .

وفي أحد النصوص الشرقية التي جمعها ابيفانيس اليوناني : « ان برها زوجة نوح أشعلت الفلك نارا عندما دخلتها » .

وفي عديد من النصوص يأخذ نوح مكان آدم ويتطابق معه ، ويروح ابليس يغري الزوجة ، ويدفعها الى أن تدفع نوح بدورها للاكل من الشجرة المحرمة ، مما يدفع الله لان يسلط عليهم الطوفان كعقاب .

وتتوالى جزئية أو فكرة غواية الشيطان للزوجة بشكل متوال في أغلب الاساطير السامية ، فالشيطان هو الذي وسوس لامرأة لوط ، حين هجر لوط قومه وفرّ مهاجرا ومعه أهل بيته ، فأرسل العذاب على مدينة « سادوم وقراها الخمس » « عمره وادماء وصبويم وبالع » حين سمعت المرأة أصوات خراب المدينة فصرخت: واقوماه « وكان أن تحولت الى عمود ملح » (١) .

وفي أحد النصوص التي تتعرض لغواية الشيطان لرحمة ، امرأة أيوب ، يقول النص انه كان لـ « أيوب بن رازح بن العيص ابن اسحاق بن ابراهيم الخليل ، زوجة اسمها رحمة ، وكان ايوب صاحب أموال عظيمة ، وكان له ملك البثنية جميعها من أعمال دمشق ، فابتلاه الله بأن أذهب أمواله حتى صار فقيرا ، وهو مع ذلك صابر على عبادته وشكره ، ثم ابتلاه الله في جسده ، حتى تجذم ودوّد ، فبقي مرميا على مزبلة لا يطيق أحد أن يشم رائحته،

(١) بداية القدماء ، ص ٢٠ .

فكانت زوجته تخدمه وهي صابرة على حاله ، فتراءى لها ابليس وأراها ما ذهب لهم . وقال لها : أسجدي لي لارد مالكم اليكم ، فاستأذنت أيوب ، فغضب وحلف ليضربها مائة ، ثم ان الله تعالى عافى أيوب ورزقه وردّ الى امرأته شبابها وحسنها ، وولدت لايوب ستة وعشرين ذكرا ، ولما عوفي أيوب ، أمره الله بأن يأخذ عرجونا من النخل فيه مائة شمراخ ، فيضرب به زوجته ، ليبر في يمينه » .

وما يمكن ملاحظته في ذلك النص ، هو ان ابليس أرى الزوجة « رحمة » ما ذهب لهم ، بمعنى انه هو الذي كان قد سلب عنهم أموالهم وعزهم .

وأصاب أيوب بالداء ، وفي مقدوره رد ما أخذ ، لو ان المرأة سجدت له .

فالعلاقة بين المرأة والشيطان تتواتر بكثرة شديدة ، خاصة في نصوص وأساطير الخلق الاولى عند عديد من ملل ونحل الشعوب والقبائل السامية العربية .

وما يهمنا هنا هو هذه الفكرة السومرية ، وهي فكرة توحد الشيطانة ليليث بالحية . وليليث هي ما عرفت عند السامريين بحواء الاولى ، والتي عادت بدورها فتوحدت بالحية ، خاصة عند القبائل العبرية . ففي التوراة ان أصل الانسان من الحية ، والحية من الجن . وترددت هذه التضمينة في عديد من أسفار الخلق والبدء عند أغلب ملل ونحل الشرق الادنى .

فعندما قرر الله أن يهب آدم أنيسا ، طلب منه أن يسمي كل حيوان بهيم وطائر وكل مخلوق حي ، فكانت الحيوانات تمرّ به — ذكر وأنثى — فسماهم آدم واختبر نفسه مع كل أنثى منهم ، وعندما عجز صرخ باكيا : لكل مخلوق قرينة الاي . فكان أن خلق الله له الليليث أو حواء الاولى . ويقال ان الله استعمل في خلقها القاذورات والرواسب الطفيلية بدلا من مياه العمق ، أو الطين اللازب أو الصلصال الذي خلق منه آدم .

ويلاحظ طبعا ان هذا التراث الابوي القبلي ، يحط من قدر المراة حتى في مادة خلقها .

وباتحاد آدم مع هذه الشيطانة ومع أخرى على شاكلتها تدعى « نعمة أو نعامة » ، ونعمة هي أخت قابيل القاتل وقرينته ، وينسب لها نشر ما لا يعد ولا يحصى من الشياطين والجن التي هي آفة ووباء الجنس البشري ، ومنها الجنون ، المشتق لفظيا من الجن .

وقد تعثر عند الجاحظ (١) على تفسير لتوضيح تلك العلاقة اللغوية الاشتقاقية بين الاسم « نعمة » أو الجنية نعمة ، التي تشارك الليليث في خنق الاطفال الحديثي الولادة ، والاضرار بهم ، وبين طائر النعامة . فمن أمثال العرب وقولهم : « أشرد من نعامة » .. ذلك لتخلي النعامة عن بيضها وأولادها ، عند رؤيتها الطعام .. ومن أمثالهم : « أحمق من نعامة – وأجن من نعامة » ، و « مثل النعامة لا طير ولا جمل » و « من يركب نعامة في الحلم نكح خصيا » .. الخ . كما ان اسم نعمة كان من أسماء أو القاب الهة الجنس عشترت .

وتنسب الاساطير لهاتين الانثيين أو الجنيتين ليليث ونعمة ، انهما هما اللتان جاءتا الى كرسي عدالة الملك سليمان ، متنكرتين في هيئة زانيات أورشليم .

فاذا ما كانت الحية قد توحدت صراحة بالشيطان حين تسلل ابليس الى الجنة داخل الحية ، والحية هي التي أغرت حواء بالاكل من شجرة المعرفة أو الشجرة المحرمة أو شجرة التين فكان أن استجاب آدم باغراء من حواء .

وعلى هذا فان الثلاثة : الحية والشيطان والمراة ، ما هم الا وجها واحدا لنفس البطل .

وتتركز الاسطورة التي أوردها الطبري في ان « ابليس عرض

(١) كتاب الحيوان للجاحظ ، ج ١ – ١٨٧ .
الدميري ، ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ .

نفسه على دواب الارض في أن تحمله لكي تدخله الجنة ، بعد أن منعه رب الجنة من دخولها ، فكل الدواب رفضت ذلك ، حتى كلم الحية فقال لها : ان أنت أدخلتني الجنة ، أحميك من ابن آدم، وتصبحين في ذمتي . وكانت الحية دابة لها أربع قوائم كأنها البعير ، فجعلته بين نابين من أنيابها ، ثم دخلت به ، فكلم ابليس حواء فكانت الخطيئة الاولى ، وعقابها المعروف وهو الطرد من الفردوس ، وادماء حواء الشهري المتمثل في الحيض ، وذلك العداء الرباعي الابدي بين الرجل والمرأة والحية والشيطان : اهبطوا بعضكم لبعض عدو » (١) .

ويقال ان ابليس (٢) دعا الله قائلا : « يا رب أخرجتني من الجنة من أجل آدم ، زدني . قال الله : لا يولد له ولد الا ولد لك مثله . قال : زدني . قال : صدورهم مساكن لك ، وتجري منهم مجرى الدم . قال : زدني . قال : اجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم في الاموال والاولاد » .

وترى بعض أساطير الخلق – العبرية – ان أول صراع نشب بين آدم وحواء ، جاء بسبب استياء حواء من وضع المضاجعة « لما حتم على الاضطجاع الى جانبك » . وعندما حاول آدم ارغامها ، نطقت باسم الله الخفي أو التابو – وكانت على معرفة به – وانفلتت طائرة في الهواء ، فأقامت الى جوار البحر الاحمر ، في اقليم تتكاثر فيه الشهوات الشيطانية ، وهناك أنجبت آلاف الابناء من الشياطين .

وعندما شكا آدم حواء أو ليليث الى الله : لقد هجرتني زوجتي ، لحمي « وأرسل الله الملائكة في طلبها والبحث عنها ، وعندما هددها الملائكة بالموت ، قالت لهم : كيف لي أن أموت وقد وكلني الله برعاية الاطفال المولودين ، الذكور منهم حتى يومهم الثامن ، والاناث حتى العشرين » .

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبري ، ص ١٠٦ – ج ١ .
(٢) الكامل في التاريخ لابن الاثير ، ج ١ ص ١٨٢ .

وبينما راحت الليليث وأختها نعمة تخطف الاطفال المولودين وتخنقهم ، عاقبهما الله بقتل مائة من أطفالهما يومياً .

الا ان الجنيتين راحتا تخنقان الاطفـــال وتغويان الرجال النائمين ــ الفرادى ــ وتضاجعانهم ، وبعد ذلك يقتـــلانهم بمص دمائهم ونهش أجسادهـــم . ولعل في هـــذا أول تصور عـــن الندّاهات (١) ، وترجع بذوره الاولى الى الالف الثانية ق.م. عند الكنعانيين الشوام .

ومن أساطير الخلق الاولى ، اكتملت المعتقدات التي ما تزال شائعة ، حول اضرار العفاريت والارواح الخفية بالاطفال الحديثي الولادة ، فكان من المتبع رسم دائرة سوداء عـــلى حائط حجرة العرس ، يكتب داخلها : « آدم وحواء ، اغربي يا ليليث » . أما عندما تتمكن الليليث من الاقتراب من الطفل الوليد ، وتشغف به حبا ، فلا بد من أن يضحك الطفل في نومـــه . ولتجنب الخطر ، ينبه الطفل بوضع أصبعه بين شفتيه ، حينئذ تختفي العفريتة ، وهو ما شاع كثيرا في تماثيل وتمائم الاله الطفل في كلا التراثين الهليني والروماني ، ووجد من آثاره ملايين التمائم .

كما انهم اعتقدوا في ان الطهور هو الحماية الحقيقية للطفل من العفاريت .

وكان من المعتقد « ان العفاريت تسكن الصحـــراء الادومية بسوريا ، مخلفة الرعب والبجـــع والبوم والغربان وأبنـــاء آوى والحيات والحداءات، والنعام الذي اشتقّ اسمه من اسم نعمة » .

وكانت ملل ونحل الكلدانيين الحرانيين فيما بين النهريـــن ، وكذلك المانوية والديصانية ــ نسبة الـــى ابن ماني وبن ديصان ــ وما تفرع من هذه الملل من فرق ، مثل المهرية والمقلاصية وغيرهما ، يرسمون دوائر ثلاث فوق رأس الطفل حديث المولد ، يكتبون على

(١) برغم الفكرة أو المقولة العصرية التي عالج بها د. يوسف ادريس قصته الرائعة « النداهة » ، الا انه كان مدركا لبعدها الخرافي الاسطوري .

الاولى اسم ملك الجان ، وعلى الثانية اسم الانسان القديم ، وعلى الثالثة اسم روح الحياة (١) .

وقد ارتبطت هذه الشعائر عند تلك الملل الكثيرة المتلاطمة ، بأساطيرهم وأفكارهم الاولى عن الخلق ، والصراع بين آدم وبين الشيطان ، أو الصنديد الذي « علم حواء » رطانة السحر ، لتسحر آدم وتسلبه أطفاله ، فكان آدم يتضرع الى الله : ما ذنب المولود ؟

ومعتقد الخوف على حياة الاطفال حديثي الولادة ، وأمهاتهم النفساوات ، منتشرة بكثرة في فولكلور شعـــوب العالم القديم ، وكان العبريون اليهود والرومان والجرمان ، يعتقدون في مقدرة « روح الحديد » على طرد هذه الارواح الشريرة ، فيذكر المؤرخ « بيليني » ان الرومان اعتقدوا في قـــدرة الحديد على طـــرد الشياطين ، كما ذكر الاخوان جريم : « ان الجرمان كانوا مؤمنين بالدم والحديد في طرد الارواح الشريرة » .

وفي القرن الرابع عشر الميلادي ، وحد « هيرونيموس » بين الليليث السامية واللاميا اليونانية ، واللاميا أميرة ليبية هجرهـــا الاله زيوس بعد أن سرقت أطفال زوجته هيرا ، فكان أن واصلت انتقاماتها بسرقـــة أزواج الآخرين من زوجاتهم . واللاميا تغوي الرجال ــ الفرادى ــ فتمتص دماءهم وتلتهم لحمهم ــ وهي مـــا أصبحت في تراثنا الفولكلوري النداهة والسلعوة ــ . وفي الرسوم الحائطية الهلينية صورت اللاميا وهي تفترس أحد المسافرين وهو مضطجع على ظهره .. مثلها في هذا مثل سابقتها الرسوم الحائطية الكنعانية ، التي ترجع الى ما قبل القرن الرابع عشر ق.م والتي تصور الالهة العارية اناثا ــ اي الانثى أو الليليث ــ طـــائرة في الهواء ، لامسة مقبلة عشيقها النائم الاله « موت » ، وفي صورة أخرى يبدو « موت » ــ أو آدم الكنعاني ــ يحفـــر تحت الضلع الخامس ، بما يشير الى خلق حواء من ضلع الرجل (٢) .

(١) مئات الملل والنحل ، أوردها بدقة العالم الموسوعي الكبير ابن النديم ، في موسوعته الرائدة « الفهرست » ، ص ٣٤٠ .

2 — Syrian stone-Lore. p. 83 .

فخلق حواء من ضلع الرجل ، أسطـــورة مستقرة منتشرة **بكثرة على طول الشرق الاوسط ، تؤكد سيادة الرجل الذكر ، منكرة** قدسية حواء ، منقصة من مساواتها بالرجل ، موحدة بين المرأة والحية والشيطان والجنية .

* * *

وكان الكلدانيون فلاسفة وكهنة حران يقولون بأن للجن الها ، يضحون له بنحر الخرفان ، ويطبخون مــاء يستحمون به سرا لرئيس الجن ، وهو الاله الاعظم ، كما كان من عاداتهم التضحيـة بصبي طفل حين يولد . يذبح الصبي ، ثم يلصق حتى يهتـرىء ، ويؤخذ لحمه فيعجن بدقيق السميد وزعفران وسنبل وقرنفـل وزيت ، ويعمل منه أقراص صفار مثل التين ، يخبز في تنـور جـديد ، ويكون لاهل السر في الشمال ، ولا تأكل منه امرأة ولا ابن امه ولا مجنون .

وكان من منفراتهم (١) ، أي اتيانهم الامور المنفرة للجـن ــ وتعرف بالمنفرات عند الساميين بعامة ــ انهم يعلقون الجناح الايسر للفراخ على صدور الاطفال والحوامل ، لاتقاء الليليث والجن .

كما كان من بين هذه المنفرات ــ التي ما تزال تتـواتر حولنا ــ عند بقايا هذه الاقوام المنحدرة من العرب الجاهليين ــ استعمال عظام الموتى أو خرق الحيض (٢) ، أو اعتقادهم في سن الثعالب، وحلق الرأس بالموسى ، وتغيير الاسماء . فيذكر عن اعرابي انـه قال : « لما ولدت قيل لابي نفرعنـه ، فسماني قنفذا وكنـاني أبا العداء » (٣) .

وعن ابن عباس قال : « كانت حواء تلد لآدم فتعبدهم ، أي تسميهم عبد الله وعبد الرحمن ، ونحو ذلك ، فيصيبهم الموت . فأتاها ابليس فقال لها : لو سميتما لغير هذه الاسماء ، لعـاش

1 — Religion of the Semites-Cook .

(٢) الفهرست : ص ٣٢٣ . بلوغ الارب : ٢ ــ ٣٢٥ . تاج العروس : ٣ ــ ٥٧٩ .

(٣) بلوغ الارب : ٢ ــ ٣١٩ وما بعدها . اللسان : ٨ ــ ٨٥ . تاج العروس : ٣ ــ ٥٧٩ .

ولدكما . فولدت حواء ولدا فسمتـــه عبد الحرث ، وهو اسم ابليس » .

ويورد ابن النديم ، ان مصر وبابل أكثرت مـن هذه المنفرات قائلا : « فأما السحرة فزعمت انها تستعبد الشياطين والجـن بالسحر والقرابين وارتكاب المعاصي والمحظورات واستمالتها بترك الصلاة والصوم ، واباحات الدماء ، ونـكاح ذوات المحرم ، وغير ذلك من الافعال الشريرة ، وهذا الشأن شائع ببلاد مصر وبابل » .

وأضاف : « وقال لي من رأى السحرة بأرض مصر ، وبهـا بقايا ساحرين وساحرات ، وزعم الجميع من المعزمين والسحرة ان لهم خواتيم وعزائم ورقى وصنادل وغير ذلك » .

وكانت خرافات الغيلان منتشرة بكثرة شديدة في الجزيرة العربية ، وينسب لكائن خرافي يسمى « تأبط شرا » انه قتل غولة بضربة واحدة من سيفه فقتلها ، وان الغولة عندما ضربها أول ضربة، طلبت منه أن يضربها ثانية ، لكنه رفض . وهي تلك التضمينـة الاسطورية المعروفة في خرافات الجان ، والتي مؤداها ان « ضربة الرجال ما تتناش » .

وممن تزوج بالجـــن من العرب عمر بن يربوع بن حنظـلة التميمي ، وجذع بن سنان ، وعمرو ذي الاذعار بن أبرهة ذي المنار وأمه الجنية العيوف ابنة الرائع .

بل ان قبائل بأسرها انتسبت الى الجن (١) مثل بني مالك ، وبني شيصبان ، وبني يربوع ، الذين تسموا ببني السعلاة ــ أي السلعوة ــ كما ترجع أساطير الخلق والبدء الحبشية نسبها بكامله الى الحية والحية تتوحد مع الجن .

كما ان قبـــائل بكاملها عبدت الجن ، مثل رهط طلحـة الطالحات من خزاعة ، ولقد اعتقدوا في ان للجن عشائر وقبائل ، تربط بينها صلة الرحم كما هو حادث عند بني الانس القدماء .

(١) الاصنام ــ ص ٣٤ .

ولقد كتبت مؤلفات بكاملها في هذا المعنى ، نسبة لابن هلال، وابن الامام ، وابو خالد الخراساني ، وابن أبي رصاصة ، ولوهق بن عرفج ، وله مؤلفات عن طبائع الجن ومواليـــدهم ، و « آريوس الرومي » وكان من علماء الروم بالعزائم ، وله من الكتب كتـــاب يذكر فيه أولاد ابليس وتفرقهم في البلاد ، وما يختص به كـــل جنس منهـــم في العلل والارواح ، كما ان منهم ابن وحشيـــة الكلداني وكتبه عن السحر والجن على مذاهب الانباط والكلدانيين والحرانيين وغيرهم .

ويرى ابن الكلبي ان ابليس (١) أنجب خمسة ، منهم ثلاثـــة قبائل أو أسباط ، تنزع الـــى الشر : « الثبر » و « زلفيون » و « دامس » ، فالثبر هو صاحب المصائب والكوارث ، وزلفيـــون هو المنوط بالاندساس بين الناس والايقـــاع بهم ، أما أدامس أو الاعور ، فهو صاحب الـــزنا وهتك الاعراض والاباحات ، كما ان منهم « مسوط » وسمي صاحب الراية ، ينصبها وسط الاسواق، ويروح ينشر بين الناس الخصومات والجدال والمنازعات .

كذلك فلا نهاية لمن عشق الجن من الانس ، وخاواهـــا في العلن والخفاء .

كما ان حروبا طويلة دامية ، وقعت بين قبائل الجن وقبائل الانس من العرب ، منها حروب بني سهم ، الذين كانوا قد قتلوا ابن امرأة من الجن ، عقب حجه وطوافه بالبيت ، فوقعت الوقيعة بين قبيلة الجني المتوفي وبني سهم ، وقتل الجن من بني سهـــم خلقا كثيرين ، وكان أن نهضت بني سهم وحلفاؤها ومواليهـــا وعبيدها ، وركبوا رؤوس الجبال وشعابها ، فما تركوا حيـــة ولا عقربا ولا عضاضة ولا خنفساء ولا هامة تدب عـــلى الارض ، الا قتلوها ، حتى ضجت الجن ، فصاح صائحهم يطلب وساطة قريش بينهم وبين بني سهم ، فتوسطت قريش وانتهى النزاع بيـــن بني سهم والجن (٢) .

---

(١) الملل والنحل ــ للشهرستاني .
(٢) الازرقي : ٢ ــ ١١ وما بعدها . المحبر : ص ٣٩٥ .

وكان كلما أوقعت الجن ببشري بعد ذلك ، خاطبهـــا قائلا : « يا معشر الجن ، أنا رجل من بني سهل ، وبيننا وبينكم عهـــد وميثاق » . فتعرفه الجن وتهابه .

وكانت نحل وشيع الحابطين ، أصحـــاب أحمد بن حابط بنواحي البصرة ، وأحمد بن نانوس ، وأيوب بن نانوس ــ الـــذي أباح النكاح ــ كانت هذه الفرق والشيع تقول بأن « الله نبأ أنبياءه من كل نوع من أنواع الحيوان ، حتى البق والبراغيث والقمـــل ، مستندين الى قول الله ، وما من دابة في الارض ولا طائر يطيـــر بجناحيه الا أمم أمثالكم » .

والربط بين الجن والحيوانات والهوام والاشجار ، يشيـــر مباشرة الى انحدارها من الطوطمية ، وهو ما كنته القبائل السامية خاصة أصحاب الوبر ، من عرب وعبريين ، فكانوا يتسمون باسم الحيوان ، ويحرمون التلفظ باسمه ، ومن هنا جاءت المترادفـــات المتعددة للحيوان الواحد . « وذكر المستشرق هيرد ان لدى العرب خمسين كلمة للدلالة على الاسد ، ومائتين للثعبان ، وثمان للعسل، وأكثر من ألف للسيف » (١) .

وكانت القبيلة وأسلافها والارض التي تعيش عليها ، ومـــا يتحكم فيها من عوامل مناخية واجتماعية وحدة تنحدر من الطوطم السلف الاب ، سواء أكان حية أو نعامة أو حمامة أو كلبا أو جملا أو جرادا أو ديدانا أو بيضة أو حوتا . وعلى هذا اختلفت كـــل قبيلة أساطيرها ، ووحدت بالتالي بين الطوطم والخالق ، مثـــل كوزلولوجي أو أسطورة الخلق عند الرشيين (٢) ، القائليـــن بفكرة الرحم الخالق (ويمكن ملاحظة العلاقة اللغوية الاشتقاقية بين ذلك الرحم الخالق ، وبين الرحمة والرحمن والرحيم والراحم والمرحوم ... الخ) .

---

(١) الاشتراكية والفن ، ص ٤٢ . كما يذكر الدميري : ان للاسد مائة وثلاثين اسما ، منها : أسامة ، والغضنفر ، والليث ، والورد ، وأبو العباس ، وأبو الحـــارث .
(٢) الفهرست ــ ص ٤٥٠ .

وهم الذين زعموا « ان في جوف الماء الريح ، وفي الريح الرحم ، وفي الرحم المشيمة ، وفي المشيمة بيضة ، وفي البيضة الماء الحي ، وفي الماء الحي ابن الاحياء العظيمة ، الذي ارتفع الى العلو فخلق البريات والاشياء والسموات والارض الآلهة » (١) .

وكذلك أساطير خلق المفتسلة سكان البطائح ، والكشطيين ، والمنسطوريين ، والصامية ، والغولية ، والادومية أو الادوميين الذين منهم اشتقّ اسم آدم أبو البشر .

وكانت أسطورة الخلق القريشية — فيما قبل الاسلام — وقريش كان طوطمها الحوت ، تقول : « ان الله خلق الارض على حوت ، والحوت في الماء ، والماء على ظهر صفاة ، والصفاة على ظهر ملك ، والملك على صخرة ، والصخرة في الريح » . ويقال انها هي الصخرة التي ذكرها الحكيم لقمان ، ليست في السماء ولا في الارض ، فتحرك الحوت ، فاضطربت ، وتزلزلت الارض ، فأرسى عليها الجبال » .

وفي احدى خرافات ذي القرنين التي يوردها وهب بن منبه: « ان ذا القرنين أتى على جبل قاف قال : فأخبرني ما هذه الجبال التي حولك ؟ فقال جبل قاف : هي عروقي ، فاذا أراد الله أن يزلزل أرضا أمرني فحركت عرقا من عروقي فتزلزلت الارض المتصلة به » (٢) .

وفي خرافة قريشية متأخرة ، كان لها السيادة فيما بعد : « ان ابليس تغلغل الى الحوت الذي على ظهره الارض ، فوسوس اليه ، وقال له : أتدري ما على ظهرك يا لوتيا من الامم والدواب والشجر والجبال وغيرها ، انك لو نفضتها أو ألقيتها عن ظهرك ، لكان ذلك أريح لك » .

ويرى رفائيل بتاي ان العبريين استعاروا أفكارهم عن الحيتان والحيوانات البهيمية ذات الجثث الهائلة ، من العرب الاوائل

(١) الشهرستاني — ص ٢١١ .
(٢) التيجان — ٣١١ .

— أو البائدة — وهو ما كان يطلق عليه العرب تعفون — أو التعفن — ومنها بعل تعفون ، وهو ما يشير الى البهيمية ، وصراعات الحيوانات الخارقة الوحشية ، مثل الثيران والبقر الوحشي والحيتان .

ووردت هذه الخوارق البهيمية في الميثولوجي الفرعوني ، فذكر الرحالة المؤرخون « هردوت وديودورو الصقلي وبليني » الحيتان والتماسيح وفرس النهر ، فكانت تلك الحيوانات الوحشية مقدسة في مصر للاله ست عدو أوزوريس ومغتصب عرشه (١) .

كما وردت هذه الخوارق البهيمية في الميثولوجي البابلي ومنها الحوت متعدد الرأس والاله ذو الرؤوس السبعة بمثابة الصولجان السومري ، منذ الالف الخامسة قبل الميلاد .

وبحسب ما ذكره هردوت وديودورو الصقلي ، فقد « أكل فقراء الشرق الاوسط عامة ، لحم الحيتان وفرس النهر والبهائم الوحشية ، خلال أعيادهم الموسمية ، احتفالا بأكل اللحم » .

وطبعا كان الحيوان الطوطم ، يدافع عن القبيلة ويحميها ، مثل هدهد سليمان وبلقيس ، وحادث تلصصهما أو تجسسهما على أحدهما الآخر ، وأيضا ضباع قبائل الضبعيين والكلبيين وكذلك بنو هلال أو الهلالية — أصحاب سيرة بني هلال — وبنو عبد شمس ونسر وغيرهم وهو ما أصبحت شعائرهم — الطوطمية — مثل الهلال والنسر ، رمزا موحدا للعالم الاسلامي فيما بعد ، مثلما أصبحت نجمة داود المسدسة شعارا موحدا للقبائل العبرية .

يقول المسعودي : « وقد زعموا ان الحيوان الناطق ثلاثة أجناس : ناس وبنتاس ونسناس ، وقالوا ان وجوههم على نصف وجوه الناس » .

وتركز الميثولوجيا السامية بشكل مجمل ، على ان خطيئة ابليس الاولى ، تمثلت في استكباره للمادة التي خلق منها ، وهي

1 — Semitic Mythology. N. Y.

النار ، على المادة التي خلق منها آدم ، وهي الطين أو التراب ، هذه أول شبهة أو خطيئة وقعت في الخليقة .

وفي احدى الروايات : « ان ابليس كان له ملك سماء الدنيا، وكان ينحدر من قبيلة من الملائكة ، يقال لهم الجن ، وسموا الجن لانهم خزان الجنة » .

ويبدو انالصراع كان ملتهبا بين مادتي النار والطين ، أو بين الملائكة والبشر ، اذ ان الله « خلق خلقا ــ من الملائكة ــ وقال اسجدوا لآدم ، فقالوا لا نفعل ، فبعث الله عليهم نارا فأحرقتهم ، ثم خلق خلقا آخر ، بشرا من طين ، وطلب من الملائكة أن يسجدوا لآدم ، فأبوا ، فبعث الله عليهم نارا فأحرقتهم » .

ومعنى هذا انه كان هناك اعتقاد أكيد في ان « طينة » الجن أرفع منزلة من تلك التي صيغ منها الانسان القديم ، وعلى هذا فقد عبدوا الجن ، وأحلوهم محل الآلهة منذ فترات مبكرة جدا ، كما يرى فريزر (١) الذي أورد حكاية « من مصدر عربي عن حادث موت ملك الجن (١٠٤ ــ ١٠٦٣ ق.م.) وانهم كانوا يندبونه ــ على طول الشرق الاوسط ــ من تركيا حتى ايران وبغداد ، يضربون بالدفوف وينوحون ويشقون ملابسهم ، مهيلين على رؤوسهم الطين والرغام » .

1 — Thegolden Bough — V. 6.

الفصل الثامن

حكايات فولكلورية سودانية ومصرية

مجموعة حكايات فولكلورية سودانية ، جمعها الدكتور الاستاذ **مراد كامل** ، ونشرها في كتاب تحت اسم « قصص سودانية » . بعض هذه الحكايات الشفاهية ، يمكن تصنيفه تحت ما يعرف بحكايات الجان أو الحكايات الخرافية ، وبعضها الآخر من نوع حكايات الحيوانات ، وبعضها الثالث قد يكون بقايا أساطير ، أو أساطير مهشمة أو « أشلاء أساطير » كما سبق أن لاحظ الاخوان جريمي .

ورغم ان د. مراد كامل قد أعاد صياغة هذه الحكايات الشفاهية السودانية ، ونشرها في شكلها الادبي ، الا انه بدا واعيا ومدركا في محافظته الدقيقة الرصينة على أدنى مقولاتها ووحدتها وتضميناتها ، كحكايات فولكلورية ، قابلة للتجزئة والانقسام الى سلسلة متتابعة من الافكار والجزئيات ، ربما يسمح لها بالمقارنة مع نظيراتها من حكايات مشابهة أو مشتركة في النمط أو الانموذج .

والذي استوقفني بالنسبة لهذه الحكايات هو عثوري على نفس هذه الحكايات والحواديت ، بكاملها ، في حكاياتنا وحواديتنا الشفاهية المصرية ، فما من حكاية مفردة لا تتفق أو تتوحد مع نظيرتها المصرية . وهذا يعني مدى الالتقاء غير العادي بالنسبة

لتراثي الحكايات الفولكلورية السودانية والمصرية بأنماطها ونماذجها بل وحتى تضميناتها وأدنى جزيئاتها .

وليس هذا بغريب بالنسبة للاسس والقوانين التي أمكن لعلم الفولكلور ارساؤها منذ مطلع هذا القرن ، بل الغريب هو أن يحدث العكس فيحل التنافر والمخالفة محل التطابق والتوحد ، بالنسبة لتراثي الشعبين المصري وشقيقه السوداني .

ومرجع هذا التطابق أو التوحد للتراثين المصري والسوداني – بالنسبة للحكايات الشعبية – هو الالتقاءات والاتصالات ، من تاريخية وجنسية ومكانية ولغوية بين السودان ومصر .

وتصل علوم ما قبل التاريخ ، بالعلاقة التاريخية لمصر القديمة بالسودان ، الى ما قبل عهد الاسرات ، فعن طريق السودان ، كانت تصل الى مصر حاصلات بلاد بنط من بخور وعطور ومر ، وكانت هذه الحاصلات ، جزءا حيويا ، من أخص خصائص المعبد الفرعوني وشعائره الدينية ، مما يؤكده نص حدوتة مصرية وسودانية ، من بين هذه المجموعة من الحكايات والحواديت المصرية السودانية المشتركة .

ولقد تدعمت العلاقة بين الدولتين ، منذ الدولة الوسطى ٢٠٠٠ ق.م. ، حين بدأ ملوك الاسرة الثانية عشرة ، يسيرون حملات الى السودان ، حتى تمكنوا من دخوله ، ونشر ديانة آمون ، وأقاموا قلاعا ومعابد « بوهين ودابنارتي ومرجيسيا وشفلك وسمنة وأوروناريتي الخ.. » وأيضا مسلات سيزوستريس الثالث – ١٨٧٩ ق.م – ولوحة سنوسرت الثالث : « هذه حدودي الجنوبية وكل من يحافظ على هذه الحدود الجنوبية ، فهو ولدي ومن صلبي ، الابن الذي يحمي أباه » . كما ان كهنة آمون ، كانوا يقيمون في السودان ، بالاضافة الى أعداد كبيرة من المهاجرين المصريين ، من حرفيين ورسامين وخطاطين وصناع وكهنة ومحنطين .

ولقد لعب السودانيون ، دورهم الشقيق في معاونة المصريين في طرد الهكسوس ، خاصة قبائل البجة والكوشيون – منهم

النوبيون – ويرى سلجمان ان البجة والمصريين من سلالة واحدة .

وكان الملك كشتا أول من عرف من الملوك السودانيين ، واتسع سلطانه حتى تعدى الاقصر ، ولما مات خلفه ابنه الملك بعانخي في حكم السودان ومصر ، ولما مات بعانخي هذا ، خلفه أخوه وزوج ابنته شبكة عام ٧٠٠ ق.م ، وهو الذي نقل عاصمة ملكه الى الاقصر ، وحارب الاشوريين ، وابنه ترهاقا صاحب الحروب المتصلة في غرب آسيا ، وهو الذي هزم سنحاريب ملك آشور ، وغزا أورشليم ، واستولى على بيت المقدس .

ويعرف هؤلاء الملوك السودانيون الاوائل ، بملوك نبتة العظام . وهم الذين جلبوا الصناع والفنانين والمعلمين المصريين ، وساعدوا على نقل المؤثرات الحضارية والشعائرية المصرية الى السودان ، وتبدى هذا في عادات دفن الموتى والفن والعمارة ، الى جانب الكتابة الهيروغليفية .

وخرج ملوك السودان أو ملوك نبتة ، مرارا ، لصد هجمات القرى وغيرهم من القبائل الليبية والسامية المغيرة على مصر .

وطبعا فان هذه الاتصالات المصرية السودانية المبكرة ، حملت مع ما حملت التراث الشفهي والعقائدي لكلتا الدولتين . ويرى البعض ومنهم سلجمان ان الختان الفرعوني ما يزال هو السائد في السودان ، كما أكده المقريزي بقوله : « وأما النساء فمقطوع أشفار فروجهن ، وانه يلتحم حتى يشق عنه للمتزوج » ، وهو الختان الذي ما يزال ساريا في قرانا المصرية خاصة الصعيد الاعلى ، حتى اليوم . كما ان كثيرا من القبائل والبطون العربية قبل الاسلام ، كانت دائمة الهجرة الى مصر عن طريق شبه جزيرة سيناء وبرزخ السويس ، مواصلة صعودها الى الجنوب ، فالصلات بين شمال الوادي وجنوبه كانت دائمة الحركة موثقة سواء من ناحية الجنس والسلالة ، أو من الناحية الثقافية التقليدية ، أو من ناحية التراث الابداعي الجماعي الشعبي ، وسواء على طول عصور مصر الفرعونية ، أو البطلمية والرومانية والقبطية والاسلامية وأخيرا المعاصرة أو الحديثة ، منها مثلا توقيت قيام الثورة العرابية في مصر عام

١٨٨١ ونظيرتها الدعوة المهدية في السودان في نفس السنة .. وهكذا .

* * *

وقبل الانتقال والتعرض للموضوع الذي نحن بصدده ، أود أن أشير الى النقص الكبير الذي تعانيه حركة دراسة الفولكلور والاساطير ، وتخلفها المجدب الشديد في عالمنا العربي ، وهو التراث الذي يحفظ له العالم أجمع ثراءه الهائل والذي لا تدانيه أصالة تراث أي منطقة من مناطق حضارات وتراث العالم القديم ، هذا على الرغم من الصعوبات والمشاكل التي تحبط وتعثر المتصدي لدراسته نظرا لتعدد المصادر وكثرتها وتداخلها وتجدد النزاع القبلي على ملكيتها ، من ذلك مثلا انه كان في الجزيرة العربية واليمن والشام وفلسطين ، آلاف مؤلفة من تراث القبائل والملل والنحل حتى الفترة المتأخرة التي لا تتعدى القرون الستة بين المسيحية والاسلام .

ومن ذلك أيضا متاخمة الشرق الادنى لحضارتين مبكرتين هما الهند وفارس اللتين واصلتا تسريب تراثيهما اليه بشكل مخصب متواصل ، مما دفع ببعض دارسي هذا العلم ، الى اعتبار تراث الشرق الادنى القديم ، وبرغم ثرائه وعراقته « تراث غير مكتمل الشخصية » .

وحتى فترة قريبة ، كان هناك شبه اجماع من جانب جيل الفولكلوريين الاكاديميين والمستشرقين منهم : بنفي ونولدكه والبارون دي ساسي وكيث فالكونر ، على القول بأنهم — أي الاوروبيون — تعرفوا على قصة نبع التراث الاوروبي في الهند ، وكان من نتيجة هذا مثابرة طويلة على جمع ودراسة لاهوت وأساطير وحكايات وخرافات وفوازير الهند .

ونشبت معارك طويلة ، حول ما قال به المستشرق تيودور بنفي ، وعالما الفولكلور والاساطير الفنلنديان آرني وكارل كرون « من ان أصول حكايات وخرافات كل العالم مصدرها الهند » .. وطبعا لقيت هذه النظرية معارضة شديدة خصوصا من بعض

أصحاب ما يعرف بالمنهج المقارن للبحث والتقصي عن المصادر الاولى الام للمأثورات الشعبية ، مثل مانهاردت ويوسف بديه وثومبسون .

فيرى ثومبسون ان دور الشرق الادنى ، تتعاظم أهميته في السنوات الاخيرة نظرا لكونه المعبر الاساسي الذي عن طريقه تسربت كل الكلاسيكيات الهندية من الشرق الى الغرب ، ويمكن التعرّف على ما اعترى التراث الهندي من تغيرات واضافات ، خلال الزمان والمكان ، مثل « البانشاتانترا » أي الاسفار أو الكتب الخمسة وما طرأ عليها من تغيرات وتحولات ، وهي تأخذ طريقها من الهند الى الفرس والعرب والسريانيين العبريين اليونانيين ، الى أن وصلت سريانها في تراث وآداب الشعوب اللاتينية في العصور الوسطى . وينطبق هذا على « الجاتاكا » أو الحكم السبع، ومرادفاتها في محيط القصة .

ويضيف الاستاذ ثومبسون : هذا الى جانب القيمة العظيمة لتراث الشرق الادنى الفولكلوري في حد ذاته المدون والشفاهي « وحيث تروى الحكايات الشعبية ، بشكل دائم ، كجزء من النشاط اليومي المتواصل للاسواق والبازارات » .

كما ان على رأس مصاعب وتعثر التصدي لدراسة تراث الشرق الادنى بأساطيره وفولكلوره ، تقف صعوبات أولها ندرة الحصول على موارده المتواترة ، بما يحقق تراكم اكبر كمية كافية أو ممكنة ، قابلة للمقارنة من أنماط الحكاية أو الملحمة أو السيرة أو العادة الطقسية محل البحث .

لذا فان محاولات الدراسة تعدّ الى الآن محاولات شبه عقيمة والاكثر عقما وأخطارا، هو عدم تخطي المحاولة الجادة للتعرف على أنفسنا وأصول شعوبنا ومكوناتها وخباياها ، عن طريق هذه العلوم الشابة التي حققت الكثير ، أخصها زرع واستنبات فضيلة التسامح .

* * *

وإذا ما عدنا الى موضوعنا الخاص بمجموعة الحكايات

والاحدوثات السودانية التي تنبه لاهمية جمعها من بعض مناطق السودان د. مراد كامل ، وما يطابقها في حواديتنا المصرية ، أسجل ان هذه المحاولة الدراسية ، هي أيضا غير مكتملة ، نظرا لقلة النصوص المتعددة ، للجزئية الواحدة ، وحتى يمكن التوصل الى نتائج أكثر دقة . وسأضرب مثالا لتوضيح أهمية التشدد على تعدد مرادفات المادة أو الحكاية أو الملحمة موضوع البحث ، والمثال هو الجمعية الادبية الفنلندية التي أنشئت في هلسنكي عام ١٨٣١ ، والتي تعدّ أقدم جمعية فولكلورية في العالم . فعندما احتفلت هذه الجمعية بالعيد المئوي لنشر احدى ملاحمهم القومية عام ١٩٣٥ ، وهي ملحمة « كالافالا » ، وصل عدد التسجيلات والتدوينات من متنوعات هذه الملحمة من كل أنحاء اسكنديناقيا الى ١٣٠ ألف تسجيل فولكلوري . .

وكان أن بدأت بعد ذلك مرحلة الدراسة العلمية اليقينية لهذه الملحمة .

واذا ما بدأنا بتناول واحدة من هذه الحواديت أو الحكايات السودانية ، التي جمعها د. مراد كامل ، ونظيرتها الشفاهية المصرية ، وهي حدوتة تدور حول ملك واسع الجاه والثراء تحفظ له الذاكرة الشعبية في كلا النصين المصري والسوداني ، اسمه « الملك الاسد » . وفي تقديري ان ما بقي من حكايات وحواديت الملك الاسد هذا ، يشير الى انها بقايا سيرة ، تدور حول حياة هذا الملك ، مثلها في هذا مثل الحكايات المتبقية من البقايا الشفاهية لسير الملك معروف ، وسيف بن ذي يزن ، وحسان الغالبة ، والملك الشاطر حجازي ووزيره البين .. وسير التباعنة ملوك اليمن ، في حكاياتنا المصرية .

وملخص الحكاية السودانية عن الملك الاسد هو انه اشترى حمولة عشرين سفينة من « الزباد » — أو العصفر في الحدوتة المصرية — وطلا به جدران قصره ، ليطيب أريجه وينشر رائحته الزكية في أرجائه ، وكان هذا الفعل الذي أقدم عليه الملك الاسد ، بمثابة زلته أو سقطته ، التي بمقتضاها زالت عنه نعمته وذهب

جاهه فأصبح « خاوي الوفاض لا ينضم مقره على شيء مما حوى ، فقد ابتلع اليم سفنه بما تحمل ، وانطوت رمال الصحراء على قافلته بذهبها وأحجارها الكريمة ، وضاقت الدنيا في وجهه ، وسدت أمامه السبل ، واستحال الناس — شعبه — يكيلون له اللعنات بعد أن كانوا ألسنة حمد وثناء ، فهجر الاهل والوطن ، وأخذ يضرب في الارض على غير هدي » . وكان أن عبر الى مملكة أخرى ، وعمل صبيا في حانوت حلاق ، يعمل ليعيش .

وتتوالى الحكاية ، حتى يصل الى حانوت الحلاق ابن الملك الذي كان قد سبق أن شهد مجده وثراءه ، حين باع له الزبد أو العصفر ، فرآه وقد بالت عليه حمارته . فعرفه ابن الملك ، ودفع لصاحب الحانوت دينه وأخذه الى قصره . وساعده بعد ذلك في استعادة سلطانه ومجده ، الى أن عاد « ذابل الامس في يده يانعا ، ويابسه مخضرا » . وهكذا ينتهي النص السوداني .

ولقد جمعت من حواديت الملك الاسد ، أربعة نصوص ، منها هذا النص المصري الذي يبدأ هكذا :

« كان الملك الاسد أغنى ملك في الدنيا ، ومكنش فيه في مملكته لا بيع ولا شرا ولا مقايضة ، واللي محتاج حاجة ياخدها بالصلاة على النبي . لحد ما زار الهاتف في ليلة الملك الاسد في المنام وقاللو : يامَلك الدنيا حاتزول عنك.

فترك مملكته وركب حصانه ومشى أرض الله لخلق الله ، الى أن صادفه في الطريق بحر غويط ، نزل فيه الحصان عائما بالملك ، وفي وسط البحر ، غطس الحصان والملك ممسكا بشعره ، الى أن غاب الحصان تماما في أعماق البحر ، ولم يتبق منه سوى شعرتين في يد الملك ، فقال الملك :

« لما تروح تقطع السلاسل ، ولما تيجي تيجي على زبيبة » .

واستبدل الملك ملابسه بجلباب قديم — خيشة — كان يرتديها أحد الشحاتين ، ونزل المدينة والتحق بخدمة رجل فطاطري « يولع النار تحت صينية الفطير » ، وهكذا الى أن يصل الملك الذي كان قد سبق له أن باعه العصفر ، فأخذ منه حماره ليربطه ، فبال الحمار عليه ، فقال الملك :

« أقبلت — أي الدنيا — لما باض الحمام على الوتد ، وأدبرت لما شخ الحمار على الملك الاسد » .

وتتطابق نهاية الحكايات الاربع المصرية، مع الحكاية السودانية

في رجوع ملك الملك الاسد اليه مرة أخرى ، بعد ان أوفى مكتوبه أو قدره أو وعده ، الذي هو عقابه في ذات الوقت ـ مثلما حدث لايوب ـ حينما استهجن « النعمة » التي هي الزبد أو المر أو العصفر : أقدس مقدسات المعبد المصري ـ والسوداني ـ والذي كان يجلب من بلاد بنط ، عبر السودان الى مصر ، منذ فجر التاريخ .

واذا ما تناولنا حكاية ثانية ، أوردها د. مراد كامل من السوباط ، وهي حكاية « شيخ الاسود » وموجزها :

« ان رجلا هرب من مدينته بعد أن قتل الملك أخاه وابنه واستولى على أملاكه . وعاش الرجل في الغابة وأصبح حطابا . وكان في هذه الغابة أسد وفأر ، وكان الفأر يميل الى معاكسة الاسد ، فقال له الاسد يوما : « كيف تجرؤ على معاكستي وأنا أقوى المخلوقات ؟ » فأجابه الفأر ، بأن القوي هو الذكي « فأنا أقوى منك بذكائي ، وأقوى مني ومنك الانسان » .

وبينما الاسد يواصل احتداده ، مدافعا عن انه أقوى المخلوقات ، جاء ـ الانسان ـ الحطاب ، فقفز اليه الاسد قائلا :

« أيها الانسان ، هل لك في مصارعتي لنرى من منا الاقوى ؟ » .

فقال الحطاب :

« هذا حسن ، ولكني تركت قوتي في البيت ، فانتظرني الى الغد ، حتى احضر قوتي » .

وبهذه الحيلة التي ستكون موضوع بحثنا ، نجا الحطاب من الاسد ، نظرا لان بقية الحكاية ، دخيل على هذه الجزئية الهامة ، التي هي في الاصل حكاية حيوان متطابقة مع نظيرتها المصرية . بل ان البعض يعتبرها أشهر حكاية حيوان من فولكلور شعوب كل العالم .

ويكتمل الجانب ـ الاستطرادي ـ في الحكاية السودانية ، بسلسلة من الحيل المتوالية ، التي يهزم بها ـ الانسان ـ الحطاب ، الاسد ، ويخضعه لسيطرته ، بل هو يتمكن في النهاية من ترويض كل أسود الغابة ، وبهذا يصبح شيخ الاسود ، ويتمكن في النهاية من الانتقام لما لحقه من جور الملك الظالم ، الذي كان قد قتل أخاه وابنه وشرده من البلاد .

ومثل هذا الاستطراد دخيل تماما على الجزئية السابقة ، التي هي في حد ذاتها حكاية مكتملة . وكما يرى عالم الفولكلور ، الاستاذ لويس جنزبرج :

« ان القصص الاستطرادية المتعرجة الاحداث ، جديدة تماما ودخيلة على الفولكلور الاوروبي المبكر ، وفولكلور الشرق الادنى عامة » .

والنص الشفاهي المصري لهذه الحكاية ، اكثر تحديدا وأصالة ، لذا سأورده كاملا ، كما حققته من ستة مصادر مختلفة، أكملها نص سمعته من مصدر بجوار بحيرة قارون بالفيوم باسم « الديب والتمساح » وهذا هو النص :

« ديب مصاحب تمساح ، ومتعود يزوره كل يوم ، يروحلو على شط بركة قارون ، وينط يركب على ظهره (١) ، والتمساح يفسحه على وش البركة ، وبعد كده يرجعه على الشط آخر النهار .

مرات التمساح ـ وليفته ـ زعلت واتقهرت وغارت من الديب .

وفي ليلة عملت عيانة . ولما جاء التمساح يسألها : عيانة بايه ؟ قالتلو : الحكيم قاللي دواكي على قلب ديب .

التمساح قاللها : بسيطة الديب صاحبي ، وبكره الصبح حايجيني وأجيبلك قلبه .

وتاني يوم الصبح ، لما الديب جا يزور التمساح ، ونط ركب على ضهره زي عوايده ، التمساح جابو في وسط البحر ، وحكالو حكاية مراته . فالديب قاللو :

« لا مؤاخذة يا تمساح ، انا النهارده سايب قلبي في البيت ، رجعني تاني للبر ، وأنا أروح أجيبلك قلبي من البيت وآجي حالا » .

التمساح رجع الديب على البر ، والديب أول ما حط رجله على البر فطس على روحه من الضحك ، ولما التمساح ساله :

« بتضحك ليه ؟ »

الديب قاللو :

ـ بضحك عليك .

عليل ما دويت .

وصاحب ما بقيت .

---

(١) يلاحظ ان التمساح ، هو اله الفيوم .

والاختلافات بين النصين السوداني والمصري لهذه الحكاية ، هي مجرد متنوعات أو اشتقاقات مرجعها التواتر الشفاهي الذي يعتري التراث غير المدون عامة . أما النص الام المدون لنمط هذه الحكاية فيرجع الى اكثر من الفي عام .

وسأورد هنا النص العربي لهذه الحكاية ، والذي يعدّ أقدم نص مدون ، كما يجمع على هذا ثلاثة من كبار علماء الفولكلور ، هم : د. موسى جاستر ، الذي أورد هذا النص العربي في كتابه « قصص الطيور والحيوانات » . والبروفسور لويس جنزبرج . وبازل ف. كرتلي ، وملخص النص العربي المدون كما يلي :

« ما ان انتهى الله من خلق العالم ، حتى أمر – عزرائيل – ملاك الموت ، أن يلقي في البحر بمجموعة متنافرة من الحيوانات ، لكي يعيش كل حيوان مع ما يخالفه من حيوانات .

وتمكن الثعلب بمكره ودهائه من الافلات من قبضة ملاك الموت ، وحتى لا يلقي به في البحر .

وفي نهاية العام ، أحصى الحوت « ملك البحر » جميع حيواناته ، لكنه افتقد الثعلب ، فأرسل الحوت برسله من سمك البحر لاحضار الثعلب ، وكان قد سمع بمكره وشدة دهائه ، فرغب في أن يحصل على قلبه ويلتهمه ، حتى يصبح له ما يمتاز به الثعلب من حنكة ودهاء .

وعندما وصلت الاسماك ، رسل الحوت الى الشاطىء ، والتقت بالثعلب ، احتالت بدورها عليه ، فقالوا له ان الحوت ملك البحر قد مات ، وانهم جاءوه لينصبوه ملكا عليهم عوضا عنه ، وكان أن امتطى الثعلب ظهر احدى الاسماك ، لكنه وبعد أن غوطت به الاسماك داخل البحر ، خاف وتشكك في الامر ، ولما طلب منهم ايضاحا لحقيقة ما يحدث ، أخبرته احدى الاسماك ، بحقد الحوت عليه ، نظرا لما يتمتع به من دهاء وسعة حيلة ، لذا رغب في التهام قلبه ، ليصبح وريثه في الدهاء .

هنا أجاب الثعلب للاسماك ، بانه كان من واجبهم تذكيره وهو على الشط لكي يحضر معه قلبه ، نظرا لان من عادة الثعالب ، أن تترك قلوبها في منازلها قبل الخروج الى الخلاء .

وكان أن أعادته الاسماك الى الشاطىء ، لكي يسرع ويحضر قلبه . لكن ما أن وضع الثعلب قدمه على البر ، حتى سخر من غباء الاسماك التي تعتقد ان مخلوقا بدون قلب يمكن أن يعيش .

وكان أن فتك الحوت برسله من الاسماك الأغبياء ، والتهم قلوبهم .

ولقد عكف اثنان من كبار علماء الفولكلور ، هما د. موسى جاستر ود. جنزبرج ، على دراسة هذه الحكاية أو الفابيولا ، للتعرف على مصدرها المدون الام . ونظرا لانها تعدّ من أوسع حكايات الحيوان في شفاهيات كل العالم ، اذ تمتد متنوعاتها الشفاهية المتواترة من قرى زانزبار حتى موسكو ، سوى ان اختلافات طفيفة تعتريها ، في كوريا واليابان والفليبين والملايو واندونيسيا .

واتفق الباحثان على ان النص العربي ، الذي نقله اليهود الى العبرية ، وأورده أحد كتابهم وهو بن سيرا ، احدى موسوعاته عن الحكايات الشعبية ، وتعرف بألفية « بن سيرا » .

واتفق الباحثان على ان النص مستمد بدوره من منابعه الهندية ، وبالتحديد من حكاية « القرد والتمساح » التي يمكن تتبعها في كتاب كليلة ودمنة تحت اسم « القرد والسلحفاة البرية » ، كما أمكن التعرف على ثلاثة متنوعات لنفس الحكاية في « الجاتاكا » التي يعتبرها البعض الاصل الذي انحدرت منه كليلة ودمنة ، والتي تحوي أقدم المدونات الفولكلورية التي تسري في شفاهيات كل العالم ، ومن المعتقد ان « الجاتاكا » دونت للمرة الاولى في شمال الهند، قبل عصر الملك « أسوكا » – ٢٧٠ ق.م. – وامتصت هذه الشرائع الشفهية أو « الجاتاكا » ، أغلب الجسد الفولكلوري للهند ، ومع انتشار البوذية خارج الهند سرت الجاتاكا وبها حكاية القرد والتمساح ، والتي يستبدل فيها الديب محلّ القرد في النص الشفهي المصري الذي أوردته ، والصياد أو الانسان في نظيريهما النص السوداني الذي أورده د. مراد كامل.

ويحتفي دارسو الفولكلور بحكايات الحيوانات والطيور والنباتات والزواحف ، احتفاء خاصا ، هذا على الرغم من ايجازها الشديد ، بل وواقعيتها الشارحة المحددة . وهناك من يرى ان حكايات الحيوان هي بداية الاساطير ، وانها اكثر قدما وبدائية منها . اذ انها كانت وعاء لشرح وتقديم الافكار والمعتقدات ، أي ان اكثر هذه المعتقدات ، كان يتجسد في شكل حيوانات وطيور ،

« فالاله زيوس كان نسرا ، والالهة أثينا كانت بومة ، وهيرا كانت بقرة ، والاله النوردي نور كان طائر جنة صغيرا ، والاله تير كان ذئبا ، مثله في هذا مثل الاله الروماني مارس ، وضريبه السليتي ديباتر » .

كما ان هنا شبه اجماع من جانب دارسي الفولكلور على ان قصص الحيوان الشارحة ، هي المصدر الام أو الاصل التي منها انحدرت الخرافات .

وقصص الحيوان الشارحة ، هي تلك القصص التي فسر بمقتضاها الاقدمون الفرق بين حيوان وآخر ، بين طبيعة ولون وخصائص الذئب عن الحمل ، ولون الحمامة الابيض المخالف للون الغراب الاسود ، وكذلك التفسيرات الغيبية التي فسر بها البدائيون السبب أو السر في بريق عيون القطط في الظلام ، واستطالت أذنا الارنب والحمار .. الخ .

وفي واحدة من هذه الحكايات السودانية ، التي موطنها النيل الابيض ، تكشف لنا الحكاية ، كيف ان الدنكا لا يضربون الكلاب ، اعتقادا منهم في ان الكلب هو أول من جاء بالنار لقبيلة الدنكا . فلقد « عاش الدنكا حقبة طويلة لا يعرفون النار ، وكان الرجل منهم اذا صاد سمكة قطعها قطعا ووضعها في ماعون وتركه تحت وهج الشمس » .

وفي حكاية شارحة أخرى من ــ الشلوك ــ عن البقرة والكلب ، موجزها ان البقرة خلقت في السماء ، ووقعت على الارض فتكسرت أسنانها ، ولما رآها الكلب ، أغرق في الضحك حتى انفتق شدقاه وبلغا أذنيه ، وظل على هذا الحال حتى اليوم .

وما من حيوان أو طائر أو نبات ، لم تصاحبه مجموعة حكايات ، تحدد أوصافه وأخصّ معالمه وتحيطه بتفسير عصور ما قبل العلم ، كما هو واضح في هذه المجموعة من الحكايات السودانية المصرية .

الفصل التاسع

الذاكرة الفولكورية

مجموعة خبرات بسيطة لكنها ملفتة الى أقصى حد تتصل بالذاكرة الشعبية الجماعية ، أو الذاكرة الفولكلورية لمستها بنفسي وأنا أواصل جمع شفاهيات منطقة الفيوم وبني سويف وبعض قرى المنيا والجيزة ، جعلتني في النهاية أعتقد الى حد كبير في الذاكرة الشعبية كعملية ــ جدلية ــ عقلية ، تتكامل فيها عقول أجيال طولا وعرضا أو زمانا ومكانا .

ومن هذا المدخل يمكن القول بأن لا شيء مفتقد . بل ان المفتقد ــ تاريخيا أو اركيولوجيا ــ يمكن استجلائه والتحقق منه عن طريق الذاكرة الشعبية ، عن طريق دأب البحث في جمع المواد الفولكلورية أو متنوعات وعينات وعبارات الايتم أو النمط الواحد موضوع البحث .

واذا كان من الصعب علينا اليوم في أيامنا هذه تقبل حقيقة ان بلداننا العربية مصابة بأعلى معدلات للأمية على رقعة العالم أجمع ، فلنا أن نتصور ما كانته أيام الجاهلية الاولى والثانية ــ ٣ آلاف عام ق.م ــ ومن هنا كان الانتشار الشديد ــ لعادة أو شعيرة ــ الحفظ والتحفيظ والاعتماد على الذاكرة ، الذي لم يتوقف الى اليوم في مناهجنا الكتاتيبية المتوارثة . ولا يقتصر

الامر على حفظ وتحفيظ النصوص الانيزمية أو الدينية – رغم انتشار الترانزستور – بل الشعر وبقية الشعائر من قديم وحديث، فولكلوري وتقليدي ، فحتى الاحاجي والفوازير والحذور لها مكانها ومخزونها داخل الذاكرة الشعبية ، سواء في شفاهياتنا العربية أو السامية ، وبالطبع عند مختلف الشعوب .

وتحفظ الذاكرة الشعبية مقوماتها الاولى المنحدرة من طفولتها الطوطمية والانيزمية القديمة مثل حزن زهر البنفسج ، زهر الاله المزق أدونيس الذي اغتالته حيتان البراري ، ومثل نهيق الحمار (١) – ستخ أو طيفون – الذي بسببه أصبح الها شريرا متجبرا . ومثل رأس الحية الذي هو مكمن – كل – الخطايا الى اليوم ، وهو المفهوم المنحدر من أساطير الخلق الاولى – للعالم والانسان – والمصاحب للطرد من الفردوس المفقود ، والموحد بين الحية والشيطان . ومثل ما يدور ويتواتر الى اليوم ، حول عيون القطط والخفافيش ، وبطء السلحفاة البرية . وصدفة الجعران في الطبيعة ، التي من خصائصها أن تبيض فيها جعارين جديدة ، ومنها تنبت جعارين أو حياة جديدة ، أي ان من الموت تنبت حياة ، ولعله أقدم تفسير عن الموت ومعاودة الحياة أو القيامة ، كما تشير د. مرجريت موري .

وقد يكون هناك ثمة علاقة بين – ألوان – الطيور والحيوانات المشؤومة ، وبين الالوان الحزينة المشؤومة بدورها ، مثل الغراب – الاسود – النوحي ، والسواد أو الحزن والليالي السوداء ، وبالطبع يشمل هذا العلاقة بين ألواننا عن الفرح والآمال (٢) ، وهو الابيض ، وعلاقته أيضا بالحمامة النوحية ، وبمعنى أصح الجلجاميشية ، بعد أن اطلقها نوح أو كبير الآلهة البابلية اوتونبشتم حين عادت اليه في المساء واذا ورقة زيتون خضراء في فمها .

ويبرز – طوطم – الحمامة ودلالتها عند الساميين بشكل ملفت جدا ، فتسميه راحيل أو راشيل – أم النبي يوسف –

(١) ان أنكر الاصوات لصوت الحمير .
(٢) فستان زفاف العروس أو بدلة العرس البيضاء .

هو كاهنة الحمام ، ومنه تواتر الى تسمية اسرائيل .

ومن اسم الحمام ، تسمت الملكات السوريات الاشوريات : سميراميس ، وسميرام ، وسميرنا .

وقد لا ننسى الحمام في تراثنا العربي ، وتحولات أبطال الخوارق والملاحم الى حمام .

كما قد لا ننسى حمامة الايك ، كطوطم اسلامي شامل ومفرق في القدم ، وهو ما سنتعرض له في حينه .

وكما يقول الاستاذ تومبسون ، فان الامر بالنسبة لذاكرة شعوبنا – السامية الشرقية – الفولكلورية ، يمكن أن يطلعنا على الكثير من فيض النتائج الدقيقة ، خاصة وان رواة التراث وحفظته من حكواتية ، ورواة سير ومداحين وشعراء جوالون – تروبادوز – ما يزالون الى اليوم يملؤون حياتنا وتزدحم بهم أسواقنا وموالدنا، وتعج ذاكرتهم بالكثير ، الذي يخالط التاريخ فيه الاساطير ، والعكس صحيح .

وعلى سبيل المثال ، فلنا أن نتصور ان عمر الانتقال الى مرحلة الاعلام الاليكتروني – الراديو – لم يتعدّ حلقة واحدة أو نصف قرن . وقبلها كانت الغلبة للنص الشفاهي وذيوعه عن طريق أدواته ، وهم الحكواتية ورواة السير والملاحم وفناني الافصال أو الفصول المضحكة أو ما أطلق عليهم د. لويس عوض بمسرح الفلاحين (١) .

ومن هنا ففي الامكان التحقق من الكثير من تراثنا الحفري الفولكلوري مثل افتراض العثور على مجموعات الحكايات المصرية التي ترجمت من البرديات التي عثر عليها في مصر د. فلاند روزيتري، وغيره من الحفريين ، وأعيد نشرها في الفرنسية عدة مرات ، منذ أن نشرها للمرة الاولى ماسبيرو تحت اسم « حكايات شعبية فرعونية » ، وظهر الكثير منها في الانكليزية باسم « تسجيلات من الماضي » ، كما نشر ايرمان مجلدين منها ، كذلك أسهم في ترجمتها

(١) ١٦ نصا مسرحيا مرتجلا جمعتها من فناني الفيوم ونشر بعضها بالاهرام عام ١٩٦٤ . (المؤلف) .

ودراستها علماء المصريات « جودوين ، وشاباس ، وايبروس » .

ولعل اكثر المغالين أو المبالغين في قيمة هذه الحكايات المصرية هو ايرمان الذي أرجعها للاسرات المصرية الاولى ، بل هو أرجع بعضها الى ما قبل التاريخ ، رغم ان بيتري يأخذ عليه ان ترجمته لهذه الحكايات ، جاءت أدبية وصفية ، مستخدما في اعادة صياغتها – الالف باء – الحديثة سواء في الهيروغليفية أو الالمانية الحديثة ، ومن هنا فقد تجنت ترجمة ايرمان المتحررة على الكثير من قيمها الفولكلورية .

وسجل بيتري في الجزئين اللذين نشرهما عن حكاياتنا المصرية الفرعونية مجموعة ملاحظات بسيطة ، منها افاضة الحكايات المصرية في الاعاجيب أو الملاعيب التي تذكرنا بملاعب شيحا ، وعلي الزيبق ، وبعض سير آباء الكنيسة القبطية التي يعج بها تاريخها – السينكار – والتي ما تزال تتبدى الى اليوم اكثر وضوحا في حكايات الشطار ، وهو ما أسماه بالينوفسكي بالفنتازيا المصرية .

كما سجل بيتري مدى خوف المصري القديم الدائم من أخطار البلاد الاجنبية ، خاصة الآسيويين ، وأقربهم العرب والعبريين الساميين بالطبع من جانب ، والليبيين والكوشيين النوبيين من الجانب الآخر .

كذلك تنبه بيتري الى غياب وتدهور ملامح الشخصية المصرية في العصر المتأخر ، بدءا من الدولة الوسطى ، ولهذا يقول : « لهؤلاء الذين يتصورون ان هناك تشابها أو تماثلا يطبع كل مصر في أحقابها المختلفة ، وهو ما لا تؤكده وتقطع به الحكايات المصرية ، ذلك ان التغير من فترة أو عصر زمني لآخر ، يبدو جليا فيها » .

فحكايات السحرة والخوارق مثلا بدأت تكثر جدا ، بدءا من الاسرة الثانية عشرة ، وكذلك الاكثار من المعتقدات الغيبية والقدرية مثل قصة الامير القدري (١) ، التي ترجع الى الاسرة الثامنة عشرة ، والتي يمكن القول بأنها ما تزال تعيش بحذافيرها على الشفاه ،

---

(١) المحفوظة بالمتحف البريطاني .

محفوظة بكاملها في الذاكرة الشعبية المصرية ، وقد جمعت لها عدة أشكال أو تنويعات سوف أنشرها في الجزء الثاني من كتاب أو مدخل أساطير وفولكلور العالم العربي ، في محاولة عمل دارسة حقلية على النصوص التي توصلت الى جمعها منذ عام ١٩٤٩ .

ويمكن للقارىء تذكر هذه الحكايات الفولكلورية الفرعونية او تذكر بعض وحداتها أو تضميناتها ، اذا ما حاولنا سردها تبعا لترجمة بيتري لها من الهيروغليفية ، وهذه هي الحكاية :

« كان يوجد ملك لا يولد له أبناء ، فتمنى من الآلهة أن يرزق طفلا ، واستجابت الآلهة أن تهبه طفلا . لكن ما أن استوفت زوجة الملك أيام حملها ، وفي ليلة الولادة ، جاءت الهاتورات Hathors وتنبأت له :

« سيموت ابن الملك اما بسبب التمساح ، أو الحية ، أو الكلب » .

وما أن أخبر الشعب مليكه بالنبوءة ، حتى بنى له قصرا معزولا تحت الارض ، وحواه بما يحتاجه ، على أن لا يبرح الطفل بوابات القصر ابدا .

وذات يوم صعد الولد الى سطح قصره ، فرأى كلبا يسير خلف رجل ، فسأل معلمه (١) : ما هذا ؟

أجابه المعلم : هذا كلب .

قال ابن الملك : أريد كلبا مثله .

فأحضروا له كلبا ، وكتب الابن الى أبيه رسالة أخبره فيها انه يريد الخروج من قصره والتجول في الارض مع كلبه الوفي ، ولتفعل الآلهة ما تريد .

وترك قصره بصحبة كلبه ، وسافر الى بلاد ملك بدلام (٢)

---

(١) في النص الهندي – السنسكريتي – يحفظ النص اسم معلم ابن الملك ، وهو بدلام ، معلم بوذا .

(٢) يرجح انها بلاد ما بين النهرين ، حيث الامبراطورية الاشورية ، وقد تكون الاكادية فيما بين سوريا والعراق . ويلاحظ ان هذه التضمينة ، قد هاجرت فيما بعد الى المسرح المرتجل ، أو الفولكلوري الذي نشرته بالاهرام عام ١٩٦٤ .

الذي لم يكن له سوى ابنة وحيدة ، بنى لها قصرا شاهقا ، بـه سبعون شباكا على ارتفاع سبعين ذراعا من الارض .

وطلب ملك نهرينـا ـ بلاد ما بين النهرين ـ انه لـن يزوج ابنته الا لمن يستطيع الوصول الى شباكها العالي .

وحاول ابن الملك مع بقية الشبـاب المتجمهرين حول قصر الاميرة ابنة الملك ، الوصول الى شباكها . وعندما سألونه من أين أتى ، قال لهم : أنا ابن ملك أرض ـ بر ـ مصر ، مـاتت أمي ، وتزوج أبي بأخرى ، وعندما ولدت له طفلا ، كرهتني زوجة أبي وعذبتني ، فاضطررت للفرار من وجهها .

وعندما استمعوا لحكايته المحزنة ، احتضنوه وقبلونه .

وحاول الولد معهم أياما الوصول الى شباك الاميرة ، الى أن نجح في الوصول اليها وتقبيلها .

وعندما ذهب الشبان ، فأخبروا الملك ، اغتاظ قائلا : « هل حقا سأعطي ابنتي الوحيدة زوجة ، للاجىء مصري ؟ » .

وحين حاول الملك استدعاء الولد ، لم تدعه الاميرة يذهب ، وهددت بأنها لن تأكل وتشرب الى أن تمـوت ، لو انهم أخذوا حبيبها بالقوة .

وحين أخبروا الملك بكلام الاميرة ، وأصرّ الملك في طلبه ، هددت الاميرة بأنها ستموت قبل غروب الشمس .

لكنهم أخذوا ابن الملك بالقوة الى ملك نهرينا ، الذي سألـه وعلم منه انه ابن سيد مصر ، فوافق الملك وزوجه ابنته .

وذات يوم أخبر ابن الملك زوجته قائلا : « اعلمي يا حبيبتـي انني مقضيّ عليّ بالموت بثلاثة أقـدار : « التمساح أو الحيـة أو الكلب » .

فأمرت الاميرة بقتل الكـلاب ، واصطياد جميـع تماسيح البحـيرة .

وذات ليلة ، نام ابن الملك ، وجاءت له زوجته الاميرة بانـاء اللبن ووضعته الى جواره ، ونامت الى جانبه ، فجاءت الحية من

جحرها لتعضّ ابن الملك ، لكن الخدم أسرعوا فقدموا اناء اللبـن الى الحية فشربته عائدة الى جحرها .

الى أن كان يوم ، نزل فيه الامير الزوج ليستحمّ في النهر ، فجاءه التمساح قائلا : « أنا هو قدرك . أتبعك أينمـا سرت » . وابتلعه التمساح » .

وكما هو واضح يمكـن للقارىء تذكر بعض تضمينات هذه الحكاية المصرية التي ترجع الى الاسرة ١٨ ، ان لم يكن تذكرهـا بكاملهـا .

ولقد قطعت هذه الحكاية شوطا كبيرا على رقعة معظم العالم، لو حاولنا التعرض لها بالدراسة ، كيف انهـا دخلت البوذية ، وارتبطت ببوذا ومعلمه برلام ، ومن الهنـد هاجرت الى معظم الرقعة الآرية أو الهندو أوروبية ، فصاحبت الاسكندر ، والخضر ، وذي القرنين ، ولقمان الحكيم ، وملاعيب احبقار السنسكريتية ، وفي المسيحية تبدت في قصة « الملاك والمسيحي القديم » الشهيرة خاصة في فولكلورنا القبطي المصري .

وليس هذا هو موضوعنا ، بقدر ما ان موضوعنا هو مـدى احتفاظ ذاكرتنا الفولكلورية ، لاقدم مدوناتها الفرعونيةالفولكلورية، أو مدى ما طرأ عليها من اضافات أو العكس .

من ذلك حكاية « انبو وباتا » أو قصـة الاخوين ، التـي ترجمها أيضا د. بيتري ، وترجع الـى الاسرة ١٨ ، وملخصها : تآمر زوجة الاخ الاكبر باتا ، على شقيقه الاصغر ، وادعائها بأنـه راودها عن نفسها أثناء غياب الزوج ، مثلما فعلت زليخة مع يوسف الصدّيق فيما بعد ، وكذا فيدرا مع ابن زوجها . فكان أن طـارد الاخ الاكبر أخيه الاصغر ، الذي كان له ميزة أو خارقة محادثـة الحيوانات والطبيعة ، فكانت الحيوانات تحذره في الحقل ، عندما أراد الاخ الاكبر قتله بالسكين المشرعة المسنونة ، فتقول له البقرة : « احذر فان أخاك الاكبر ، يقف أمامك ينتظرك بسكينـه الحـاد ليذبحك » .

وعندما دلف الى داخل الحظيرة ، ورأى أخاه ، اندفع جاريا

بأقصى سرعة وسط البراري ، وتبعه الاخ الاكبر ، فصرخ الاصغر متضرعا الى رع حاراختي : « سيدي الاله ، يا من تملك قدرة عزل الشر عن الخير » .

فسمع لشكاته رع ، جاعلا بينهما بحرا عميقا ضاريا ، عازلا أصغرهما عن أكبرهما ، مملوءة مياهه بالتماسيح الضواري .

ولعلها أيضا نفس تضمينة أو خارقة عزل موسى وقومه عن فرعون وجنوده ، التي ارتبطت ببرزخ السويس حين الخروج .

وعاد الاخ الاصغر ، يصرخ متضرعا لرع حارختي ، قائلا لاخيه : « أتتعقبني لتذبحني بسكينك المخدوع ، ولو حدث لكانت جريمة شنيعة ، جريمة قتل الاخ » .

وطبعا يذكرنا هذا بأول جرائم قتل الاخ لاخيه ، التي يقال انها انما وقعت بأرض دمشق ، حين قال الرب لهابيل القاتل : « والآن ملعون أنت من الارض التي فتحت فاها لتقبل دماء أخيك من يدك » . كما يقال بأن سببها أيضا الصراع على امرأة .

وحين لحق الاخ الاكبر بأخيه ، استلّ سكينه وراح يقطع من جسده ملقيا بلحمه للسمك والتماسيح ، الى أن اختفى تماما ، مخبرا أخيه بأنه ذاهب الى وادي زهور شجرة السنط ، حيث سيعاود الحياة هناك في زهور الاكاكيا ، واذا ما أراد أخاه الاكبر أن يستدعيه ، فعليه أن ينتظر سبع سنوات .

وذهب الاخ الاصغر ليعاود الحياة في وادي شجرة السنط ، التي نام تحتها ذات مرة ، فالتقى بالآلهة التسعة ـ التاسوع ـ التي تشاورت في شأنه الى أن استقر رأيها أخيرا على أن تهبه زوجة جميلة ، فصنع له الاله خانوما أو هانوما زوجة رقيقة ناعمة، الا ان الهاتورات السبعة ، تنبأن له عندما رأينها بأنها « ستموت موتة بشعة » .

ويلاحظ ان كثيرا من أحداث أو تضمينات قصة الاخوين هذه قد تواترت وهاجرت الى عديد من الحكايات والاساطير الفولكلورية السامية من عربية وعبرية . كما يلاحظ انها ما تزال تعيش الى

اليوم في حكاياتنا وخرافاتنا ، مثل ست الحسن والجمال ، ونعناعة ، وبقية الحكايات الاستطرادية وأغاني الاطفال .

كذلك فمن بين الحكايات المصرية التي ما تزال تعيش متواترة على الشفاه ، خاصة بعد أن واصلت هجرتها ، والدخول تحت جلد الكثير من الملاحم والسير السامية ، وهي الحكاية التي ترجع الى الاسرة ٢١ وترجمت عن الديموطيقية باسم « حكاية اهورا » أو هاتور عن ملك مصر المقدس رمسيس العظيم ، الذي كان له ابنا وحيدا يدعى سيني ناخا ، وكان على علم بالكتابات القديمة ، وعندما سمع بأن كتاب السحر لتحوت ، الذي يغني للسماء والارض ، ويحوي لغة الطيور والزواحف ، وان هذا الكتاب مخبأ داخل مقبرة ممفيس ، ذهب الامير مخاطرا للبحث عنه بصحبة أخيه ، وعندما عثروا على مقبرة ابن ملك مصر السفلى ، فتحها الامير ودخلها ، فوجد في المقبرة ابن الملك ومعه روح زوجته اهورا ، وكانا جالسين والكتاب بينهما يقرآن فيه ، وحينما حاول أخذ الكتاب منهما رفضا ، ثم انخرطت الزوجة اهورا تحكي له حكايتها .

فالبحث عن كتاب السحر لتحوت ، يقابله بحث سيف بن ذي يزن عن كتاب النيل ومخاطراته الطويلة في سيرته المعروفة .

وأخيرا ففيما يختص بتراثنا المصري المعاش اليوم وعلاقته بسالفه الفرعوني ، يمكن القول بأن معظمه ما يزال يواصل تواتره وتوالده ، ومنه رائعة أدب الاحتجاج والثورية في تراث العالم أجمع ، والتي ترجع الى الدولة القديمة ، اي منذ قرابة ٦ آلاف عام ، وهي قصة الفلاح الفصيح ، التي صادفتني متنوعاتها في شفاهيات فلاحي الفيوم ، وهي ذات موطنها الفعلي والحفري أو الكشفي .

ولو ان لدى الفولكلوريين المعاصرين معلومات كافية ، عن الملحمة التي أنشدها مصريو الدولة الوسطى في مواجهة الهكسوس الدخلاء ، والتي عثر على بعض مقاطعها مدونة على ألواح تحفيظ الدروس للتلاميذ ، وهو ما يزال متبعا الى اليوم في كتابتنا ،

لأمكن التعرف عليها اليوم ـ ربما ـ تحت جلد سيرنا وملاحمنا ، مثل الاميرة ذات الهمة ، والظاهر بيبرس ، وخضرة الشريفة ، وهكذا .

وفيما يتصل بنصوص التوابيت والاهرامات ، وكتاب الموتى ، يمكن القول بأنها ما تزال محفوظة، في مواويلنا الحمراء ، وبكائيات العديد على الميت ، مثل :

مسيكي بالخير يا عود الانا يا روحي .
ياللي تيابك على الجسم يرد الروحي .
بكره آخد اسمي واسمك واكتبه في اللوحي .
وأعلقه في الهوا الطاير لجل البكا والنوحي .

الفصل العاشر

البناء القبلي ... والفولكلور

يتضح سلسال أو نسق القرابة خاصة في سيرنا وملاحمنا مثل ملحمة حسان اليماني أو الزير سالم ، وعنترة ، وسيف بن ذي يزن ، وسيرة الهلالية .

فالقبيلة حين تتحرك للحرب والمنازلة ، تتحرك حافظة بكل دقة لنسيجها القاربي ، كفرع من الشعب ، الذي هو بالتالي قبيلة سالفة مثل عدنان سكان شمال الجزيرة العربية ، وقحطان سكان اليمن والجنوب ، حين تحالفهما وهجرتهما بحثا عن الزرع والضرع من الجزيرة ، الى الشام ومصر والشمال الافريقي في القرن الخامس الهجري ، وهو ما أرّخت له سيرة الهلالية .

فالقبيلة فرع من الشعب المتحالف ـ عدنان وقحطان ـ مثل قبائل ربيعة ومضر وعدنان ، ومن القبيلة تنحدر العمارة أو البدنة .

والبدنة كما يعرفها الاستاذا ايفانز برتشارد وفورتس ـ وحدة دائمة تظل موجودة على مرّ الاجيال نتيجة لانضمام أفراد جدد اليها ، أو تركهم لها بالموت أو أي سبب آخر . فالبدنة جماعة ترد انتسابها الى جد واحد في خط واحد ، ومنها يستمد الشخص مركزه السياسي والقانوني .

فيلاحظ ان نظام القرابة يهتم بدراسة العلاقات بين الجماعات القرابية كالبدنات وفروعها والعائلات الكبيرة من حيث هي جماعات بغض النظر عن القرابة الفعلية بين الافراد .

وعلى سبيل المثال ، فان قريشا وكنانة ، ما هما الا بدنتين من مضر .

ومن العمارة أو البدنة تجيء البطن ، مثل بني عبد مناف من قريش ، ومن البطن يجيء الفخذ ، ومن الفخذ تجيء القبيلة ، مثل بني العباس من هاشم أو الهاشميين وهكذا .

واذا ما عدنا الى الاستشهاد ببعض النماذج القرابية للهلالية، نجد ان العصب القبائلي الأم المثل في صراعي عدنان وقحطان داخل التحالف ، ينعكس على المستمعين الذين قد يتحمس العدنانيون منهم لخوارق ابي زيد الهلالي ، والقحطانيون منهم لجد الزناتي خليفة ، وابنته سعدى وابنه العلام .

بل ان السيرة تحفظ لقاتل الزناتي خليفة وهو قحطاني سلف بدوره ، لهجرة يمنية سالفة — تابو — ان قاتله لا بد وأن يكون قحطاني مثله .

لذا كان قاتله هو دياب بن غانم وهو القحطاني الذي لقبه الشعب المصري ، نظرا لغدره وعصبيته ، ب « الزغبي » ، ومنه تواتر مثل « هو أنت زغبي » كما يقول د. عبد الحميد يونس .

كذلك يتضح في السيرة ، تقديس الخال عند تلك القبائل العربية القمرية — الهلالية — مثل تقديس الشبان الثلاثة مرعي ويحيى ويونس ، لخالهم أبي زيد . ومثل تعرف كلا من سعدى ومي ، على خالتهم — الجدة — شوه ، التي قد تكون طوطما أو مزارا سالفا ، مثلها مثل الجازية ، التي أتصور انها كانت بمثابة الهة قمرية ، أو طوطم لمجموع القبائل المهاجرة المتحالفة .

كذلك يتضح مدى تقديس الخال المتواتر الى اليوم المشاع بكثرة في الحواديت والشعر الشعبي مثل :

يا عم ياللي بلا خال
تعال أعملك خالي

وأحط قلبي السليم
على قلبك الخالي .
وكذا مسبة من لا خال له .

وهو ما تفرق فيه اليوم القبائل العبرية ، السامية ، التي انتهت في اليهودية ، وتعريفها التشريعي الرسمي داخل اسرائيل الى اليوم في تعريف اليهودي ، وهو كل من يولد من أم — وليس أبا — يهودية .

وبحسب نظرية التوالد الذاتي للموضوعات التي كان تيلود أول من اشار اليها ، وسماها بالموروثات أو الروحانيات أو الانيمزم بمعنى اضفاء صفة الروحية على مظاهر الطبيعة المحيطة بالانسان داخل مجتمعه ، مثل تقديسه لاماكن بعينها ، قد تكون أضرحة لطواطم ، وقد تكون آبار ماء — راكدة — وقد تكونأشجارا وأحجارا! ومغارات وكهوفا وقمم جبال ، وما ارتبط حولها من أساطير وطقوس وتحريمات وحكايات ، أو لنقل أساطير قديمة واصلت توالدها اليوم تحت جلد الحكايات والاحجية . ويحضرني منها آلافا مؤلفة نذكر على سبيل المثال موالا — من نوع الصد والرد — يطرح فيه قائله لغزا أسطوريا ، أو قد تخالط الاسطورة التاريخ فيه — فيقول :

— وان كنت فنان وصاحب فن قوم هاتلي
امارة عن أرض جت فيها الشمس مرة جات.

والمقصود مكان مسته الشمس ونفذت فيه أشعتها مرة واحدة ، وهو يشير بالطبع الى حدث خروج القبائل الاسرائيلية من مصر ، حين ضرب موسى بعصاه فانشق البحر. وكان أن مست الشمس قاعه أو أرضه لمرة واحدة فقط .

كما ان منها مفاهيم وأمثلة وأحجية مثل : « الضربة الواحدة للرجل — ضربة الرجال ما تتناش » ، و « الثالثة ثابتة » ، وعلاقتها بأساطير خلق العالم ، حين بعث الله برسله الثلاثة لاحضار طين العمق — اللاذب أو الصلصال — لخلق الانسان « يوم خلق الله الانسان على شبه الله عمله » . وكذا ما يدور حول مفاهيم أشهر

الجمل التسع ، وخلق حواء من ضلع الرجل ، والسبب في حيض النساء — بالوجع تلدين أطفالا — وكذا سيادة الرجل الذكر على الانثى ، والسبب في ان الكذب يسود الوجه ، وكذا أفكار وتعويذات مثل : الخمسة وخميسة ، العين الحاسدة ، النفس الخالق ، والعائن أو المعيون أو النفس الخالق .

ومع استمرارية أبنية أو أنساق المجتمع ، تظل هذه الظواهر والموروثات تواصل توالدها الذاتي ، بنفس ما يحدث في الاساطير والملاحم والحكايات والامثال ، بل والنكت والاسماء والاحاجي ، أو الخدور والادعية .

وجميع هذه الابنية التي كانت المدرسة الانثروبولوجية بريادة تيلور وتلميذه اندرو لانج ، أول من أشار اليها ، بالنسبة لدراسة الفولكلور .

ومن هنا يمكن القول باسهام جيل الفولكلوريون الانثروبولوجيون في المساهمة الىالمنهج البنائي ، الذي غرضه النهائي الغاء الحواجز التقليدية بين مختلف النظم والعلوم وتكوين منهج يعتمد على كل العلوم والدراسات ، بل ان للباحث البنائي الحق في التعرف على مستويات الحقيقة أو الظاهرة التي لها قيمة استراتيجية من وجهة نظره ويعزلها .

فمهمة الباحث الفولكلوري لا تقف عند مجرد جمع النصوص والكشف عن مصادرها وأصولها ، بل ان مهامه تسجيل ما يحبط بها من ظواهر وأبنية مختلفة من اقتصادية ، وقرابية ، ومهنية ، بالاضافة الى ما تعكسه هذه الابنية فيمجموعها من شعائر وسلوك، قد تبدو لغير البنائيين غير ـات أهمية . من ذلك مثلا تربية الاطفال وتنشئتهم وكيفية التعامل مع المراة ، والمراهقين ، والشيوخ ، والعلاقات الاساسية والمتغيرة بين شخص وآخر .

فمثل هذه النظرة المتكاملة أو البنائية ، تصبح اكثر فائدة ، وأكثر اقترابا من معرفة الظاهرة أو الحقيقة .

فما من شك مثلا في ان لخرافات الجان والندّاهات ملامحها المحلية ما بين قرية وما يجاورها على طول بلداننا في مصر ، ووهاد

وجبال وصحارى بقية البلدان العربية . ونفس الشيء بالنسبة للتعامل مع المرأة والطفل ، والاب الذكر ، أو مثلث العائلة الخالد ، كما سماه فيرث .

وعلى هذا فاذا ما اتفقنا على ان الملمح الرئيسي لفولكلور وأساطير منطقتنا العربية أو السامية ، هو انه فولكلور قبائلي ، ووحدتها القبيلة ، ويعبر عن ذلك بأنها مجموعة منالناس لها بناء اقتصادي محدد ، ينتج عنه بناء ثقافي متكافىء أو لنقل متواز .

واذا ما عرفنا ان من أهم الاساسيات التي تقوم عليها المجتمعات البشرية مبدأ القرابة أو سلسلة روابط الدم أو الزواج، أي نسق الروابط الاجتماعية القائمة على الاعتراف بالعلاقات الجنيالوجية ، اي العلاقات الناتجة عن الارتباط الجنسي الشرعي، وانجاب الاطفال كما يحددها ريموند فيرث الذي يرى بأن النسق القرابي يتحكم — حتى — **في الاوضاع الاقتصادية والسياسية** .

اذا ما عرفنا ان القرابة شيء أساسي لكافة المجتمعات البشرية ، فما بالنا بالنسبة للقبيلة ، التي وكما قلنا هي الملمح الاساسي لفلولكلور وأساطير وتراث منطقتنا بعامة ، المحاط الى اليوم بسياج قوي من الانيمزم ، كما سماه تيلور .

وبكل تأكيد ممكن ، فان في دراسة بنية أو نسق القرابة والانتساب على مستوى المنطقة العربية أو السامية في مجملها ، وعلى أدنى الافتراضات داخل كل مجتمع عربي أو سامي ، أو البدء من منطق الجزئي بهدف المعرفة والاستيضاح للكلي ، وبمعنى أبسط ، يمكن القول بأن في الامكان التوقف طويلا أمام تقليد أو ظاهرة النعي العلني الذي نشهده في صحف موتانا صبيحة موت المرحوم ، وكيف ان الميت ينتمي الى عائلة كذا ، ويتناسب مع عائلة كذا من حيث الام ، وكذا من حيث الاب ، وكذا من حيث — ميكانزم — التزاوج العائلي من داخلي وخارجي .

في دراسة مثل هذه الظاهرة أو النسق ، انفتاح على بنية كاملة ، ووصلت العلوم الانثروبولوجية والاثنولوجية في دراستها لهذا النسق أو البناء القرابي ، سواء على المستوى البدائي أو

القبائلي في مجتمعات العالم خارج الغرب ، خاصة اوستراليا وأميركا اللاتينية أو داخل المجتمعات الغربية المعاصرة ، وصلت الى حد من الدقة الرياضية ، فمثل هذا النسق ـ القرابي ـ مثل بقية الابنية الاجتماعية في تساندها الوظيفي من الاقتصادية والسياسية، بل ان في دراسة أي نسق أو بنية اجتماعية على حدة خاصة أضلاع هذا المثلث الثلاثة التي تتحكم في المجتمع ـ أي مجتمع ـ من قرابية واقتصادية وسياسية ، لن تحقق غايتها الا في تساندها مع بقية الانساق .

فدراسة أي نسق لا يصحّ أن تجري بمعزل عن بقية الانساق والابنية التي تؤلف البناء الاجتماعي كنسق متكامل هدفه تحقيق التساند الوظيفي والطبقي ، وهو ما عرّفه دوركايم بالتركيبات المورفولوجية ، وعرّفه ماركس بالتركيبات السفلى والتركيبات العليا .

ومن السهل تصور ان التركيبات العائلية ، بل لنقل القبائلية، تتبدى بوضوح في ـ نص ـ نعي الميت من تشابك أو اتصالات عائلية أو قبيلية أو بدنته أو فخذته أو بقية الاعضاء العائلية القبائلية يقود الى شجرة العائلة ـ أو نخلتها ـ عند العرب الساميين .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر فان في دراسة البناء القرابي في علاقاته المتبادلة مع بقية الانساق ، تبصير البنية الطبقية الاقتصادية والسياسية ، كما قلنا .

ومن هنا فليس مدخلنا الى دراسة النسق القرابي ، على مستوى العالم العربي أو المنطقة السامية ، بهدف التوصل الى نتائج عنصرية أو ازكاء النعرات القبائلية الطوطمية في معظم حالاتها .

وهو ما تتوسع فيه الدراسات العبرية اليهودية ، ربما بايقاع قرن اثر قرن منذ كوزمولوجي سفر التكوين ـ أصحاح ٤ ـ بدءا بآدم أبو البشر « يوم خلق الله الانسان على شبه الله عمله » . فأبناؤه من بنين وبنات حتى نعمة أو نعيمة في البلاد الشفاهية

الشعرية ـ ثم سلسال نوح وأبنائه وأخصه سام أو شام المطلق على بلاد الشام والساميين بعامة وما توالى من نسله ، لحين بنيان مدينة بابل ، حين قال بعضهم لبعض : « هلمّ نصنع لبنا ونشويه شيا ، فكان لهم اللبن محل الحجر ، وكان لهم الحجر مكان الطين » لحين تبلبل الالسنة خلال بناء برج بابل .

فيلاحظ هنا ، انه بالنسبة للكوزمولوجي السامي ، أو نسق القرابة ، تبدأ شجرة العائلة ، منذ آدم ، حتى نارح ـ الذي يجمع الكثيرون على انه طوطم سلف ـ ونوح ، منسقا ومقربا بين حضارات النسل السامي ، وخارجه مثل عيلام أبو العيلاميين ، وكاشور ، وآرام ، وابنا عامر فاتح وأخيه يقطان ، الذي هو بذاته قحطان ابو العرب اليمنيين القحطانيين ، ملوك دول سبأ ومعين وابنه حضرموت .

وقحطان طبعا ما يزال يتردد الى اليوم ، واليه تنسب عديد من القبائل العربية سواء في اليمن والجنوب العربي ، أو في بقية اقطار عالمنا العربي المعاصر .

بل لقد ظلّ نسق القرابة متواصلا داخل التراث العربي متواترا ، وتصرّ على تدعيمه واحيائه كثير من القبائل العربية الحاكمة ، خاصة في الكويت والسعودية واليمن والجنوب العربي.

ومرة ثانية ، من مدخل تنشيط دراسات نسق القرابة وعلى مستوى بلداننا العربية بهدف استيضاح البنيان الطبقي والقبلي ، لا بهدف التأصيل العنصري المفضي بالضرورة الى الفاشية ، ستوقفنا مثل هذه الدراسات على واقع بنياننا السكاني .

فليكن الهدف هنا ، هو الدخول الى أحد ميادين العصر الكبيرة ، وهو ميدان الاتصال .

فكما يقول شتراوس : « يجب أن تخضع دراسة القرابة والزواج لبعض المناهج التي تنبع مباشرة من نظرية الاتصال .

ولعل الملمح الاساسي لتقدم الانثروبولوجيا الاجتماعية منذ القرن الماضي ، كانت زيادة الانتباه الى البناء أو النسق القرابي ،

ويرجع هذا التقدم الى عبقرية لويس مورجان في كتابه الرائد في هذا الميدان عن « أنساق روابط الدم والمصاهرة في العائلة الانسانية » عام ١٨٧١ ، وساهمت هذه الدراسة في وضع أسس الدراسات الانثروبولوجية والقرابية ، الى أن اكتملت هذه الدراسات في علوم الاتصال ، ثم ما تلا ذلك من جهود العلماء الاجتماعيين في هذا المجال البكر ، مثل لوفي عام ١٩٤٨ ، ومردوك عام ١٩٤٩ ، وسبوشر عام ١٩٥٠ ، ودراسة العالمين الكبيرين رادكليف براون ، وفورد . وجميعها بالطبع تعتمد اعتمادا كبيرا على الدراسات الميدانية ، أي التوسع في جمع المعلومات والبيانات ، وهو ما نطالب به بالنسبة لقيام مثل هذه البحوث في مصر والعالم العربي ، على أن تجيء مثل هذه الدراسات مستهدية ومرتكزة على الجهود الضخمة التي بذلت منذ مطلع هذا القرن ، والتي يرى ليفي شتراوس انها لم تثمر كما يجب رغم غزارة موادها وبياناتها الانثوجرافية المتصلة باختيارات الزواج ، وأنماطه من داخلي وخارجي ومن أبوي وأموي ، بالاضافة الى كيفية تنظيم العائلات والعشائر والقبائل وبقية النظم والمعتقدات الطقسية والدينية واللغوية ، بل ويمكن القول بأنه حتى لعب الاولاد ، أو نظرية الالعاب التي كان كروبير أول من لفت الانظار الى أهميتها عام ١٩٤٢ فساعد في ايضاح النسق القرابي .

ومن المفيد الاشادة بالدور الذي أصبحت تلعبه بعض الدراسات الميدانية في التبصير بأهمية جمع ودراسة لعب الاطفال في بعض بلدان العالم العربي ، مثل العراق والكويت .

وقد يكون للدور الكبير الذي لعبه رادكليف براون بشكل خاص بالنسبة للدراسات البنائية في عمومها ، وبالنسبة للنسق القرابي خاصة ، أهمية جديرة بالتوقف عندها ، ففي دراسته الميدانية ومنهجه في التصنيف بالنسبة لنظم القرابة في استراليا ، أو في اكتشافه القوانين المتحكمة في نظام القرابة عند قبائل كايبرا ، والتي كما يقول شتراوس : « ستبقى الى الابد واحدا من أعظم النتائج في الدراسات الاجتماعية البنائية ١٩٣٠ — ١٩٣١ » .

كما تعتبر مقدمته الرائعة لكتاب « أنساق القرابة والزواج في افريقيا » خطوة متقدمة نحو اخضاع نظم القرابة في العالم الغربي ، لنظرية عامة في التأويل على مستوى عالمي . كذلك دراساته المتفرقة عن مصطلحات القرابة وسلوك الاقرباء : السلوك المصاحب لاطوار العمر الثلاثة من ولادة وموت وزواج . كيف تتصرف الام والاعمام والخالات خلال زواج ابنة أو طلاقها ، أو موتها أو حملها ... الخ .

السلوك المصاحب لعادات الاقتتال والثأر ، أو المصاحب لتصرفات الاسرة أو العشيرة في حالات مولد الاناث والذكور .

ففي أهمية دراسة السلوك داخل النسق القرابي ، كما يقول « لوي » ، ما يشير ويكشف عن جوهر النسيج الاجتماعي ، مثل ملاحظه ظواهر التزاوج الخارجي الاكسوسامي ، وارتباطه من جانب آخر بظواهر وسمات محددة ، مثل تأثير مكان الاقامة أو الحقل الميداني موضوع الدراسة سواء أكان قرية أو مدينة ، أو كانت بيئته بدوية أو زراعية على البنوة ، وعلى عادات المباح والمحظور من التزاوج والعلاقات الجنسية .

ولقد اعتبر شتراوس ان من أغراض نظم القرابة وقواعد الزواج التي يسودها تناسق وظيفتها في اتجاه حفظ بناء الجماعة عن طريق الربط بين علاقات الدم وعلاقات المصاهرة ، بل ومن أهدافها اخراج النساء من العائلات التي ينتمين اليها بروابط الدم ، واعادة توزيعهن على جماعات أخرى .

ففي رأيه ان النساء في أحسن حالاتهن ، أحد مستويات الاتصال ، وعلى ذلك فمن الزواج الى اللغة يمرّ المرء من سرعة اتصالية منخفضة الى سرعة اتصالية مرتفعة .

كذلك استطاع براون أن يصل في دراساته الى وضع مصطلحات أو قوانين لها عموميتها ، ولها ميكانيزماتها المحددة ، سواء بالنسبة للزواج والاحتفالات وسلوك أبناء العمومية في المجتمع الذكوري وأبناء الخالات في مجتمع أموي ، وكذا أوضاع الحموات وأقارب الزوجة والعكس .

ويتفق براون مع مالينوفسكي في ان الروابط البيولوجية وروابط الدم ، هي في ذات الوقت الاصل والانموذج لكل نمط من انماط القرابة ، وان كان لم يرفع نظرية القرابة الى مستوى نظرية الاتصال ، كما فعل شتراوس .

الا انه يتفق مع ماكلينان ومالينوفسكي في أن « تنظيم العائلة الذي يسود فيه حق الذكر في كل مكان ، قد تم بفعل قوة أساسية هي حق الملكية » .

وبالنسبة الى البناءات الطبقية ، وصكوك الملكية ، ونظم التوريث وعلاقتها بالبناء القرابي والمصاهرة ، فان الامر يصبح اكثر وضوحا . فكما يقول وارنر ، فانه « من المستحيل في بعض الحالات أن ينتمي أي فرد تلقائيا لطبقة معينة . ووصل الامر بلويد وارنر الى حد انه افترض ان الاهالي يدركون ويفطنون الى العلاقات البعيدة جدا بالنسبة لنظام القرابة ، داخل انموذج أو طراز « مورنجن » ، الذي انتهى به الى علاقات رياضية أو قوانين، أثارت الكثير من الجدل ، كنظام محقق لحاجات ومطالب الزواج والنظام الطبقي ، على اعتبار ان أولهما في خدمة الثاني .

* * *

وكما هو واضح يتبدى مدى تأثير المجتمع الاموي داخل تراثنا العربي والسامي بعامة ، والعبري — من حيث الدلالة اللغوية الاثنولوجية — نظرا لان التعريف السائد لليهودي الى اليوم داخل اسرائيل المعاصرة ، هو من جاء من رحم أم يهودية .

وتنقصني معلومات عن نظام التوريث والميراث الاسرائيلي . ذلك ان خط التوريث شديد الارتباط بسيادة مجتمع نوعي ما ، سواء كان أبويا أو أمويا . كذلك يرتبط التقويم بهذه السيادة . ومن المعروف ان الارتباط — بالتقويم — القمري عند كلا العرب واليهود الساميين ، ما يزال الى اليوم تقويم قمري مثل السنة أو التقويم الهجري القمري ، المرتبط بالقمر ورؤية الهلال عند كلا المجتمعين — البدويين — الساميين .

وفي حالة التوريث ، يمكن الرجوع الى فكرة الفصل بين الابوة البيولوجية والابوة الاجتماعية ، كما حققها الى حد الحسم مالينوفسكي خلال دراسته الميدانية على بعض قبائل استراليا وسكان جزر التروبرياند في غينيا الجديدة — قبل أن تحقق انقلابها الثقافي الحضاري الاخير — حيث ان الرجل لا علاقة له بانجاب الاطفال ، ولا يعتبر أبا بل مجرد زوج للام ، كل دوره هو ان « يحمل الطفل بين ذراعيه » ويرعاه ويحميه ، ومن هنا لا يرث الابن أباه ، بل ان وريث الاب هنا يشترط أن يكون ابن أخته . فالتوريث يتم عن طريق سلالة الام ، وبذلك يرث الرجل خاله وليس أباه ، كما انه يورث أولاد أخته وليس أولاده .

كذلك لاحظ مالينوفسكي وغيره داخل هذه المجتمعات الأمومية ان في مقدور أي فرد أن يذكر سلسال انتسابه الاموي حتى الجيل الثالث عشر ، دون أن يحفظ ويتذكر اكثر من ثلاثة أجيال أبوية (١) .

ويمكن القول بالنسبة لعالمنا العربي ، أن كلا التوريث والانتساب للجدود يسير في خطين . صحيح ان السلطة للرجال في هذا المجتمع الذكوري ، الا ان الجنة تحت أقدام الامهات . الا انه من حيث الميراث والتوريث يسير في خطين .

وكان لريموند فيرث سبق التوصل والتبصير بهذه الطريقة الثالثة التي لا هي بالابوية الذكورية ، ولا هي بالاموية الانثوية ، وانما هي تجمع بين النظامين ، وعرّفها فيرث بالقرابة المزدوجة أي التي يمكن تتبعها الى أناس آخرين عن طريق كل من الاب والام. كما يمكن تتبع ملامحها عبر مختلف الطرق والابنية أو المداخل ، من لغوية ، واقتصادية أو قرابية تتصل بالميراث والتوريث ، بالاضافة الى رواسب نظام التابو والطوطمية .

ومن المفيد هنا الاشارة الى انه من الصعب علينا كمجتمعات عربية ، أبوية ، تصورنا لامكان استمرار مجتمعات أخرى كثيرة

(١) فورشن وليو أوستن حققا ما سبق اليه مالينوفسكي .

مخالفة يتم نقل السلطة والامتيازات فيها عن طريق الام ، أو السلسال الاموي ، وهو ما يحدث فعلا عند كثير من الشعوب خصوصا البدائية في ميلانيزيا وشمال اميركا وقبائل وسط افريقيا وشمال روديسيا وكثير من الولايات الهندية وجزر الهند الشرقية عامة .

وتذكر مسز أودري ريتشاردز ، التي سجلت دراساتها الميدانية الانثروبولوجية داخل قبائل البامبيا في شمال روديسيا ، ان الحكومة العنصرية شجعت عن طريق الارساليات منع انتساب الشبان الى أمهاتهم ، وتشبها بالاقلية الانكليزية ، عليهم أن ينتسبوا لآبائهم .

كما ان رحيل الرجال العمل في مناجم النحاس ، قضى على عادة أو نسق مبدأ اقامة الرجل في موطن زوجته ، وحتمية أن يجيء من قريته الاصلية وهي المكان الذي ولدت فيه أمه وأخواله .

كذلك كان لفيرث سبق الريادة في دراسة نظام أو نسق الزواج بأكثر من زوجة واحدة ، وهو المثال الشائع في العالم الاسلامي والصين وأجزاء كثيرة من افريقيا خاصة الاوقيانوسية .

وسجل ملاحظاته على النحو التالي ، بأن مثل هذا الزواج عادة ما يمارسه الاثرياء ، وهم عادة رجال تخطو الخامسة والاربعين .

كما ان من أسبابه الاشباع الجنسي ، لا على اعتبار انه مجرد شهوة ، ولكنه اشباع لما يمكن اعتباره رغبة طبيعية ، بالاضافة الى ما يتصل بالمحارم الجنسية ، وتابو تحريم ونجاسة المرأة بعد الولادة الذي قد يمتد لعدة شهور ، ويستلزم منع الاتصالات الجنسية بها .

بالاضافة الى علاقة تعدد الزوجات ، بارتفاع عدد الاناث عن الرجال وبالاسباب الاقتصادية ، وهجرة الزراعة ، وزيادة القوة المنتجة ، وارتفاع صيت الرجل . فالعائلة المتعددة الزوجات هي عبارة عن عدد من الاسر الصغيرة المتميزة ، والتي يكون فيها الزوج ملتقى عدة مثلثات لها أب واحد مشترك ، في موقع الجد السالف .

وبالنسبة للسلفية ، تلك التي عرفها شيخ المؤرخين رأحد

فلاسفة التاريخ ، ارنولد توينبي ، بأنها سباحة ضد تيار الزمن والتاريخ ، فيبدو ان جدلية الحياة ، أو لنقل حركة التاريخ اليومية ، تدعو الى تزيين السلفية ومن وجوه عدة ، لعل أبسطها جاذبية الرخاء القديم الغابر « حين كانت البيضة بمليم ، ورطل اللحمة بكذا . وتتمثل عند العرب عامة في الافراط بكاء على الاطلال ، والزمن المنقضي .

ومن جانب آخر تتمثل السلفية في سحر اللغة ورونقها ، ولنقل سحر عصور وأحقاب بعينها لازهى عصور الخلافة العباسية ، والتوقد العقلي للهلينية ، والشوامخ من فحول الشعراء العرب ، ومشكلي عصر النهضة العظام .

كما ان أقصى جاذبيتها تتبدى في الاساطير والتحليق في رومانتيكية العقل الغيبي ، المضاد والمعادي في ذات الوقت للعقل كهدف أخير للتاريخ .

ويا له من عالم رائع ــ من حيث جمالياته البحتة ــ عالم الاساطير المكبل بسلطان العادة والتوارث .

منذ أساطير خلق العالم والانسان الاول أو القديم أو الاديم ، المصاغ من طين العمق ولازبه .

فالسلفية هنا جزء من التصور القبلي ، ذلك الذي لا يقف عند الاحياء ، بل هو يمتد خلفا في أغوار الماضي التاريخي الاسطوري خاصة تراثنا العربي السامي ، شاملا الموتى قبل الاحياء ، فالارض هي أرض الاسلاف والجدود ، وهو ما لا يزال يشاع بكثرة في أغانينا المعاصرة خاصة في ربع القرن الاخير . كما ان مثل هذا التصور لا يبعد كثيرا عن التصور الطوطمي الافريقي حيث ان طوطم العشيرة البدائية كان رمزا وشعارا للعشيرة الخالدة مشتملا على الطوطم السلف والخلف في وحدة شاملة تعبر عنها أساطير وأغاني وأمثولات القبائل البدائية .

ومن هنا فكلا الاحياء والاموات يوجدان الجماعة أو الامة ، مع ملاحظة الانتساب اللغوي الى الانثى الام ، بل ان أدنى الوحدات

الاجتماعية للامة أو القبيلة ، يطلق عليه البطن ، والفخذ ، والرحم .

ويمكن القول بأن حالة الانجذاب هذه نحو السلفية ، سماها الكثيرون بحق بحالة الهستيريا ، ومحاولة استحضار الماضي وطبعه على الحاضر ، وهو ما يتمثل في التصورات الشمولية الى النازية والفاشية والصهيونية .

الفصل الحادي عشر

التابو والفولكلور

طبيعي أن لا تقتصر دراسة « التابو » على الباحث الاجتماعي ، نظرا لانها تصادف جامع ودارس الفولكلور ، سواء على المستوى الادبي أو الشفهي ، وعلى مستوى الممارسات والتقاليد عامة .

ومعنى التابو ، ذلك الذي ينتمي في المجتمعات البدائية للقوانين الطقوسية الخالعة ، المحوظة بالملوك والرؤساء والكهنة المقدسين ، والذين اتفقوا فيما بينهم على بعض الحالات ، مثل ما يحكم قتل الانسان وأحزانه وهواجس الام عند طفلها ، والصياد في مواجهة البحر والفريسة وهكذا . لكن الرجل البدائي لا يفرق بين حالة وما يخالفها ، والمستقبل العادي بالنسبة له يمتد على مجمل حياته ، وهو في مجمله مليء بالاخطار والمخاوف ، فالخطر الذي يواجه به الآخرين قد تغلفه وتتملكه الروحانيات والاشباح ، ومن هنا تتدخل التخيلات . فالخطر على أية حال ، لا يقل عن الواقع ، اذ انه واقع يغذيه التخيل . والخيال — على أية حال — بالنسبة للانسان له نفس الدور الجذاب الذي يلعبه الواقع .

وتغرق بحار التابوات وقنواتها مجمل حياتنا اليومية بشقيها الصاحي والنائم . فلكل حركة وكلمة وفعل تابواته ومحرماته .

للبدء تابواته وللنهاية . وهو ما تزايد خطره واستفحل الى

أن وصل في السنوات الاخيرة الى حد طبع به مجمل حياتنا وعلاقاتنا على المستوى المدني والرسمي ، فأصبحت تعويذاته تتصور الخطب والتقارير اليومية والوشايات ، والشكاوى ، وطلب الحاجات .

ومن هنا تفجرت شرايينه ونفذت دون سدود أو حدود الى أجهزة الدولة وأنشطتها المختلفة ، حتى أنشطة الاعلام الداخلي والخارجي :

فلبداية — أي بداية منذ الكلام والفعل والكتابة حتى الولادة — محرماتها وتابواتها .

وللنهاية — أي نهاية سواء أكانت وصولا أو تذييل خطاب أو نص أو أكل أو وفاة — طقوسها ومحرماتها ، وممنوعاتها .

ومن هنا أصبحت تنقسم حياتنا هذه المعاصرة الى مباح ومحظور ، أو حلال وحرام . واذا ما عرفنا ان المباح والممنوع أو المحلل والحرام ، قد مر بمرحلة طويلة من الدراسة والاجتهادات العلمية للتعرف على الكيفية التي قسم بها العالم القديم الحياة في عموميتها الى مباح ومحظور ، وهل هو مجرد رمز شعوري أو لا شعوري تشكل بمقتضاه الذهن البدائي والغيبي وما يزال يواصل سريانه داخل مختلف المجتمعات ، من متحضرة ونامية ، خاصة مجتمعنا العربي ، سالفة ومعاصرة .

فكلمة تابو كلمة بولونزية تعني الممنوع أو « ذلك الذي لا » تعرّف عليها المبشرون والرحالة والمستكشفون الاوروبيون منذ أواخر القرن ١٧ خاصة كابتن كوك ، تتردد بكثرة شديدة ، بنفس الكثرة التي يسمع بها الزائر الاوروبي لمصر ، كلمة « بقشيش » ، وهي تنطبق في بعض هذه الجزر مثل تاهيتي تافو (TA 700) وبطريقة أقرب الى تعبير « تفو » المتداولة في لغتنا تعبيرا عن الرفض والقرف .

ويؤكد التقارب اللغوي الاشتقاقي بين تابو — وتفو — تعريف د. مارجريت ميد للتابو في دائرة معارف العلوم الاجتماعية ، من انه تعبير يشير الى الموقف السالف .

ومنذ ذلك التاريخ دخلت هذه الكلمة الى اللغات الاوروبية ، فاستخدمها كتاب عصر التنوير أو القرن ١٨ ومنهم جاك جان روسو .

الى أن شغلت كلمة تابو هذه فيما بعد عديد من المشتغلين بالعلوم الاجتماعية أو الانسانيات زمنا طويلا . وهل المقصود بالتابو هو اتيان أفعال مباحة أو مقدسة ، والاقلاع والامتناع عن أفعال أخرى محرمة أو ممنوعة ، مثل لمس أشياء أو الذهاب الى أماكن بعينها ، أو حتى مجرد النظر أو الشم او السمع الى أشياء أو وجهات أو منازعات أو حروب بعينها .

والملفت ان مكتشفي القرن ١٧ للعالم خارج الغرب ، مثل كوك وغيره ، قد تحرجوا في المطابقة بين التابو وبين المقدس ، وذلك لملاحظتهم ان النظام الذي يحدده التابو يتصل بمعاملات وممارسات الرجل ابتداء من الجنس ، حتى عادات الولادة وتربية الاطفال ، والحروب ، وعادات الطعام ، كأن لا يسمح لشخصين بالاكل معا على مائدة واحدة ، وكذلك لا يسمح للمراة مشاركة الرجل طعامه ، بنفس ما كان يحدث داخل مجتمعاتنا اليوم الى أيامنا هذه .

والملفت هنا ان تحريم أكل المراة مع الرجل عندنا ، على اعتبار ان المراة — هنا في بلدنا — ككل كامل ما هي الا حريم أو حرام أو حرمة أو محرمة — وهو ما يطلق على طريقة أخذ الوش والبكارة .

عدم مشاركة المرأة للرجل الطعام ، بل والكثير من الافعال ، مرجعه كما سبق أن أوضحنا ، انها مدانة وأقل منزلة منه ، كما يتبدى في أساطير الخلق والخطيئة والسقوط والسامية . وهو على عكس وضع المرأة في تلك المجتمعات البولونزية ، التي فيها تحتل المرأة وضعا أعلى منزلة من الرجل ، بحسب ما تشير به أساطيرهم وتقويماتهم الامومية الى اليوم .

ونظرا لكثرة تدخل التابو — من محلل ومحرم — في حياتهم ، فقد استغرقت دراسته حيزا كبيرا داخل مختلف مجتمعات ومؤسسات هذه الجزر المتعددة .

فزارتهم عشرات البعثات المتعاقبة لدراسة مجمل أنشطة حياتهم وشعائرهم الحرية الدينية ، التي يقيمهـــا ويتحكم فيها التابو . فحتى المعاملات اليومية من تجارة واستثمار وعمل أخضعت لنظام التابوات المتوارثة السائدة .

وما أن تجمعت المواد الميدانية أو الخام التي جمعها الرحالة والمبشرون في القرن الثامن عشر لدى الدارسين الاوروبيين حول ظاهرة ، أو النسق البنائي للتابو في تسانده الوظيفي ، وعلاقاته المتبادلة مع بقية الانساق مثل البنـــاء الاقتصادي والسياسي والقرابي ، حتى نشطت حركة دراسات ملفتة حول هذا النسق داخل مختلف المجتمعات ، خاصة مجتمعاتنا العربية سواء في غرب آسيا أو الشمال الافريقي أو بالنسبة للفات السامية ، وأخصها المعاصرة العربية والعبرية ، أو على مستوى الممارسات والنظم الاجتماعية والسياسية ودورهما في حماية الملكية والميراث والتوريث ... الخ .

فعن طريق الاستغراق في دراسة مختلف الانشطة والتصورات التي يحكم ناصيتها التابو ، داخل هذه المجتمعات البولنزية ، أمكن التوصل الى ان الكثير من مختلف العادات والممارسات التي ما تزال تواصل سيطرتها على مختلف أنشطة الذهن والمخيلة البدائية عند مختلف القبائل والشعوب — خاصة في عالمنا العربي — مثل طرق القسم — أو الحلفان — سواء بالآلهة أو الموتى أو الاشياء والاماكن المقدسة ، ومنها أجزاء الجسم البشري ، مثل الشعر ، والعينين ، والفرج ، ومثل الدعاء والتوسل بحلول الكوارث والمصائب بالآخرين والاعداء ، وهو ما كان يحدث بكثرة مفرطة وعلى مستوى مختلف مؤسساتنا في حروبنا الاخيرة مع — الاعداء — مثل الفرنسيين والانكليز ، بل واليهود في أيامنا هذه .

فحين كان أئمة المساجد وشيوخها ، يواصلون تنغيم دعائهم على الاعداء — الاسرائيليين اليهود — على طول مساجد مصر والعالم العربي ، وعلى مستوى أجهزة الاعلام الاليكتروني ، كان المهتمون بدراسة الظواهر الاجتماعية ورصدها في مختلف عواصم الغرب

— الامبريالي — وعن طريق رصد مختلف طرق — تابو — الدعاء على الاعداء ، توصلوا بالطبع الى نتائج مخزية حقا ، كما اشارت بهذا الصحف الغربية بكثرة .

بل ان دراسة طرق وقنوات التابو ، كشفت عن ان الكثير من بقايا الممارسات السحرية التي ما تزال تواصل سريانها ، مثل الشبشبة ، والكلمات السحرية ، وحرق واحراق وافساد تماثيل الاعداء الورقية والطينية والمصنوعة من العجين — وهكذا ..

بل ان متنوعات التابو شملت كيفية التعامل مع المواسم المختلفة والشهور ، وأيام الاسبوع السبعة ، وما يصاحب بعضها من ممنوعات — السبت عند اليهود ، والاحد عند المسيحيين ، والجمعة عند المسلمين — وهكذا .

فيلاحظ انه على الرغم من ان الالتفات للتابو لم يعرف فيما قبل العصر الفيكتوري بالنسبة للمجتمعات الاوروبية ، الا انه واصل سريانه داخلها حتى فيما بعد الثورة الصناعية ، بل هو أيضا تحكم في مخيلة الطبقات الشعبية الاوروبية . ويمكن القول بأن العصر الفيكتوري كان واقعا بدوره تحت تأثير « الذهن التابو » . فكانوا ينظرون للمرض على انه جريمة أو خطيئة ، وقالوا بأن « المريض مكانه السجن » .

* * *

وبالنسبة للمرأة يشمل تابو النظر لها كمحرم عند مجمل الشعوب الشرقية الى حد رفض .. الانثى — في مطلقها العام كنوعية — وهو ما عبر عنه في الاخوة كرامازوف بطل ديستويفسكي ، الاب الرافض « فيدور بافلوفتش » في حديثه التهكمي مع الراهب « هل تعلم ان زيارات النساء في — دير — جبل اتوس ، ليست وحدها ممنوعة ، وانما يمنع هناك أيضا وجود الاناث من أي نوع من أنواع الحيوان ، فلا دجاجة ولا أوزة ، ولا أية عجلة صغيرة يمكن أن يحتمل وجودها هناك ؟ » .

ولعل أخطر التابوات عندنا — في مصر والمنطقة العربية —

هو ما يتصل بالمرأة والجنس ، سواء على مستوى الرجل بالمـــرأة أو الرجل بالرجل ، أو المرأة بالمرأة .

فنحن ما نزال ننظر للمرأة تبعا لتواتر النظرة الحجريــــة أو الطوطمية ، أو الاسطورية السالفة ، عـــلى اعتبار انها منبت الخطيئة الام ، كذا شملها التحريم أو الحرام أو الحريم والحرمة (فاعتبرت من المحرمات) وربط التابو بين النظر اليها والخطيئـة على اعتبار ان « العين تزني » .

وفي تقديري انه لو كانت هناك دراسات علمية جادة تغطي تابو المرأة على مختلف مراحله وأبعاده ، لاصبح في الامكان التوصل الى نتائج مفزعة سالبة ، تتصـــل بأفرع النشاطات الابداعيـــة والانتاجية والعقلية ، لعل أبسطها هنا تصورنا لمدى التخلف الذي انتهت اليه ، نتيجة لظروف القهر والادانة المنحدرة الممتدة مـــن عصور ما قبل العلم . وبالطبع والضرورة يواصل هـــذا التخلف تفريخه داخل الاسرة التي هي نواة وركيزة المجتمع الاولى .

كذلك ستقودنا الدراسة الى مدى العلاقة الوثيقة بين تابـو المرأة والجنس ، وبين آفة الانفجارات السكانيـــة المهددة التـــي تعانيها شعوبنا ، خاصة في مصر .

ويلاحظ انه قد يبدو للوهلة الاولى ان جدلية العلاقة بيـــن تابو المرأة أو الحرام(HARAM)كما تنبه اليه وسماه روبرت سميث منذ مطلع هذا القرن ، وبين الانفجارات السكانية المخيفة التـي أصبحت تتهددنا .

وبمعنى آخر ، هل يؤدي تابو المرأة والجنس المتــــواتر منذ منبعه على طول منطقتنا العربية وأخصها مصر ، الى خدمة النسق أو البناء السكاني ، أو ان ما يحدث وتؤكده احصاءات الامم المتحدة هو العكس ؟

بل ان في الحلول المتعسفة التي مداها التحلل الجنسي ، في اتجاه عقلنة هذه العلاقة ، والتي يلجأ اليها الغرب ومجتمعات مـا فوق التصنيع ، هدفها الاخير بالطبع هو التوصل الى انضباطـات سكانية بالغة الدقة .

كذلك ستوقفنا مثل هذه الدراسة الى الارتباط الشديد بين معوقات وتابوات الجنس وبين تخلفنا العقلي والحضاري .

ولا يمكن تصور مدى الارتباط بين حلول تابوات وموروثات الجنس ، وبين الاندفاعات العقلية والحضارية في العالم المتقدم من حولنا بشقيه الاشتراكي العلمـــي ، والرأسمالي الامبريالي . فما يحدث حولنا من ارتباط بين الجنس والثقافـــة ، ممثلا في مختلف الانشطة من نوادي، لمجلات ودوريات وكتب وأفلام ومسرح وسينما وتلفزيون ، وتربية وشارع وسرير ... الخ ، لا يحـدث اعتباطا أو انحلالا كما يدعي الجهلاء الفاشست المخربون .

ولعل في ظاهرة انفكاك وتفجر تابوات الجنس في الخفـاء والظلام والزحام ، بالشكل والكم الذي نشهده ونعرفه جميعـا ، ما يشير بوضوح الى ظواهره المرضية . وكلنا يعرف الى أي مدى تتحـــول وسائل المواصلات ـ خاصة في القاهرة ـ الى حالات جنسية جماعية .

ففي الوقت الذي يصعب جدا على الرجل أو الشاب التعرف بامرأة أو فتاة ، خلال زحام الاوتوبيس ، يمكن له بسهولة ممارسة عملية أو علاقة جنسية شاذة دون عناء سواء تمت هذه العمليـــة ظهرا لوجه أو ظهرا لظهر ، فيشترط في هذه الحالة الغامضـــة ـ المرادفة لممارسة الجنس فيالظلام والخفاء ـ أن لا تلتقي العيون، ويتعرف الواحد الآخر ، أو يتعارف الطرفان ، أو حتى تتلاقـــى عيونهما في نظرة خاطفة .

* * *

ولعل أكثر الحالات أمنا ، والتي لا يعيرها الكثيرون التفاتا ، هي حالة الشذوذ النسائي أو البناتي ـ السحاق ـ وهي أقـــل حالات التابو عندنا . وتبدو كما لو كانت طبيعية أو غير متصورة ، على عكس ظاهريتها في الغرب الملفتة جـــدا ـ كتابو ـ خاصـــة انكلترا وأميركا .

فاذا ما تعمقنا قليلا في جدلية العلاقـــة بين تابوات الجنس

والزحام فيمدننا ، لهالنا ما وجدنا انها ردة ـ لا شعورية ـ لمراحل الاباحة ـ وليس القباحة ـ التي مرت بها مجتمعاتنا التي قدست عشار والتعشير منذ ٦ آلاف عام .

ولوجدنا أيضا انها حالة يمكن تصنيفها مع ظاهرة الثقافة أو المواقف المضادة التي تتمثل أول ما تتمثل في النكت والنكت الجنسية بشكل خاص ، في تلخيصها لرغبات دفينة ، وفي مجابهتها لمختلف الضغوط ـ الفوقية ـ والممنوعات أو التابوات ، ممثلة في الموقف الرافض المضاد للعرف ـ المثالي أو العاطفي ـ للمجتمع المغلق .

وبالنسبة لتابوات اللغة ، فكما يقول مالينوفسكي (١) ، فان اللغة ـ أي لغة ـ لا تلعب فقط دور الحارس والحامي للاسطورة والاديان بعامة ، بل ان اللغة في حد ذاتها لعبة الحكم والحافظ الامين على الاوضاع الطبقية والاجتماعية .

ويذكرنا هذا على الفور بمدى سيطرة عائلة اللغات السامية ، التي انتهت اليوم في العربية ـ الفصحى ـ والعبرية ، وكيف انهما ما زالتا الى اليوم مكبلتين أو هما حارستين للتراث أو الاساطير ، أو الوهم كما يسميه كافكا .

كما ان هذا يذكرنا بمدى اكتمال اللغاتالسامية فيالفصحى، واتساع رقعتها ، لدرجة أنهت بها ، أو هي اكتملت فيها مجموعة الحضارات السامية .

وقد يكون في تابوات الفصحى ومنمنماتها اللغوية ما يحفظ الى اليوم اضفاء صفتي القداسة ومعاكسها من نجاسة وشؤم ، على الجهات الاربع الاصلية ، والتي في أدنى صورها ما هي الا اربعة أركان التابوت ـ العهد ـ وملائكة العرش الاربعة المكلفين بالخلق والموت والقيامة والرسالة ، وهو ما يتواتر الى اليوم في

---

(١) عالم انثروبولوجي روسي ولد في كركوف سنة ١٨٨٤ ودفن في نيوهافن سنة ١٩٤٢ . تحول الى دراسة الانثروبولوجيا علىالفور ، حين قرأ الاجزاء الثلاثة الاولى من موسوعة فريزر الشهيرة « الغصن الذهبي » .

الموروث الشعبي ، بالاقطاب الاربعة ، وهم : قطب الغوث ، والبلاوي ، والرجال ، والمتولي .

ويصل الامر الى اضفاء شطري التابو من مباح ومحظور على بقية أضلاع ـ المكعب ـ من ارتباط أسفله بالسفالة أو الواطىء الواطي . وأعلاه ، كما يعلو الهامة والرفعة ـ من ارتفاع ـ مرادف السمو ، والتسامي أو السامي ، بما قد يذكرنا بتسمية الساميين ـ سمو وسماء ـ من عرب وعبريين .

بل أن أخطار التابو ـ اللغوي ـ على التنمية من بشرية أو عقلية أو حضارية ، تصل الى حد اعتبار طريقة أو أسلوب نطق الكلمات ومقاطع الحروف في اتجاه الحفاظ على اللهجات المحلية ، أو لنقل المفرقة في المحلية الى حد اعتبار كل قرية أو كفر أو عزبة أو أدنى أشكالها تجمع سكاني ، له لهجته وتعابيره الخاصة به . الحافظة له أدنى أصوله وجذوره الطوطمية .

ومن هنا يكون للتابو كعيب أو شيء معيب أو ممنوع دوره الحافظ ، المتسق الاخلاص مع المجتمع المحلي القبلي التعصبي ، حتى في حفاظه على لهجته ، وايقاعاته اللغوية ، مثل عده نطق نهايات الكلمات في بني سويف مثل : عايز آ ، ومنا ، ويا ، بدلا من ياه . أو طريقة قلب حرف ـ الياء ـ الى ـ ألف ـ في واحة أو اقليم الفيوم ، المتاخمة ، مثل قول : عايز آه . وفا ومناه ، بدلا من : عايز ايه ، وفين ، ومنين ، الخ .

وعلى هذا يصبح عيبا وتابو مثلا لمواطني بني سويف وقراها النطق على الطريقة المعتادة في تأكيد نهايات الكلمات ، كما يرى نفس العيب على قرويي الفيوم حين يتساءل قائلا : ـ ليه ؟ بدلا من لا ـ وهكذا . بل ان تابو الحفاظ على ـ عادة ـ اللهجة ، يصل الى حد ادانة كلمة حضارة أو الحضور ، فحين يقدم متحدث مثلا على تغيير طريقة نمطه ، قد يخجله آخر على الفور قائلا :

ـ انت بتتكلم زي الحضور ، أو عاملي « حضري » .

ومن هنا فالحضري أو المتحضر ظل أقرب الى الرفض خاصة

في مصر الوسطى ، وقد يقول له سائله ساخرا :

ـ انت بيتهلي . ويبدو ان أصل كلمة « تيهلي » متواترة من « توهني » بمعنى التيه والتوهان .

فالحضري أو التحضر ، غير مستحب ، أو هو أنموذج لا يصح التمثل به . وتحفل الحواديت والحكايات والامثال بآلاف النماذج مثل « من نسي قديمه تاه » .

وفي قصص الشطار وخرافات الجان ، عادة ما يأخذ ابن زوجة ـ الملك ـ الحضرية أو المتحضرة ، جانب الخصم الظالم المعتدي ، بل هو يقف في صف أبناء الظلام والشر ، في مواجهة بطل الحدوتة ـ الموعود ـ أو المكشوف عنه الحجاب ، المضطهد ابن الزوجة الفلاحة ، أو البدوية ، ابن النور المنتصر .

وطبعا واصل مثل هذا الموروث، المدعم بسلطة العادة والتابو، نموه داخل عديد من أنظمتنا الثقافية ، كأفلام السينما ، ودرامات الراديو الرخيصة ، منذ زينب حتى الليلتان ، ليلى بنت الفقراء ، وليلى بنت الاغنياء .

* * *

ولعل التكنيات والاستعارات هي آفة اللغة ـ أي لغة ـ وبالنسبة للغتنا تصل الى اخفاء اسم الاناث عامة ، خاصة الام والخالات . أو في حالات التخوف من الحسد ، كأن يكنى عن المولود الذكر واسمه بالانثى واسمها ، أو في حالات الترفق ـ شيمة اليوتوبيا السامية بعامة والاسلامية بخاصة ـ كأن يكنى عن الاعمى بالضرير، والعوراء بكريمة العين ، والاصم بثقيل السمع ، والمريض بالعائف أو المعيون أو المنفوس أي المحسود . وقد يقال في بعض المناطق حين السؤال عن مريض بأن « اشيته ـ شيئه ـ بعافية » أو انه « بعافية » فقط ، وفي المدن : راقد ، وتعبان . وكذا عن الميت ، بالمتوفي ، وتعيش انت ، والمرحوم ، والبقية في حياتك .

وبالطبع يمكن الاستطراد الى حد الادعية ، سواء بهدف جلب الخير أو الشر ، بتعاويذها وأعمالها السحرية ، والتي يعتبرها

« كراب » مادة مثقفة متهافتة هبطت الى أوروبا غازية مستشرية من البحر الابيض حملها اليهود والعرب الساميون .

ويمكن الاستطراد الى تابوات أسماء وممارسات بلاد وأماكن بعينها على طول بلداننا العربية ، وكذلك بالنسبة للاوقات ، وفصول السنة وأشهرها ، مثل شهر طوميه « خلا الصبية كركوبة » ، وازدهار المحاصيل في برمهات « روح الغيط وهات » .

وتعرض الكثيرون للتابوات المصاحبة لمأثورات البنات والطيور والحشرات والهوام ، وشعائر الطقس ، التي سماها « فان جنب » بشعائر الانتقال .

وبالنسبة للقسم أو ـ الحلفان ـ أفرد الشاعر عالم الاساطير روبرت جريفز ، مؤلفا هاما من ٣٤٠ صفحة ، يعاد نشره الى أيامنا هذه ، منذ أن نشره جريفز وجمع معظم مواده من مصر وبقية بلدان الشرق الادنى .

وقبل الاستطراد لكتاب جريفز الشيق ، يمكن القول بأن القسم في معظم أحواله أقرب الى التابو ونظامه ومغلقاته ومحرماته. وهو أيضا في معظم أحواله قد يكون مضحكا .

ويبدو ان أقدم نماذجه موجودة في حضارات الشرق الادنى السامية ، منذ الفراعنة والبابليين والعبريين ، مثل القسم على جثث الموتى والتفرس في وجوههم ، والقسم بالآلهة ، والقسم بالطواطم من نباتات وكواكب وليل ونهار ، والقسم بأجزاء الجسد البشري من بطن لفرج لعينين لشعر ومقاصيص ، ومن أقدمها قسم الاله ـ يهوه ـ لنوح وبنيه من الساميين : « وضعت قوس في السماء لتكون علامة ميثاق بيني وبينكم » . وقسم يعقوب ـ أو اسرائيل ـ لابنه اسحاق بأن وضع يده تحت فخذه مقسما ، وهو ما لا يزال شائعا الى اليوم .

ولا حاجة هنا الى تأصيل القسم ، فكما يقول روبرت جريفز فان القسم قديم قدم اللغة .

وفي رأي جريفز ان الايمان والاعتقاد في القسم ، مرتبط بفكرة ادانة أو ـ قباحة ـ المرأة الانثى الام .

وعلى هذا فكثير من الحضارات والاقوام ، لم تعرف القسم ، مثل حضارات الهنود الاميركيين الحمر ، في بيرو والمكسيك ، ومثل الاستراليين ، وقبائل البوشمان في افريقيا ، وبعض المجتمعات ذات الميول الثقافية .

ولعله في الامكان القول بأن مركز الثقل بالنسبة للدراسات ونتائجها أو تقنينها العلمي المختصة بالتابو ، قد انتقل منذ أواخر القرن الماضي بشكل مطرد الى اليوم ، من الجزر – البدائية – البلونزية الى عالمنا العربي ، سواء الشمال الافريقي خاصة – اللغة والريف – المراكشي ، أو في الجزيرة العربية ، والجذور الحضارية – واللغوية – السامية .

شارك فيها جيش من الرواد الاوائل أمثال : ماريت ، وفريزر ، وتيلور ، وفرويد ، ودافيد سون ، وسبنسر ، ورادكليف براون ، وسنيث ، وروبرت سميث ، والاخير هنا هو فرانز شتيز – ١٩٥٢ – ١٩٠٩ – وأهميته هنا انه انثروبولوجست متخصص في الساميات .. أو عالمنا العربي متضمنا الجانب العبري .

ووجه شتيز أقسى نقده ومعارضته لنظريات سميث التي ضمنها موسوعته الهامة عن الاديان السامية . أما شتيز في دراسته عن التابو ، فيرى انه « ليست كل التابوات تنتمي لاغراض دينية » كما ذكر روبرت سميث .

الا ان شتيز أشاد بالجوانب اللغوية في دراسات روبرت سميث ، الذي تنبه الى ان أصل تسمية تابو ، لا ترجع الى استخدامها الى اليوم بنفس هذه التسمية ، بل هي ترجع في أصلها ومنشأها الى لغتين ساميتين ، فاليهود استخدموها بمعنى Kadesh قدس أو المقدس ومنها جاءت تسمية القدس أو المدينة المقدسة ، وأيضا قدس الاقداس داخل أخفى أماكن المعابد سرية . والعرب استخدموها بمعنى حرام وحرم وحريم وحرملك وحرمة وهكذا .

ولقد شارك أيضا في هذا البحث اللغوي رائد التحليل النفسي فرويد متصورا هو أيضا – ان كلمة حرام العربية هي بذاتها قادش أو المقدس اليهودية . بينما قدس أو المقدس هي

أيضا كلمة عربية كما هو معروف . فهي كلمة سامية استخدمت بكثرة في النص العبري للاسفار الخمسة – البنتاتوك – .

ولقد لاحظ روبرت سميث ان قادش بمعنى المقدس في اللغات السامية على عكس تابو التي تشير الى الحرام والتحريم والمحرم أو الممنوع ، عند البولونزيين .

فعند العرب الاراضي المقدسة حرم مكة أو حمى الطائف ، ومن حمى القبيلة ، تواترت كلمات حميه أو الحمية وحماية .

ولا يصح هنا اغفال ما توصل اليه روبرت سميث الذي أولى اهتماما فائضا للتابو في موسوعته الكبرى عن الاديان السامية خاصة فيما يتصل بمفهومه عن « عدوى » التحولات الامية .

وفي رأي سميث انها كلمة سامية مشتركة ، قبل أن تكون بولونزية ، وانها مرادفة لكلمة – مقدس – في اللغات السامية ومنحدرة من جذرين لغويين ساميين .

واستخدمها فرويد بمعنى قادش Kadesh ، فمعنى الكلمة العربية حرام ، تقابل الكلمة العبرية قادش ، ووردت بهذا المعنى والرسم في البنتاتوك أو الاسفار الخمسة في العهد القديم .

ومنها اسم قاديشا ، وهو ما كان يطلق على معابد البغايا في اسرائيل ، فكان لسميث فضل طرح المقارنة اللغوية بين الكلمة البولونزية « تابو » ، والعبرية السامية عامة « قدس » أو مقدس . الخ .

وتعرض سميث للجزيرة العربية حيث يوجد الكثير من الاماكن المقدسة ، وحيث كان يحرم المساس بأي شيء طبيعي مثل الجبال والاشجار ، بل وحتى الممتلكات الشخصية كأن ينظر اليها على انها ممتلكات الله التي خصّ بها ممثليه أو من اختارهم ، وهو ما يتبدى بخاصة في تراثي الحرمين مكة والطائف ، أو حرم مكة وحمى الطائف : حيث حتم الغاء الممتلكات الشخصية داخل القبيلة ، فللقبيلة حماها الذي قد تحدده تلال أو جبال ، وداخل الحمى الارض والزرع والكلأ وموارد الماء ، مشاع للجميع .

كما تعرض — لنذور — النوق أو الجمال السائبة ، وضرب مثلا بناقة صالح والرعاف كعقاب .

فكان المفروض فيالاماكن المقدسة أن تترك الاشياء والممتلكات والنذور ، فقط لاستخدامات الآلهة ، محاطة بالشعائر التي تمنع من أن يستخدمها — الناس — الآخرين ، الا بطرق معينة ، وكثيرا ما يحرم استخدامها نهائيا .

فليست كل التابوات تنتمي الى أغراض دينية كما يقول شتيز معارضا سميث .

واستخدم قوانين النظافة بتوسع منذ الاستنجاء والوضوء حتى تابو المرأة الطامث ومن لمس جثة ميت . ويرى سميث الذي استغرقه المنهج أو البحث المقارن ، انه استطاع خلال أبحاثه الطويلة المضنية في الاديان السماوية المقدسة ، التوصل الىنوعين من التابو رصدهما بالتحديد من الكتاب المقدس .

فالانسان — السامي أو العربي — تحتم التابو الا ينظر اليه كمقدس ، بقدر ما هو يتقي أخطار قوى ما فوق الطبيعة ، وكاتقاء لغير المقدس والاشياء غير المتطهرة أو النظيفة أو المباح استخدامها. وضرب لذلك عشرات الامثلة ، التي نعيشها ونعاشرها بالطبع وبالضرورة دون التفات كاف لها . نكتفي منه بهذا المثال المتصل بحتمية الطهارة بعد الجماع ، والا ظل الانسان غير نظيف وبالتالي محرم أو غير مقدس .

كما تعرض لمفهوم النجاسة وعدم لمس أشياء بعينها مثل الكلاب والخنازير وأجساد الموتى والمرأة الطامث ، ومن لم يتطهر بعد الجماع من الجنسين ، على اعتبار انهما نجسين .

كذلك عدّد روبرت سميث ، خلال دراساته على مختلف المجتمعات السامية ، كثيرا من الاشياء التي لا يجب أو يصح المساس بها ، والتي هي في حكم التابو مثل : الرداء الكهنوتي ، والاواني والاوعية ، لانها في حكم الممنوعة أو الخطرة . ومن المدهش اكتشافه بأن هناك طريقتين متناقضتين مختلفتين تؤديان ذات الغرض أو المسلك وهو اضفاء صفة القدسية التي تستوجب

التحريم المحاط بأخطار التابو ، التي قد تستوجب — حتى — أبشع أنواع القتل والاغتيالات .

واستخدم سميث مثلا متداولا بيننا نحن العرب الساميين حين نقول : « مبروك على الارض » . وانتساب الحذاء للارض الام . ثم ما يتصل بالمسالك نحو الاحذية والمداسات . وكيف ان مسبة مخلوع النعل، وابن مخلوع النعل في اسرائيل و فلسطين كان تعني المهان المضطهد بمعنى الخارج والمدان والنجس . كما أورد في أماكن عدة في التوراة (١) عن الكيفية التي يجب أن يحرك بها المرء حذائه على حذائه (٢) على أرض يطأها للمرة الاولى (خروج ٣ — ٥) وما يصاحب هذا من تابوات البدء المصاحب للدخول يا ساتر . ويا أهل البيت . ويا أهل الله . الخ ..

ويمكن القول بأن تنبه روبرت سميث لفكرة العلاقة بين التابو والمقدس ، كان له التأثير المشع في عديد من أفرع الدراسات الانسانية ، من اجتماعية لاثنولوجية لتوراتية خاصة بالنسبة للاسفار الخمسة ، بالاضافة الى جهوده في دراسة الاديان — السامية — البدائية .

وكالعادة تعرضت نظريات سميث لكثير من النقد ممن جذبهم حقل التابو والدراسات السامية ، مثل دراسة سنيث Snith عن « أفكار مميزة عن العهد القديم ١٩٤٤ » حيث ركز انتقاداته العنيفة له ، وان ظل حبيسا لما سبقه اليه سميث ، خاصة في مجمل دراساته عن العلاقة بين التابو والمقدس ، على كلا مستوياتها الثلاثة المختلفة التي تبدت في البنتاتوك البدو الساميين الرحل ، قائلا أو مشيرا الى ان المعنى يفهم من التعبيرات والممارسات الثقافية . ذلك انه معنى — أو ممارسة — قبلي مغلق ، معدّ لفئة

---

(١) وردت بكثرة في التلمود الاورشليمي الفلسطيني ، وفي ممارسات وادانات خلقية وسلوكية .

(٢) ممارسات وشعائر التصرف حيال الاحذية منتشرة في السلوك المنزلي العربي ، وفي المساجد . بما يتقابل ويتعارض مع أغطية الرأس ، سواء على كلا النسقين التابو ، والشعائر أو الشعارات الطوطمية ، منطرابيش وعمم وطواقي وحطات ، الخ .

قليلة ، ويجري على ثلاثة مستويات من حيث المعنى لا تتغير في هذا التراث . وحاول سميث أن يرى التوراة من وجهة نظر العبري العـــادي .

أما الدراسات التوراتيـــة لهربرت سبنسر وآرثر تيـــلور « الثقافة البدائية » ، وفريزر في « الفصن الذهبي » ، والمجلدات الثلاثة عن الفولكلور في « العهد القديم ونظريات العهد القديم » لدافيـد سون .

والاخير أولى اهتماماته لكلمة « قادش » وعلاقتها بالبابلية والبوذية ، وتوصل الى انها تعني « فصل » أو انفصال . فالاشياء ـ والممتلكات ـ التي تنتمي للآلهة وخص بها البشر ، تشير وتؤكد الانفصال أو الاختلاف بين الله والانسان .

ثم تعرض دافيد سون لعلاقة المقـــدس بالعادي (صموئيل ٢٢ ـ ٢١) وعلاقتها بحلل وحلال والاختلاف بينهما ، خاصة في حزقيال ٢٢ ـ ٢٦ ، ثم علاقة حلل بالكلمة العربية ، حرر (أعطى الحرية) في عدد ٢٠ ـ ٦ وأرميا ٣١ ـ ٥ .

كذلك تعرض لقادش وحرام ، ولاحظ ان في طنجة لو لمس أحد الاهالي جثة ميت ، يظل تابو ١٠ أشهر . كما تعرض بالنقـد لنظرية رادكليف براون عن القيم الشعائرية والعقاب ، مرورا بدائرة الخطيئة والعقاب . كأن ينظر للاطفال حديثي الولادة على انهـم غير نظيفين متطهرين ، ويتم التطهر بالقائهم في النيران المشتعلة ، فالوليد الحديث مثله مثل الميت الحديث . ومن يحمل جثـة في نيوزيلندا ، يدهن باللون الاحمر ، فالاحمر هو اللون التابو هناك . وفي جزر هاواي وتاهيتي وطنجة يحرم على الرجل التابو ألا يقرب امرأة أو يطهو طعاما .

ويتفق دافيد سون مع فريزر في النظر للتابو خاصة مـن خلال الشعائر الدينية بالاضافة الى المدنية ، انه منحدر من الحيوانية ونظم الكهف ورؤساء القبائل بما يخـدم أغراض حقوق الملكيـة والتوريث وحفظهما ونظم الزواج .

أما فرويد في « الطوطم والتابو » فربط بيـن قانون الملكية

ـ على المستوى الطبقي ـ والملكية الجنسية بما يحتم اطاعة الاوامر .

أما ماريت ، أهم نقاد فريزر ، فقد أشار الى ان أفضليـة فريزر تمثلت في الربط بين السحر والتابو ، على اعتبار ان السحر يحتم تجنب وتحريم اتيان أفعال وأشياء محددة ، لكنه عاد ثانيـة فأشار الى ان أول من حقق هذا الربط بين السحر والتابو ، هو د. تيلور في أبحاث في التاريخ المبكر للجنس البشري عام ١٨٦٥ .

فلقد كان تيلور أول من أشار بوضـــوح ، خلال تعرضـه بالدراسة لبعض المجتمعات المحددة ، للعلاقة بين التابو ثم ذلك الارتباك والخلط في الربط بين الموضوعي والذاتي . وأورد تيلور قائمة طويلة بأفعال وأعمال ، تتصل بالفوز والنشاطات الجنسية والشعائرية . وكما يقول تيلور فان كثيرا من الاطعمة البدائيـة الاصل ، تعتمد في شيوعها على ما يشاع عنها وحولها من أكداس من الخزعبلات .

وهو ما لا يزال عندنا حول الفواكه والاطعمة ، مثل « النث » أو الفحومة المرتبط بطهارة الفم ، عقب ـ تابو ـ الشخير ، ومثل العلاقة اللغوية بين الجوع ، وبين الجوع ضاع ، ومثل نبات القرع ـ المقدس ـ عند العرب الساميين ، وكـذا الجميز والجوافة ، وتحليل أكل الضب والزواحف الصحراوية عند البدو ، والقبائل العربية ، وتحريم نفس هذه الزواحف في البلـدان الزراعية ، والجبليـة .

فالاعتقاد منصب على ان قيم الاكل تسري خلال الاكل .

واستنادا الى ما يقوله د. تيلور فقد وصلت اباحة الاطعمة وتحريمهـا الى حـد الاعتقـاد عند كثيـر مـن القبـائل الاميركية ـ اللاتينية ـ بتحريم أكـل لحوم الحيوانات الاليفة أو الجبانة ، اعتقادا في ان خصائصها الجبانة ستتسرب لآكلهـا ، ولهذا فضلوا أكل لحوم النمور ، والايائل أو المهر البري المتـوحش من اناث الخيال البرية ، والخنازير البرية ، لشجاعتها وسرعتها وما تتميز به من خصال تسري خـلال جسد آكلها . وحرموا الحيوانات الجبانة من ماعز وأبقار .

ويقودنا هذا الى العلاقة بين السحر والتابو عند فريزر ، خاصة في مقاله بدائرة المعارف البريطانية ونشره بالطبعة الثالثة من المجلد الثاني لموسوعة « الغصن الذهبي » وفيه يقول : حوالي عام ١٨٦١ عندما كلفني صديقي وليام روبرتسون سميث ، أن أكتب مقالا عن التابو للطبعة التاسعة من البريطانية ، كتبت من وجهة النظر السائدة للانثروبولوجيين والتي كانت قاصرة على دراسة الجنسين الاسود والبني لشعوب الباسيفيكي ، وسرعان ما انتشرت الملاحظات الدراسية والميدانية البولنزيين ، وكان من واجبي أن أعدل وجهة نظري ، فالتحاليل التي طرأت على نظام الخزعبلات بعامة لا تقتصر على المجتمعات الهمجية بقدر ما هي ممتدة داخل المجتمعات المتحضرة ، فالتابو ما هو سوى واحد من الانظمة المعادية للخزعبلات داخل مختلف المجتمعات والاجناس تحت مختلف المسميات والتفاصيل لابنية المجتمعات المركبة من مختلف الوجوه من دينية واجتماعية وسياسية ، لاخلاقية واقتصادية . ولقد ضمنت هذه النتيجة مقالتي ، ولقد ضمنت آرائي بعامة عن الموضوع ، صديقي روبرتسون سميث ، المنشورة في موسوعته عن الدين السامي ، ومن هنا فان أهمية التابو ونظامه في التغير الديني والاخلاقي في نظم الحكم والميراث ، أصبحت موضع الملاحظة . واتخذت مكانها الجديرة به داخل الانثروبولوجيا المعاصرة .

اما ما عالجه فريزر فيمجلده الثالث من « الغصن الذهبي » : « التابو وأخطار الروح » ، فيمكن تلخيصه على النحو التالي : بأن هناك أربعة أفعال أو أشياء تابو أو محرمة هي :

١ ــ الافعال المحرمة ، الاشخاص ، والاشياء ، والكلمات .

وبالنسبة لممارسات التابو أو المحرم ، نجد تابو التعامل مع الغرباء (١) .

---

(١) سواء حملات الاستعمار او التبشير ، التي لعبت الدور الرئيسي في التعريف وجمع المعلومات والملاحظات الميدانية الفولكلورية وثقافات ما خارج الغرب .

٢ ــ خلال الطعام والشراب .

٣ ــ خلال رؤية الوجوه .

٤ ــ المنازل وخراب المنازل ــ خلال الصيام عن الطعام .

ثم تابو الاشخاص :

١ ــ الرؤساء والملوك .

٢ ــ الندابون .

٣ ــ حيض النساء والولادة .

٤ ــ المحاربون .

٥ ــ القتلة .

٦ ــ صيادي الوحوش والاسماك .

بالاضافة الى الاشياء المحرمة وهي : (١) الحديد . (٢) الاسلحة الحادة . (٣) الدم . (٤) الرأس . (٥) الشعر . (٦) احتفالاتالحلاقة. (٧) تقليم الشعر والاظافر. (٨) البصاق. (٩) الطعام . (١٠) الخبط والطرقوالاجراس . (١١) حيوانات التوراة المحرمة مثل الجمال والخنازير .

وأخيرا الكلمات المحرمة وهي : (١) أسماء الاشخاص . (٢) أسماء الاقرباء . (٣) أسماء الموتى . (٤) أسماء الملوك والاشخاص المقدسين . (٥) أسماء الآلهة . (٦) كلمات عادية .

وعلى هذه الافعال والاشياء والممارسات التي حددها ، أقام فريزر نظريته في الربط بين السحر والتابو ، والانتهاء الى انه ــ أي التابو ــ نوع من السحر السالب .

وهي النظرية التي تعرضت لاشد الهجوم وأقساه ، خاصة من ماريت وغيره ، مما دفعه الى تعديلها مرات ، كما حدث في خطابه لروبرت سميث .

* * *

وأخيرا فاذا كان هناك من قول بأن للتابوات ، كنظام أو مؤسسة ، دورها الوظيفي أو النفعي داخل المجتمع ــ على اعتبار ان التابو ، كنسق أو بنية اجتماعية يحقق مع بقية الانساق ،

ويتساند معها في دورها الوظيفي أو النفعي لتحقيق مضمون البناء الاجتماعي كنسق عام متكامل ، وهو ما يدعو بالنسبة لمجتمعاتنا المعاصرة الى كل سخرية ، فلعل في اغراق المجتمعات القديمة في تابوات المرأة والجنس ، جانبه النفعي الدافع في اتجاه تحديد النسل البدائي مثلا ، لكن ومن الصعب تصور مدى العادم والخسارة التي يسببها التابو بالنسبة للانفجارات السكانية اليوم ونقص الانتاج ومشاكل نقص الطعام التي تعاني منها شعوبنا .

واذا ما أخذنا مثلا بسيطا ، وليكن التابوات المصاحبة لطرق ذبح الحيوانات والطيور عن طريق اراقة دمائها ، وعدم الاستفادة من هذا الدم ، بنفس الطرق المتوارثة منذ الكلدانيين العراقيين أي منذ ٥ آلاف سنة الى اليوم .

ولعل الكثير من تابوات ومعتقدات أولئك الكلدانيين الذين انتهوا في فلاسفة وكهنة حران بسوريا العليا ، ما تزال سارية في تراثنا الى اليوم ، منها انهم كانوا أول من ربطوا بين أعمدة الحكمة السبع ، وبين سبعة أيام خلق العالم ، وسبعة أيام الاسبوع ، والكواكب السبعة السيارة ، فقد جعلوا يوم الاحد للشمس واسمها ايليوس أو شمس ، ويوم الاثنين للقمر ، وهو نفس اسمه البابلي والكلداني سن ، ويوم الثلاثاء للمريخ ، ويوم الاربعاء لعطارد ، واسمه نابق – ميركوري – ، ويوم الخميس للمشتري (جوبيتر) واسمه بل أو بعل ، ويوم الجمعة للزهرة واسمها بلتي أو بعلتي أو عشتار ، وهي ما أصبحت فينوس عند اليونان ، ويوم السبت لزحل واسمه كرنس أي ساترن أو كرونس .

كما انه من الصعب تصور السالب والعادم الذي يسببه التابو ، بالنسبة للصحة العامة ، مثل اخراج طعام الملائكة ووضعه في أريافنا الى جوار جدران المنازل ، وبدلا من أن تلتهمه الملائكة يتحول بالطبع الى حشرات وأوبئة وجراثيم يعاني منها ريف مصر خاصة والريف العربي عموما أشد المعاناة .

كما انه من الصعب أيضا تصور مدى سيطرة التابو على الذهن البدائي ، ممثلا في عادات حفظ النصوص والترنم بها لتحقيق

غايات واحتياجات ، قد تكون عصبية ، الا انها في نفس الوقت منافية ومعرقلة لكثير من الطاقات الابداعية .

فالسكينة أو الطمأنينة التي تضفيها مثل هذه الترنيمات ، أقرب الى السكون منها الى الحركة والبحث ، والديناميكية والاقتحام، وهو ما يتنافى كلية مع أهداف التربية – البيداجوجيا – المعاصرة والحديثة .

الفصل الثاني عشر

اللغة ... والفولكلور

من المفيد لجامع ودارس الفولكلور الاهتمام بدقائق – فونيمات – اللهجة أو اللغة . واللغة مثلها مثل الكائن البيولوجي الحي تخضع للتغيير ، بل هي تتغير فعلا ، وبأسرع مما نتصور ، مثل ما يحدث للغات الحية من حولنا . فما بالنا بلغتنا العربية ، التي لا نكفّ عن تمجيدها والتغني بجمالياتها ومحاسنها دون سلبياتها ، وكأنها من المقدسات .

ودعاة الإبقاء على اللغة والنظر اليها كنوع من المحرمات أو التابو الذي لا يجب أبدا مساسه ، بل ومجرد مناقشته واخضاعه للحتميات العلمية والحياتية التي نعيشها ، والا وجب علينا أن ننفق ، فهم – بحق – دعاة جمود .

فتغير الحياة وميكانيكيتها الجديدة في نقل الصور ، يحدث بالقطع تغيراته بالنسبة لادوات الاتصال جمعاء ، وأخصها اللغة . وكما يقول عالم اللغويات ستيوارت فليكسنر كبير المشرفين على اعداد معجم – قاموس – راندوم هاوس للغة الانكليزية فان الكلمات التي نستخدمها تتغير اليوم بسرعة أكبر – ليس فقط بالنسبة للعامية ، لكن بالنسبة لكل مستويات استخدام اللغة . وان السرعة التي أصبحت تظهر بها الكلمات وتختفي قد تزايدت بشكل حاد ،

وما يصدق على اللغة الانكليزية في هذا الشأن يصدق أيضا على الفرنسية والروسية واليابانية ، وبالطبع العربية .

ويرى فليكستر ان وليام شكسبير قد يبدو أميا اليوم ، فعلى أيامه لم يكن عدد كلمات اللغة المفهومة يتعدى ٢٥٠،٠٠٠ كلمة ، أما اليوم فالعدد يصل الى ٤٥٠،٠٠٠ كلمة . فبالنسبة الى الانكليزية استبدل حوالي ٢٠٠ ألف كلمة وربما أضعاف هذا العدد ، على مدى القرون الاربعة المنصرمة ، بل واستنادا الى آراء هذا اللغوي الكبير ، فان معدل التغيير داخل اللغة وتواصلها قد وصل الى معدلات هائلة حقا ، منذ ما بعد الحرب العظمى الاولى ١٩١٤ ، وذلك نتيجة لثورة المواصلات ، وأخصها الراديو والتلفزيون .

بل ان التغيير لحق حتى مدلولات اللغة ، فأصبحت كلمة ـ أسود ـ المهينة تعني القوة السوداء ، بالاضافة الى استخدامات لكلمات الخنافس ، والضفادع ، والجاموس البري ، والثعالب ، والكلاب السخنة وهكذا ، ومما تستحدثه فرق الجاز والروك ومسارح الشوارع وغيرها ، وتسجله اسطواناتها من كلمات كانت تعد خارجة أو ممجوجة لتصبح على الفور كلمات مشهورة جدا .

والملفت ان مثل هذا التغيير الموازي للسرعة الاليكترونية لا يلحقنا هنا في مصر والعالم العربي بشكل كاف .

كيف ؟

فاللغة عندنا ، ما تزال الى أيامنا هذه مكبلة بالاساطير وابنيتها اللغوية . والاساطير تحكم حياتنا .

وكما تقول الآنسة لينا ماكليد ، فان آفة اللغة هي الاساطير .

وهناك مدرسة كاملة تعرف منذ منتصف القرن الماضي بالمدرسة الميثولوجية لدراسة الفولكلور ، أو لاتخاذ الفولكلور ـ برمته ـ مجرد خلفية للتبحر في الاساطير ، وذلك منذ يعقوب جريم ومن سار في فلكه من الدارسين الالمان ، منهم مانهاردت وشفارتز وألبيرت كون ، وأعلاهم باعا هنا هو الالماني الاصل الانكليزي المعرفة والثقافة ماكس موللر .

ووصل بألبرت كون في استخدامه لهذا المنهج الى حد بناء نظريته بكاملها (١٨١٢ ـ ١٨٨١) التي اكتملت في كتابه « أصل النار وشراب الآلهة » كعالم لغوي في كلا الالمانية والسنسكريتية ، شارحا أسطورة بروميثيوس اليونانية الذي جاء بالنار من السماء الى الارض ، فقط من خلال تعقبه اللغوي لاسم بروميثيوس ، وصلته بالكلمة أو الاسم السنسكريتي براماتياس .

وعندما تقدم بكون السن ، وضع كتابه عن « مراحل نمو الاساطير » ، أو مراحل تطور تكوين الاساطير لغويا .

وسار على نفس الدرب رواد هذه المدرسة اللغوية الميثولوجية عن الاصول ـ اللغوية ـ للاساطير ، والميثولوجيا الدينية بعامة ، مثل شفارتز ، ورأس منتصف القرن الماضي ماكس موللر ، في محاضراته في علم اللغة ، والاساطير المقارنة ، وهو في نظريته عن الاصل ـ اللغوي ـ للاساطير ، وسماه بعلة اللغة ومرضها من كنايات ومترادفات واستعارات ومتشابهات الخ .

وطبعا لا حاجة هنا الى شرح لوغاريتمات وطلاسم لغتنا ـ الجميلة ـ العربية ـ من نصب ورفع ومطلق وكل ما يتصل باعرابها نسبة الى يعرب أبو العرب الساميين ، وينسب له انه أول من تكلم العربية وكان من فحول اللغويين الطبقيين المتبحرين في الاعراب ، فهو القائل : « وليس جمع خيرا من جمع ولكن جد خير من جد » .

وكما يقول العالم الانثروبولوجي الروسي الاصل برونسلاف مالينوفسكي (كركوف ١٨٨٤ ـ نيوهافن ١٠٤٢) فان اللغة ـ أي لغة ـ لا تلعب فقط دور الحارس أو الحامي للاسطورة ، بل ان اللغة هي في حد ذاتها لعبة الحكم والحفاظ على الاوضاع الطبقية الاجتماعية .

وبالطبع يذكرنا هذا ، بمدى سيطرة مجموعة اللغات واللهجات ـ للعائلة ـ السامية التي انتهت وتبلورت في العربية ـ الفصحى ـ والعبرية . وكيف انهما ما زالتا الى اليوم مكبلتين ، أو هما

حارستين للتراث الاسطوري ، أو الوهم كما يسميه كافكا ، غير مدرك لدوره أو المصلحة المناطة به طبقيا .

كما يذكرنا هذا بمدى اكتمال روافد لغات العائلة السامية في الفصحى واتساع رقعتها ، لدرجة أنهت بها عديد من الحضارات السامية وغير السامية ، مثل الحضارة المصرية الفرعونية التي ـ لا بد ـ وانها مرت بتغيرات كمية ربما منذ أواخر الدولة الوسطى ، لحين دخول العرب مصر وسيادة العربية فيما بعد .

وكما هو معروف فقد أطلق الساميون واشتقوا من لغاتهم اسمائهم وأسماء أعلامهم وتقويماتهم ، فتسمية الساميين نسبة الى سام بن نوح وأصله في العربية والعبرية سام أو شام أو شم .

كما ان جده الاعلى ، الانسان الاول آدم ، نسبة الى أرض ادوم ، التي اكتشفتها منذ سنوات قليلة ، البعثات الحفرية العاملة في الاردن وبادية الشام .

ولفظة آدم تعني أديم الارض، كما انها تعنيالانسان ـ الاديم ـ القديم ، وارتباطها باستمرار الحياة يعني الحاجة للطعام أو الادام (١) .

اما زوجته حواء فيشير اسمها الى الحياة والحيوات ، وبما ان حواء كانت قد جلبت الخطيئة الاولى وما أعقبها من طرد من الفردوس أو جنة عدن ، نتيجة لتوحدها بالحية ، وهي المخلوقة الوحيدة المستأثرة بالحياة والحيوات ، نتيجة لقدرتها على تجديد جلدها كما يرد في ملحمة جلجاميش الذي يدعوها بـ « أسد التراب » ، بعد مخاطراته ورحلاته العبورية للحصول على ماءالحياة أو مية الحياة ، أو نبات يعيد الشيخ الى صباه ، فكان أن سرقته الحية ، وبهذا قدّر للحية تغيير جلدها ونيل طيلة العمر ـ بدلا من الانسان القديم .

وطبعا ترتب على طرد حواء من الجنة أو الفردوس عسابها الشهري المثل في الحيض وسيادة الرجل الذكر عليها : « تكثيرا

(١) يطلق على السمن المخزون ، ادام في ريف مصر .

اكثر أتعاب حملك ، وبالوجع تلدين أطفالا ، والى رجلك يكون اشتياقك ، وهو يسود عليك » .

ثم ذلك العداء الازلي الرباعي بين الرجل والمرأة والحية والشيطان : « انزلوا بعضكم لبعض عدو » .

وحواء الاولى هذه هي بذاتها اناثا أو اناث أو أنثى ، كما وردت بنفس هذا الاسم منذ السومريين اللاساميين ٤ آلاف عام قبل الميلاد ، واكتمل اسمها في روافد اللغات السامية القديمة ، الى أن وصلنا اليوم نفس الاسم ، بل والادانة الاجتماعية ـ أنثى ـ على اعتبار انها أدنى منزلة ، وتعقلا من الرجل كامرأة ـ أو مره ـ أو أنثى « ناقصة عقل ودين » الخ .

مع ملاحظة ان أقدم أشكال العبادات البدائية تمثل عند عديد من مجتمعات العالم القديم ، وما يزال محفوظا الى اليوم والآن في لغتنا الاسطورية مثل عبادة « الرحم » الخالق ، ومنه كما أشرنا في جزء هذا الكتاب الاول ، تواترت اشتقاقات العودة للرحم (١) في رحمة ومرحوم بل وحرام وتحريم ، ثم أسماء الله الحسنى رحيم رحمن الخ .. ، وأسماؤنا عبد الرحمن ، رحمة ، رحيم ، رحمي . الخ ..

أما فيما يتصل بابليس أو الشيطان أو الجني الذي أغوى حواء ، وعديد من الزوجات مثل « برهة » زوجة نوح التي أشعلت فلكه نارا قبل أن يكتمل بنائه ٣١ مرة . ومثل « رحمة » زوجة النبي أيوب نبي الادوميين ، حين استجابت بدورها لغواية الشيطان أو الجني .

فالجني كما هو واضح من الاشتقاق اللغوي ، حارس الجنة ، ومنه يتواتر الجنون . وهو عادة ما يسكن كشيطان شطئان البحار والمستنقعات وآبار الماء بل والرأس مسببا الجنون ، كما قالوا بأن الرأس مكمن الخطايا . وجاءت صياغته من مادة أعلى منزلة من تلك

(١) وهو ما يكتمل فلسفيا اليوم في عدمية مسرح وفكر الكاتب الايرلندي الاصل الفرنسي الثقافة صمويل بيكت .

التي صيغ منها الانسان القديم ، آدم من أديم الارض أو طين العمق ، فهو قد صيغ من نار ، على العكس الكامل من حواء ، التي ترد في الاساطير الكنعانية الفينيقية أدنى منزلة من الرجل ، حين خلقت من الضلع السادس للرجل ـ آدم ـ أو ايل الكنعاني وهو اله الساميين الفينيقي الاصل المتجبر ، الذي عرفه اليونان في كرونس ، والذي تنسب له عادة التضحية بالابن البكري بل والوحيد ، حين ضحى بابنه الوحيد وسمي بالفعل ـ وحيد ـ عندما اجتاح الطاعون مدن الشام ، فأحرق وحيده تشريفا لابيه أورانوس ، وهي شعيرة وجدت بكثرة مفزعة الى أقصى مدى أي بمئات الالوف المؤلفة ، ويفسرها البعض بنوع من تحديد النسل البدائي أو الهمجي . بل وظلت سارية ومتأصلة الى ما بعد مجيء الاسلام . وطبعا ما تزال بقاياها سارية حتى وقت قريب ، حتى فيما يتصل بوضع طفل أو نحره في أساس المنشئات الدينية ، بل والتي دخلتها الآلية كماكينات الطحين ، وربما يكون يوسف ادريس قد سمع أو انه لحق مترادفاتها الى أيامنا هذه .

بل ان الاسم المفضل لبطل السينما المصرية ـ خاصة فريد الاطرش وأنور وجدي وعبد الحليم حافظ ـ هو « وحيد » وهو احد عوامل ترويج الفيلم المصري في الشام في الخمسينات .

أما في أساطير العرب واليهود فان الله استخدم الرواسب الطفلية في صياغة حواء الاولى في الميثولوجيا العربية والعبرية .

والاخت الثانية من بنات الله الثلاثة ـ اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ـ فالعزى كانت النار ، ومعناها في اللغات الكلدانية والبابلية النار ، أما معناها في العبرية والعربية القديمة فهو الشدة أو القوة ، الى أن عرفت الى عزه ومشتقاتها فيما بعد ، العزه ، ويعزز وعزوه وعزه ، وهو اسم أصبح يطلق على جيل ما بعد ثورة يوليو من البنات ، ربما كنتيجة لتشديد زعيمنا الراحل عبدالناصر في استخدامه واطلاقه منذ ١٩٥٦ .

أما شقيقتيها : الاولى ـ اللات ـ والثانية مناة ، وهما أيضا بالنسبة للعرب والعبريين من أصول سومرية وأكادية وبابلية ،

بأكثر من ألفي عام . فاللات تأنيث الله في اللغات الساميةالقديمة، كما أن الاسم منى أو مناة أو منوات ، فله مترادفاته واشتقاقاته ، منها منى ، ومنية ، ومني ، ومنها جبل منى الى اليوم في السعودية .

وجمعها طبعا منايا ومنوات ، وهو ما لا يزال يُفرق الشعر العربي الى اليوم .

ومن بين أسماء الآلهة التي حفظتها اللغة وخاصة الفصحى ، اسم « بعل » ، وهو اسم اله أو صنم ، أصبح لقبا بمعنى زوج أو سيد . وكان الساميون الاوائل وخلفائهم العرب والعبريين ، يلقبونه ـ بعد أن أطلقوه على كل مظاهر الطبيعة من حولهم ـ سيدنا ، وهو ما لا يزال الى اليوم بالنسبة لانبيائنا وأضرحتنا ومزاراتنا .

وحين استقدم صنمه الكاهن الخرافي المداح الشاعر عمرو بن لحي الجرهمي ، ونصبه حول الكعبة فيما قبل الاسلام ، سماه هبل ـ بضم الهاء ـ أو هو بعل وهو ما تواتر الىهبل ـ بفتحالهاء ـ بعد أن حطم صنمه أو تمثاله المسلمون وتحولوا عن ديانته ، فكان أن أصبح اليوم هبلا ، أو خيبة .

وبالنسبة للاسم ـ هاجر ـ الذي يرد في ملحمة أو مديحة سارة وهاجر ، وهي الزوجة الثانية التي تزوجها الخليل ابراهيم ـ ايل ـ وأنجب منها اسماعيل أبو العرب الشماليين في نجد والحجاز ، فيبدو ان مشتقات الاسم تواترت فيما بعد الى هجرة ـ الزوج ـ للزوجة الثانية ، اكثر من ارتباطه بالهجرة أي هجرة هاجر وابنها اسماعيل بكر ابراهيم الى مكة أو أرض فاران ، بعد أن غارت وطردتهما الضرة ـ أو الضارة ـ سارة ، الالهة الام لقبائل ابراهيم المهاجرة .

لكن اسم هاجر يرتبط بكونها الزوجة المهجورة أو المضطهدة، سواء أكانت زوجة أو جارية ، فعلى هذا تعارف على ـ أيتم ـ تصنيفها في الفولكلور العالمي .

ومن اشتقاقات اسم هاجر ، ما يزال يتواتر ــ نسائيا ــ تعبير ان فلانة زوجها هجرها ، وانها أصبحت هجارة أو هجالة أو مهجورة .

أما سارة ، فينسب لها الرداء النسائي المعروف بالساري الهندي ، ومشتقاته من يسر ومره ، وسار وثائر وثار .

ويكنى عن الاسم ابراهيم ، بأبو خليل ، أي خليل الله أو صفي الله ــ ايل ــ بالسريانية . ابرا معناها صفي أو خليل ، وايل هو كبير الآلهة السامية ايل ، ويرد بهذا الاسم فعلا ــ كبير ــ في حفائر بيلومي ، ورأس شمرا ، وقرطاجنة ، وكريت .

ولقد خلف كبير الآلهة السامية ، ايل هذا اسمه على كثير من الاماكن التي ما تزال مقدسة في سوريا ولبنان وفلسطين واسرائيل بـ « بيتل » وتعرف بشكل مضغم أو « بيتول » ومنه تواتر تعريف مريم بالعذراء البتول ، أي التي تنتمي الى بيت ايل أو ايلات ، ومن اسمه كما ذكرنا جاءت تسمية اسرائيل ، وملائكة العرش وأسماء الاعلام العربية والعبرية والمسيحية ، مثل صموئيل وجبرائيل وميخائيل أو ميكائيل (انجلو) ودانيال أو دانييل ، وسعدئيل وسعدية ، ووائل ، وكامل ، وأميل .. الخ .

وكما ان ــ كبير ــ كانت تسمية لاله أو صنم فأصبحت صفة ، كذلك ــ ملك ــ كانت اسم لاله أو صنم أو طوطم عند قبائل ثمود البائدة أو المندثرة فيما قبل الالف الثالث ق.م. ، وكانت أنثاه الالهة او الكاهنة ــ الموس ــ مولك عند العمونيين سكان عمان . ومن الاسم الاسطوري للاله أو الصنم أو الطوطم « ملك » تواترت بالضرورة ملكية ، والملكية والتمليك والتوريث كانت الهدف الاول للعالم القديم ، فهو « اما مباع أو مشترى » ، بل ان هذه القبائل من عبدة القمر ، قد حفظت لها اشتقاقاتها اللغوية اتخاذ صلات القرابة والرحم وأطوار العمر المختلفة من أسماء قمرية مثل : قمر ، ونجم ، وهلال ، وعم ، وجد ، وكهل ، وهي كلها كانت أسماء للآلهة القمرية منذ العرب البائدة في الجزيرة العربية ، عند الآلاف

المؤلفة من قبائلها وعشائرها التي عرفته باسمه السومري « س » واسم « شهر » .

كذلك حفظت لهم روافد اللغات السامية ، تقديس جهة اليمين ، التي أطلقوها ليس فقط على اليمين ، بل على كل ما هو واقع على يمين القبلي ، ولذلك شملت تسمية اليمين الشام بأسره ، ومنها تواتر أهل اليمين ، واليمن ، والميمنة الخ ...

ويذكر تيلور (١) ان تقديس الناحية أو القبلة التي يولي الناس وجوههم شطرها وهم يمارسون أعمالا معينة لها أهميتها في حياتهم ، ولهذه الطائفة من الشعائر رمزيتها الواضحة المميزة نظرا لارتباطها الوثيق بالشمس وبرحلتها اليومية من الشرق الى الغرب، أي انها شعائر توجيه مرتبطة بعبادة الشمس .

ومن هنا فمعظم الشعوب البدائية تؤمن بأن عالم الموتى يقع في الغرب . وجهة أو تسمية الغرب ، المشؤومة أو التابو هذه ، قد تكون متواترة أو مرتبطة بالغراب ــ النوحي ــ المشؤوم أيضا . والنطق الشائع عند رؤية الغراب ، هو غرّب ، أي اذهب الى الغرب .

وما أكثر الاسماء الاسطورية ، أو أسماء الآلهة والاصنام والطواطم التي تواترت الى أسماء أماكن وأعلام مثل : هيبة ، ونسر الذي حرّف الى نصر ، وصفر ، وجاد ، وهامان ، وهامام ، وسعد ، وسعدية ، وود الذي تواتر الى وداد ، ونفيسة ، وديان، وأمون أو أمين ، وأدون أو أدونيس ، وعوض ، وخلف ، وسامي ، نسبة الى سام بن نوح ، على عكس أخيه حام ابن اللعنة ، أو ــ الخام ــ الادنى منزلة .

* * *

وكذلك تضمين اسم الاله أو الالهة لبناته أو طائره أو طوطمه المقدس ، مثل شجرة الجميزه ــ المقدسة ــ (شجرة صخور) والتي تنسب الى الالهة المصرية الام ايزيس التي تعارف عليها العرب

(١) تيلور ــ أحمد أبو زيد ص ١٧٩ .

باسم « ايزه » أي جم ـ ايزه أي شجرة ايزه . ومثل ليمون أو ليء بمعنى ماء ـ آمون ، وزيت ـ أون أو زيتون .

كما ان أسماء الآلهة والآلهات القديمة من شمسية وقمرية وطواطم ، ما تزال تتواتر حولنا ، مثل الاله القمري ـ القط ـ بس، اله مصر وغرب آسيا .

وكانت كعبة هذا الاله دبستس المعروفة الى اليوم بالقرب من الزقازيق بوبسطه أو تل بسطه أي تل بس . ويذكر هردوت (القرن الرابع ق.م.) احتفالات أو موالد ـ المصريين ـ بجميع أو بانثيون قطط بوبسطه ، فقبل وصول الزوار اليها يعري النساء ثيابهن « ويحتفلون بالعيد ، ويقدمون أضحيات عظيمة ، ويستهلكون من النبيذ اكثر مما يستهلكون في كل العام ، ويبلغ عدد الزوار ، وفقا لقول أهل البلاد ، اكثر من سبعمائة الف من الرجال والنساء عدا الصبية » .

وقد وجدت تماثيل الاله بس ، بأعداد هائلة في فينيقيا ومستعمراتها في جزر البحر الايجي واليونان ، وقرطاجنة في تونس .

كما يذكر هردوت انه عندما كانت تموت قطة في منزل مصري، يحلق سكان المنزل حواجبهم فقط ، أما عندما يموت لهم كلب فيحلقون شعر البدن كله حتى الرأس .

* * *

ومن اسم الاله الابن اليتيم حورس ـ ورمزه العين الحارسة أو ان « العين عليها حارس » ، وما نزال الى اليوم نقول حور العين أو حوراء العين .. الخ .

ومن اسم الهة الاخصاب الجنسي للناس والبهائم عشتر ، تواتر عشار وتعشير ومعاشرة وعشرة وعشيرة .

كما ان من تسمية ـ فرج ـ المرأة ، ما يتوحد مع الفرج والتفريج ، والفرجة .

فرغم ان مشكلة المشاكل في اللغات القديمة هي المعنى ،

الا ان لغتنا ما تزال حافظة لاصولها الاولى الطوطمية ، أو الانيمية الروحية ، من ذلك كلمات تابوات ، حرم ، وتحريم ومحرمات ، وحرام ـ الحج ـ ومحروم ، وحريم ، وحرملك في العصر التركي المملوكي .

ومثل شعيرة أو أشعار وارتباطها بالشعر وقدسيته عند الساميين والآريين على السواء .

فالآريين تسموا باسم شعب بهارات ، نسبة الى الهند أرض البهارات ، وكذلك تسمت ملحمتهم العظيمة ـ ١٠٨ الف بيت من أبيات الشعر الثمانية المقاطع ـ ملحمة الماهابهاراتا أي أهل أو بلاد بهارات .

واستنادا الى نظرية سير ريتشارد تميل بالنسبة للقوانين التي تحكم اللغة ومشتقاتها والاعراب الذي تخضعه قوانين وقواعد محددة في معظم اللغات العالمية منذ عام ١٨٩٩ ، فان الاشتقاقات اللغوية تجيء تحت تأثير الاحتياجات النفسية أو العصبية ، والمادية ، والاجتماعية .

فالمعنى هو مشكلة المشاكل في اللغات القديمة . وكما يقول مالينوفسكي فان معنى الكلمات يهدف الى وظيفتها أو منفعتها أو استخداماتها . فقد اعتقد مالينوفسكي بأن هناك ارتباطا كبيرا فعلا بين اللغة ـ السحرية أو الطوطمية ـ واشتقاقاتها ، وان بنائية اللسان والتركيبات اللغوية تؤدي فعلا الىاحتياجات أو منافع عصبية ، الى جانب منفعيتها لذاتها . ومعنى هذا ان قراءة الرقى والتعاويذ ، وترتيل النصوص الدينية والتجويد وأساليبه يلعب بالضرورة دورا في أعصاب السامعين .

وكما يقول ارنست كاسيرر ، فقد تتغير العادات والافكار الدينية بمرور الزمن ، أما كلمات هذه التراتيل وايقاعها ، فانها تبقى بغير تغير على الدوام ، وعادة ما تنشد دون فهم لها .

ويلاحظ ان نصوص هذه التراتيل الشعائرية أو الدينية ، تحكم بنائية اعرابها اللغة برمتها ، وليس العكس . ومن هنا تظل

اللغة اسيرة قواعد أو بنائية النص الديني ، بدلا من أن يحدث العكس أيضا .

وكما هو معروف فان الترتيلة الدينية ، هي الحارسة الاولى للاسطورة أو مجمل الاساطير .

وأرجع البعض هذا الى عبادة الموتى وتمثل حكمة الاسلاف ، الذين تعارف الساميون على عبادتهم ، فكانوا يدفنون موتاهم من الاجداد معهم في نفس منازلهم ، وتعاملوا مع جثثهم ورممهم بأساليب حياتية ، يحادثونهم ، ويشكون لهم ، ويعرون وجوههم مقبلين ومستشيرين في كل الامور وقبل اتخاذ أي قرار : زواج ، حرب ، هجرة ، قتل ، بيع ، شراء .. الخ .

فالعرب والعبريين — خاصة — كانوا من أقدم عبدة — جثمان — الاسلاف أو التابوت ، تابوت العهد ، بل وربما كانت هناك اشتقاقية بين كلمة — تابو — أو الشيء المحرم أو الحرام ، وبين التابوت أو تابوت العهد ، بمعنى ان كلمة تابو ، كلمة أو اشتقاق سامي ، اكثر منه بولونزي ، وهو على ما تعارف عليه جميع الانثروبولوجيين الذين أرجعوا هذا التعريف الى أصله البولونزي .

ولا يمكن تصور مدى الصراعات والحروب القبائلية الطاحنة لدرجة الابادة في التنازع على جثمان آدم ، أو رأس عيسو أو العيص ابن اسحاق ، أو عصا شعيب وموسى ويوسف — وهي شارة سلفية — على طول تاريخهم الطوطمي .

بل ان كلمة حرب أو سنحارب ، منحدرة الى اليوم بنصها ومدلولها منذ أسرة أو مجموعة الملوك الاشوريين المحاربين القساة ملوك سوريا العليا الذين عرفوا بنفس هذا الاسم — سنحاريب — وقادوا سلسلة من الحروب الطاحنة ضد الامبراطورية الفارسية الايرانية منذ أن هزمهم سنحاريب الاول في ٧٠٣ ق.م. وتملك ايران ونصب ابنه سنحاريب الثاني بابل .

وتعارف الساميون من عرب وعبريين على تسمية فراعنة مصر ، باسم عون أو فرع عون ، واعتبروهم خارج النسل السامي،

وما تزال الآلاف الكثيرة جدا من حكايات وخرافات الاعوان تتواتر شفاهيا الى أيامنا هذه على طول أقطار العالم العربي .

كذلك تعارف الساميون على تحقير ملوك العراق أو نماردة بابل ، ووجد اسم — بابل — في الآثار والمدونات التاريخية الفارسية الايرانية ، منذ أن هاجمها قورش في سنة ٦١٥ ق.م .

وما يزال الاسم محفوظا الى اليوم في احدى مقاطعات أو مديريات العراق المعروفة باسم نيمرود ، وفيها كشف الحفري بولسين ، آثار نيمرود وآشور المحفوظة بالمتحف البريطاني .

ويبدو ان الكريتيون والايجيين اليونانيون عامة كانوا أول من اخترع الكفتة ، فلقد تعارف على تسميتهم المصريون القدماء منذ الدولة الحديثة — الكفتيو .

ومن المعروف ان الفينيقيين الشوام ، قد استعمروهم منذ أقدم العصور — الالف الثالث ق.م. — ويبدو انهم قد تعلموا منهم عمل الكفتة ، ولهذا تعارف الكتبة المصريون منذ العصر البطلمي على تسمية الفينيقيين أنفسهم بنفس الاسم « الكفتيو » .

كما انهم تعارفوا على تسمية ايطاليا وجنوب فرنسا باسم بلاد الغال ، أو الغول ، كما قد يكون الاسم تحريفا لبلاد — العال — على اعتبار أن اللغات السامية القديمة لم تكن تستخدم التشكيل أو التنقيط ، كذلك حرّفت حضارة أو عصر أرك — كما يسميها التوراة — الى الوركاء ، وكذلك حضارة ما قبل التاريخ المعروفة بسوس التي يرى البعض انها أقدم حضارات آسيا الغربية .

ومع اتساع رقعة وحجم الانكباب على دراسة علم الانسان الثقافي — الانثروبولوجيا — باستخدام المناهج البنائية في السنوات القريبة ، يبرز أول ما يبرز الاهتمام بدراسة اللغة ، فاللغة مجموعة مترابطة من الاوضاع الكلامية التي تراعيها وتتوارثها جماعة معينة في الكلام . فالجماعة أو المجتمع أو البلدان التي تتكلم لغة معينة، مثل الفصحى أو عامياتها ، يعتبران معا — الجماعة واللغة — من أهم ملامح البناء الاجتماعي ، فهناك علاقة حميمة أو متكافئة بين

البناء الاجتماعي واللغة . ذلك ان اللغة ما هي الا نسق أو بنية ، لها خصائصها العامة المشتركة ، وتخضع لابنية عقليـــة وقوانين اللغويات . بل أن مظاهر الزمن تخضع أيضا الى التحليل اللغوي ، وهو ما لفت اليه تومبسون عن طريق القوانين التي وضعها وتوصل اليها وورف في دراسة اللغة في مجتمع الهوبي ، والنتائج التـــي توصلت اليها الآنسة غلاديس ريتشارد عن قبائل النافاهو عـــام ١٩٥٠ ، وما أثبته نادل عن وجود علاقة بين النظم الدينية والكهنوتية والسحرية في مجتمع ما ، وبين مظاهر نموه النفسي واللغوي ، أو اشاراته ـ الكلامية ـ التي اتفق عليها بـ « الفونيمات » ، والتي أمكن حصرها بدقة في حدود بضعة آلاف ـ مقطع أو فونيما ـ .

ومن هنا يصبح من المفيد جـــدا اهتمام مراكز الفولكلور وهيئات جمع التراث ، بملاحقة الادوات والاجهزة التقنية المتقدمة التي أصبحت تستخدم بالنسبة للتسجيلات والابحاث اللغوية .

واني لأتفق مع عبد الحميد حواس في ان حقول البحث في الفولكلور والاساطير عندنا على مستوى بلداننا العربية ، ما تـزال خصبة ، خاصة من حيث هذا النسق اللغوي للعربية وأصولهـــا وروافدها وما انتهت اليه ، بمعنى انه ما يزال من الميسور بالنسبة لنا في منطقتنا العربية التوصل الى نتائج أقرب الى الدقة العلمية، بشكل أسرع وأقل مشقة مما أصبحت تعانيه مجتمعات ما فـوق التصنيع ، في الغرب عامة .

بل انه ليسرني أن أختتم ملاحظاتي حول أهمية دراسة اللغة واعادة التعرف على جذور لغتنا العربية ، بالاشارة الى بحث قصير أو فهرست نشر بمجلة « التراث الشعبي » العراقيـــة بالعددين الثاني والثالث عام ١٩٧٥ ، حول أصول بابلية لكلمات عربيـــة ، متداولة ، ليوسف داود عبد القادر ، مستندا على ظهور الطبعـــة الاخيرة للملحمة « اتراجاسس العراقية » ، أو ملحمة الطوفان البابلية التي ترجمت من البابلية الى الانكليزية عام ١٩٦٨ ، وتولى ترجمتها الاثريان الكبيران « جي. لامبرث » و « ميلارد » وألحقا بها فهرسا بالكلمات البابلية التي وردت في نص الملحمة ، رتبت حسب حروف الساكنة ، أو حسب جذور الكلمات بالنسبة الى أصلها السامي .

وعن طريق مقارنة هذه الكلمات البابلية القديمة ـ ٤ آلاف عام ـ بما يشابهها من كلمات عربية فصحى أو عامية ، يمكننا القول بأن أية محاولة لغوية علمية لوضع معجم حديث للغة العربية لا تستند الى دراسات مقارنة في اللغات السامية ، ومنها العربية ، ربمـــا جاءت عقيمة لا مجدية .

بل انه يمكن ملاحظة ان معظم ما نستخدمه في حياتنا اليومية الآن وفي هذا المكان ، **له أصوله البابلية والاكادية والكلدانية .**

ومـــن ذلك : واو العطف ، وابن ، وأبو ، ويوم ، وعين ، وعش، وأب ، وعباب ـ الطوفان أو السيل ـ وأذان أو آذان بمعنى عين وقتا ، والاذن ، وأخذ ، والاخير ، وأكل ، وايل ـ أو الاله ايل، وعلى أو فوق ، وبلد ، وعليل ، وأم ، وعم ، وعوم ، وأنا أكون ، وزمان ، وعسل ، ويشير ، وأقل ، ورمان ، وباب ، وبعل ـ أوسع آلهة الشعوب السامية ، أو الزوج ، أو رب الشيء ومالكه ـ وأنثاه البعلة ، بمعنى ربة البيت ، وبشع ، وبيت ، ويبكي ، وبكر ـ بمعنى المولود الاول فاتح الرحم ـ ، وبانوا أو يبني ، وبينو أي ابـن ، وبنيان ، وبشرى ، ويبرك ، وجليل ، ودق ، ويدلي ـ ينزل أو يدلى ـ ، ودم ، ودمع ، ويزكي ، وذكـــر ، وزمار ، وذقن ـ أو لحية ـ ، وزري أو محتقر ، ويكسب ، ويطرد ، وكل ـ أو جمع ـ وقرب ، وقرص ، وكبس ـ بمعنى ملء الشيء ـ ، وكـرش ، وقصد ، وكتم ، ولا ، ولوى ـ لواه يلويه ليا ـ ، ولت ـ بمعنى اللت والعجن ـ ، ولب ـ بمعنى قلب أو لب الاشياء ـ ، وبيت ، وميت ، وملأ ، وملك ، ومن ؟ ، ومما ، ومر ، ونون ـ أي السمكة النون ـ ، والحوت ، ونهر ، وقـــدم أو سم ، وريش ، ورب ، ورجم ، وركب ، وصلة ـ أو قرابة ومنها صلة الرحم ـ ، وناس ، ونشر ، وزق ـ زقاق ـ ونبأ ، ونحر ، ونير ـ أي الظلم ـ ، وبلل ـ أي تبلبل الالسنة ـ ، ودهر ، وداس ، وثان ، وسرق ، وذباب، وخلق ، ونكر ـ أي أنكر وتجاهل ـ الى آخر ما جاءت به هـــذه الملحمة البابلية من كلمات عربية فصحى أو عامية ، ما تزال تعيش على ألسنة شعوبنا العربية ، برغم الاربعة أو الخمسة آلاف عـــام التي تفصلنا عن البابليين .

الفصل الثالث عشر

هذا التراث الجبري السامي

واذا ما كان الهدف الاخير لهذا الكتاب وسابقه ، محاولة الدفع بدعوة اعادة تفهم هذا التراث ـ العربي والعبري ـ السامي ، الذي ما يزال يلعب دورا دافعا لحركة التاريخ ، لتحقيق أغراض ومصالح مؤكدة ، لعل أبسطها سلسلة القهر والاضطهادات والحروب المتوالية ـ تاريخيا ورياضيا ـ من اضطهادات عنصرية ، ونوعية ، وعرقية ، وتجييلية تتصل بالفواصل والمسافات بين أطوار العمر المختلفة . وهو ما نشهده أو نقرأ عنه عنيفا داميا على طول شرقنا العربي .

وقد يكون الاسترسال في التعرض لسلبيات هذا التراث هو في حد ذاته تابو أو مناطق لا يصح اجتيازها أو اخضاعها للتعرف والمناقشة . فكيف يمكن مناقشة المقدسات والتراث الخالد ، أو هو الحافظ والحارس والمهيمن على مصالح واضحة متسلطة لها تكاملها الطبقي السياسي .

وعلى هذا فلا مجال هنا للاخذ بنهج دفن الرؤوس في الرمال، ونحن نتعرض لموضوع التعرف على موروثاتنا الثقافية بهدف عقلنتها ، وفي اتجاه الامتثال لحتميات العصر العلمي التكنولوجي الذي نعيشه ، بشقيه الاشتراكي الشيوعي ، والاستعماري الامبريالي .

فلعل أبسط وأجدى ايجابيات المعرفة وتفهم هذا التراث فيه انهاء لكافة أنماط وأشكال المزالق الحضارية وأزماتها في المحل الاول بمفهومها العقلي الديموقراطي السلوكي ، منذ علاقات وممارسات الشارع على طول مجتمعاتنا العربية الاسلامية ، حتى حروبها وأزماتها السياسية . ولعل أبسطها هنا على مدى السنوات العشر الاخيرة – كمثال أقرب – هو سلسلة حروب واغارات الشرق الاوسط منذ سنة ٦٧ تتقابل وتتعاصر معها حروب شبه القارة الهندية – الاسلامية – للهند وباكستان وبنغلادش ، وهي جميعها حروب أقرب الى الهزات والتشكلات الاقليمية العنصرية ، منها الى الحروب التحررية ، ولنقل الطبقية . وبالطبع هناك استثناء واحد ، هو حالة ردود أفعال التحرر الوطني واسترداد الارض .

وبالنسبة لاستخدام هذا التراث ، خاصة جانبه الانيزمي ، على المستوى الداخلي ، فانه اذا ما أخذنا مثال واحد أقرب ، ولتكن النتيجة المزرية الملفقة لانتخابات مجلس الشعب المصري لعام ٧٦ ، والاستخدام – الدنيء – لاسلحة الارهاب الديني ، الى جانب التحالفات العرقية والقبلية العرقية ، وما من مرشح في ريف مصر ، لم يستهد بأشجار وفروع العائلة – والنسق القرابي – من سلاسل نسب وعشائر وبطون مكونة للبنيان السكاني للدوائر الانتخابية ، وبطرق تدعو الى كل تهكم ، برغم النتائج السياسية .

فلعل من منافع اعادة تفهم تراثنا هذا ، فيه انهاء واعادة تصحيح للكثير من أنماط وأشكال القهر والادانة والتجبر الطبقي والتعصب والاضطهادات بمختلف اشكالها .

من أهم هذه الاضطهادات بالطبع هو الاضطهاد النوعي ، بمعنى تفوق وتسيد الرجل الذكر على المرأة الانثى ، وما يستتبع هذا من ارث وحقوق شرعية ، وحجر وتنكيل . والذي يلعب بالتالي دوره في تخريب الاسرة ، مواصلا توالده – الذاتي – التخريبي ، بما لا نفع منه الى ما لا نهاية .

كما ان من المفيد معرفة ان اي شكل من اشكال الثورة أو

الحركة النسائية لاستعادة تعقيل وضع المرأة في بلادنا – بما يفيدها ويفيد الانتاج بعامة – سيوئدها في المهد هذا التراث السامي – الذكري – الضاغط المتجبر .

والملفت هنا ان معظم علماء المصريات ، يأسفون أشد الاسف، للوضع المتقدم الذي كانته المرأة المصرية منذ الدولة القديمة ، والذي أخذ في التدهور التدريجي في العهد المتأخر نتيجة لانفتاح مصر على تخومها السامية الاسيوية . فيترحم د. فلاندرز بيتري ، أول من أنشأ فرعا خاصا لدراسة المصريات بجامعة لندن ، وهو ما أصبح تقليدا في معظم جامعات العالم فيما بعد ، على ذلك المدى المتقدم الذي تكشف عنه برديات الدولة القديمة ، والذي واصل انحطاطه على مدى عصور اتصالات مصر بالساميين الى آخر مداه .

ولعله من الاليق تسجيل هذه الملاحظة الصحيحة بالنسبة لاحتفاظ المرأة المصرية بتفوقها النسبي على زميلتها وجارتها – العربية – سواء بالنسبة للتخلص من الحجاب ، أو المشاركة العامة في الحياة المعاصرة ، أو – حتى – بنسق التابو ، ومنه – تابو – الذبح ، من طيور وحيوانات ، وهو ما يحرم على معظم نساء مجتمعات العالم العربي ممارسته ، على اعتبار انها – أي المرأة – كائن نجس .

ولعل ثاني هذه الاضطهادات التي قد ينهيها عقلنة هذا التراث القبلي الفاشي في مجمله ، هو اضطهادات أطوار العمر المختلفة بعضها لبعض ، في مجتمع يقدس الشيخوخة ، ويركل بالتالي ما عداها من أطوار ، من شباب ومراهقة وطفولة .

ويمكن هنا ملاحظة الاشتقاق اللغوي بين مشايخ وشيخ ، وهو ما يستوجب صفة القداسة . وقد تكون مئات الالوف من الاضرحة المنتشرة في قرى مصر والبلدان العربية بالملايين ، ما هي الا مقابر لرفات شيوخ قبائل وعشائر وعائلات سالفين ، يتبرك بهم أسلافهم الى اليوم . مع ملاحظة ان السلفية ، ومرادفاتها في الشعر العربي ، البكاء على الاطلال ، يضاف اليها أغاني أو مراثي ديبورا – أول شاعرة في العبرية – وارميا ودانيال ، بالنسبة للشق الثاني

من التراث السامي ، وهو العبري . هذه السلفية أو الآفة الحضارية نقيضة الواقعية والمستقبلية ، كانت على الدوام ملمحا تراثيا ساميا، مثلها مثل القدرية والدهرية والوعيدية . وعن طريقها كان علماء ما قبل التاريخ ، الحفريون ، يتعرفون نوعياتهم الحضارية .

وعلى سبيل المثال ، يصل تقديس الساميون لموتاهم – أو أسلافهم – الى حد دفنهم معهم في بيوتهم وسكناهم أو على مقربة منها ، وذلك حتى يتسنى لهم تعرية وجوههم واستشارتهم في كل ما يعنّ لهم من تصرفات مصيرية ، كالحرب والهجرة والزواج – وهكذا . وعن طريق هذه العادة بالطبع يتعرفهم الحفريون ، مثلما حدث بالنسبة لبعثة جامعة فيينا التي عملت في الدلتا حتى وقت قريب ، بحثا عن أصل الهكسوس ، ورجحت انهم خليط قبائلي سامي متحالف .

كما ان من سلبيات هذا التراث اضطهادات وقهر أطوار العمر بعضها لبعض على طول تاريخ العالم القديم ، وكيف كان – شيوخه – يتلذذون بمصمصة عظم الاطفال . وطبيعي وبالتالي اضطهاد المراهقة – بكسر العين – منذ الصغر ، ثم تجبر التراث عامة في طاعة الوالدين .

ولعل في احتفاظ اللغة بالمكونات الاسطورية لهذا النسق – أطوار العمر – في تسميات : جد وكهل وبعل – زوج وأب – وعم ، ما يغني عن الكثير ، ذلك انها كانت أسماء ونعوت لآلهة وأصنام وطواطم سالفة في منزلة الارباب ، وهو ما يتضح اكثر بالنسبة لتراث الجزيرة العربية ، وبالتحديد تراثها الحفري منذ الالف الثالث قبل الميلاد .

ويمكن طرح مفارقة ملفتة بين ما يتملكنا عقائديا ، وما يحدث في العالم من ثورة شبابية مستقبلية ، تفرض اليوم علما جديدا تماما عن خصائص ومكوّنات واحتياجات أطوار العمر المختلفة من طفولة ومراهقة وشباب وشيخوخة يعرف بعلم الاجيال.

كما ان من ايجابيات هذا الاتجاه وهو اعادة تعرف أصول وخصائص تراثنا الفولكلوري، وفي اتجاه عقلنته انهاء للاضطهادات

العنصرية والدينية ، التي تتحين فرص انطلاقها الدموي على رقعة العالم العربي بين وقت وآخر معبرة عن مصالح وضغوط ، تجيء عبر دورات متناسقة ، وفي أوقات الحروب والكوارث القومية . بل هي في ذاتها تشكل الكيان الكلي لمختلف أبنيتنا أو أنساقنا البنائية ، ودراسة مثل هذا النسق ، لا يمكن أن تتم وتكتمل بمعزل عن دراسة بقية الانساق التي تؤلف البناء الاجتماعي بعامة.

وطبعا لا يمكن انكار مدى ثقل ما يشكله هذا التراث الغيبي اللاعقلاني كما عرّفه د. فؤاد زكريا ، أو العاطفي كما عرّفه للمرة الاولى مالينوفسكي ، من اضطهادات عصبية سامية تتمثل عند اليهود ، في شعب الله المختار ، وعندنا في الاعتصام ، واعتبارنا خير أمة أخرجت للناس كما هو مكتوب بخطوط قبيحة عند مداخل مدن الدلتا بالذات ، واللافتات الخطية لتزيين البيوت والقاعات ، ومنها قاعة اجتماعات الجامعة العربية !

ولعل في توارث هذا التراث في تكامله البنائي ، المحكم التنسيق والدقة ، والحافظ في المحل الاول لمصالح الارث والميراث والتوريث ، يقابله من الجهة الاخرى ، تكامله المحكم التنسيق البنائي مع مجاوره وهو التراث الآري – في الهند وايران – وكلاهما واصل امتزاجه وسريانه أو تدفقه الى اوروبا والعالم الجديد مع موجات وفتوحات العرب واليهود فيما بعد ، حاملا بذوره القبلية الفاشية التي أباحت شريعة – أو شعيرة – الحرب والاغارة والقتال ، دفاعا عن « التراث الخالد » وما يحرسه من مصالح ، بما يعيد الى الاذهان بشكل مؤكد عصر الحروب الدينية التي تكونت عبرها الدول والدويلات القومية ، التي فيها تشكلت النظم الرأسمالية والتي كانت تعبيرا عن تقلص وموت نظام هرم ، والآلام المصاحبة لمولد نظام جديد ، لحين مجيء عصر التنوير – القرن ١٨ – وانحسار الكثير من هذا التراث الخالد ، لكن دون أن يتخلى كلية عن مكوناته الفاشية الملازمة للاغارة والحرب ، كما سنها وأباحها بل هو فرضها التراث السامي ، للحفاظ على كلا التركيبين السفلي والعلوي أو المادي الطبقي والعلوي الثقافي العقائدي .

ولعل في شرعية الحرب القبائلية ، والذود عن الحمى ، في مرحلة العشائر المتحالفة والمهاجرة المغيرة، ما يبرره ، منذ الجاهلية — ٥ آلاف عام — وعصور الظلمات .

أما اليوم فلنا أن نتصور مدى التطـــور اللامحدود الذي صاحب تطور الاسلحة ، من عصا ومقلاع وخيول وسيوف ، الى مدافع وذرة وهيدروجين وميكروبات وأجهزة انذار مبكر .

وبحسب نهج المنظمة الدولية للثقافة وشعاراتها ، فانه اذا ما كانت الحروب تنشأ أو تومض في مخيلة البشر ، فان في الامكان اقامة حصون السلام ، وهذا يستلزم بالطبع اعادة صيغ المخيلة ، خاصة السامية ، ونظيرتها الآرية التي أبلت العالم بشرور حربين عالميتين في مدى النصف الاول من هذا القرن ، الى أن انحسرت وانكسرت شوكتها ، مسلمة دورها ومخيلتها — القبلية — لتوأمها المتاخم والمتوازي — السامية .

بل كان للسامية والساميين — الذين يدعي اليهـــود انهم طلائعها — دورهم أيضا في مسببات ودوافع هاتين الحربين العالميتين الشنيعتيـــن .

ويجيء اليوم الدور على السامية ، بعد افلاس النظريـــات الآرية القبلية الفاشية التي تبلورت في النازية الهتلرية ، التي كان أحد بلاياها ومسبباتها المفهوم اللاهوتي الغيبي في تدوين وتفهم التاريخ — الثقافي — والتي لم تنظر ابدا للفرد على اعتبار انه كائن سياسي . وان الهدف الاخير للاهوت والمنزلات والمعتقدات — قد يكون — خلاص الفرد ، لا المجتمع والدولة ، كما يرى توفيق الحكيم ويحيى حقي ولويس عوض ، ومن مدخل ومفهوم ان الهدف الاخير للتاريخ هو التوصل الى طبيعة العقل ، فالتاريخ ما هو الا صراع دائم من أجل الحرية — مرادفة العقل — التي أدرك زعيمنا الراحل جمال عبد الناصر انها — الحرية — لا تتحقق بمعزل عن التحولات الاقتصادية والاجتماعية ولقمة عيش الناس خاصة في مصر حيث مشاكل الانفجار السكاني العاتية المستعصية .

فيمكن استخلاص المسببات الفعلية التي اكتملت في النازية

الهتلرية وبؤرتها هذا التراث المتزاوج الآري السامي — الانيزمي — الروحي . وكما هو معروف فان نظرية « تحقيق الروح » ما هـي الا حركات مضادة مباشرة للعقل ، فالروحية والطوطميـة اتخذت من الدم والارض هدفا بلا معايير عقلية ، وهو ما كانتـه بالضبط هذه القبائل — الآرية السامية — التي اعتبرت ان الوجود الانساني الحق، ينحصر أول ما ينحصر في التضحية — الفداء والاستشهاد — غير المشروطة ، وما أكثرها وأبشعها عند تلك القبائل ، التضحيـة غير المشروطة بكل بكري أو فاتح رحم . بل لعله من الصعب تصور مدى التهـام هؤلاء الاسلاف لاولادهم بالحرب والواد والقتـل والاغراض ، من استجداء الحظ والمطر ، حتى أغراض تحـديد النسل البدائي ، وصراع الطعام (١) .

فهذه القبائل التي حملت ونشرت تراثها الطوطمي وخزعبلاتها عبر كل مداخل اوروبا ، بدءا من جنوبها ، الـى غربها وشمالها ، حتى هولندا والسويد ، قد حملت بالطبع تراثها هـذا الدامي .
وأورد فريزر حكاية أو خرافة عن ملك السويد الشيخ الذي أخبره عرّافوه بأنه سيموت بمـوت آخر أولاده التسعة ، فكان يضحي بقتل ابن سنويا ، الى أن قتل أو هو اغتال آخر أبنائه التسعة ، وبموته مات الملك الشيخ ، ودفن في « أبسالا » (وهي المدينـة الشهيرة حتى أيامنا في السويد) .

وهي حكاية عن قتل تسعة أبناء ، تتطابق مع ما حدث لسالفه السامي العربي لقمان الحكيم مع نسوره التسعة الذين كانـــوا بمثابة آلهته أو طواطمه ، فهو لقمان ذي نسور ، وكان يطلق على اليمن — متضمنة الشام ولبنان وفلسطين — بـلاد ذي نسور ، فكانت أنسر لقمان في منزلة أبنـائه كما يتضح من أسمائهم : خلف — والمصون — وعوض — وآخرهم النسر لبد . وبموت آخر نسوره — لبد ذاك — مات الحكيم لقمان .

والذين يموتون من مدى ثقل وخزعبلات هذا التراث السامي، للشرق الادنى القديم ، الذي حمل الى أوروبا موجات اثر موجات ،

(١) أنظر « صراع الطعام » .

يمكنهم تعرف مدى هذا الثقل من آلاف المصادر الكلاسيكية العربية منذ ابن الكلبي — هشام ومحمد — والطبري ، والشهرستاني ، وابن حجر ، وابن وحشية الكلداني ، والهمداني ، وابن اسحاق ، ووهب بن منبه ، والقلشندي ، وابن قتيبة ، وابن ديصان ، والكندي ، والدميري .

فأنت تجد في خضم هذا التاريخ الاسطوري ، أو هذه الاساطير التاريخية ، ما يهم الحفري أو الاركيولوجي ، من أطلال وآثار بقايا الحضارات اليمنية الغابرة ، منذ حضارات قحطان أو يقطان التي يعتقد بأنها هي بذاتها ما حملت فيما بعد الى اميركا اللاتينية منذ منتصف الالف الثاني قبل الميلاد الى المكسيكو وبيرو، وعرفت بنفس اسمها السامي يقطان الى اليوم .

تجد اماكن أطلال حضارات قحطان وحمير ، وعاد وثمود وجرهم والعماليق ورائش، محددة بدقة تخدم الحفري الاركيولوجي موصوفة في اليمن والجنوب العربي في كتب الهمداني ووهب بن منبه . كما تجد نفس الشيء بالنسبة لتاريخ أبو الفدا حاكم حماه — في سوريا .

كذلك يجد الباحث في الاساطير ، خصائص كل اله من آلهة أو أصنام مكة وعددها ٣٦٠ بعدد أيام السنة القمرية موصوفة بكل دقة في مؤلفات هشام وابنه محمد الكلبي اللذين عاشا في القرن الثالث الهجري — العاشر الميلادي — ووضعا موسوعتهما الهامة عن آلهة وطواطم الجزيرة العربية خاصة السعودية اليوم ، المعروفة بالاصنام .

وبالطبع يجد باحث الفولكلور ما يغنيه من حكايات وخرافات الجان والندّاهات عند كل هؤلاء بلا استثناء ، بعائلاتهم وقبائلهم وبطونهم وأفخاذهم وأسمائهم — أقصد طبقات الجن — . أما في حالة تخصصه في حكايات الحيوان والطيور والزواحف مثل الضب والجراد المباح أكلهما — كتابو — في معظم المناطق الصحراوية في الشرق الاوسط — المعاصر — خاصة الجزيرة العربية ودويلات الخليج ، بينما يحرم أكلهما نفس التابو في بعض المناطق الزراعية

والساحلية ، تجد معينا لا ينضب من أنماط هذه الحكايات — الطوطمية — التي يقال بأنها أكثر قدما من الاساطير ، عند الجاحظ ، والدميري ، **عن حكايات الحيوان والطير والنبات** والحشرات والهوام .

وبالطبع فأنت محظوظ ، لو أنك تبحث فيما انتهت اليه الحضارات السامية من سومرية وبابلية وكلدانية المعاشة في العراق، حيث بقايا سومر وجلجاميش وبابل — وسورها الشهير — ما تزال موجودة بأسمائها الى اليوم .

أما في سوريا فسيصادفك بقايا الاشوريين والكنعانيين والفينيقيين ، في رأس الشمرا ، وقادموس — اسم اله — وبانياس — اسم شاعر أسطوري أسبق من هوميروس — ثم بقايا حضارة أفاميا وتل مرديخ — أو الاله ماردوك — التي تثير باكتشافها الاخير — عام ١٩٧٣ — التفاتا علميا ملحوظا في الاوساط العالمية .

ولماذا نذهب بعيدا ، وبقايا هذه الحضارات ما تزال تعيش الى اليوم ، من اشوريين وفينيقيين وأراميين وحورانيين وسريان، بلغاتهم وأبنيتهم الثقافية والفولكلورية في عالمنا العربي ، وما تفرع منهم من ملل ونحل بالمئات ، عدّدها القحطاني والشهرستاني والنوابري وابن كمونة وابن النديم ، من مرجئية — ميدان المرجة بقلب دمشق الحالية — وزورية بدير الزور ، وحرانية — أو كلدانية، واريوسية ، وهيلانية ، وبهانية ، واسحقية ، وباقورية ، ومئانية، وعنزوية ، وأمهرية ، وديصانية ، ومهاجرية ، وشيلية ، ومغتسلة، وغيرها من بقايا الحضارات والاقوام والاقليات التي ينظر اليها اليوم ، كمواد طريفة لفرجة السياح والدارسين ، مثل السريان النساطرة بالقرب من دمشق بسوريا ، والموارنة والدروز بلبنان ، والحرانيون الكلدانيون بالعراق ، وهم أول من قسموا اليوم الى ٢٤ ساعة ، والساعة الى ٦٠ دقيقة ، كما انهم أول من سموا أيام الاسبوع بتسمياته اللاتينية الفلكية الى اليوم نسبة الى الكواكب السبع السيارة ، فجعلوا يوم الاحد للشمس وسموها ايليوس ، ويوم الاثنين للقمر — واسمه سين ، ويوم الثلاثاء للمريخ واسمه

آريس ، ويوم الاربعاء لعطارد واسمه نابق ، ويوم الخميس للمشتري واسمه بال ، ويوم الجمعة للزهرة واسمها بلتي ، ويوم السبت لزحل واسمه ـ كرونس ـ قرونس .

والذين يهونون أو هم يتعامون عن مدى الاخطار التي قد يقودنا ويعرضنا لها تراث ما قبل العلم هذا ، وهو التراث الذي لم تنكسر شوكته ، بل لم يصبه ويعتريه التغيير والتفهم الواقعي ـ كبناء من التناقضات ـ بالقدر الذي يسمح بحل أحجيته وطلاسمه ، وبالقدر ـ حتى ـ المتوائم أو المتقارب مع تغيير علاقات الانتاج الذي اعترى عالمنا ، ولعل أبسطها التحول البترولي الرأسمالي ، الذي لا يستقيم أبدا مع محاولات طبع الماضي على الحاضر ، خلال مجرى عمليات الخداع للحفاظ على ما يسمونه ـ على أحسن الفروض ـ دعاة الجبرية التاريخية والتراثية ، بروح التاريخ ، والذي ليس هو في حقيقته « سوى روح هؤلاء السادة » (١) أنفسهم كما يقول غوته في تراجيديا فاوست .

واذا ما كانت « الارض الموعودة » أو الخلاص ، يكمن في المستقبل ، بالنسبة لمفهوم المستقبلية عند توينبي وغيره مثل د. مارجريت ميد .

فان مفهوم العالم السالف أو القديم وبؤرته شرقنا العربي عن الخلاص والمستقبل، يجيء بالضرورة غيبيا أسطوريا يوطوبيا أشبه بانتظار جودو . وذلك حين « ينزل عيسى الى الارض ، وكأن رأسه يقطر ولم يصبه بلل ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويفيض المال ، وتقع الامنة في الارض ، حتى يرعى الاسد مع الابل ، والنمر مع البقرة ، والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان بالحيات » ، كما يقول الدميري وغيره من الكلاسيكيين العرب .

واذا ما كانت الانسانية التي نحن جزءا من حركتها العامة ، خاضعة تماما لقانون تطورها العقلي ، ولهذا حققت انتقالاتها ـ على كلا العالمين الشرقي الشيوعي ، والغربي الامبريالي ـ من الفكر

(١) من ملوك البترول ومشايخه .

اللاهوتي الطوطمي ـ الانيبزمي ـ الى الفكر الميتافيزيقي الفلسفي ، ثم من الفكر الميتافيزيقي الى الفكر الوضعي النفعي ، طمعا في تحقيق أقصى منفعة ممكنة ، تعود بالنفع على الناس وواقعهم ، وفي اتجاه تملك الانسان ـ العاقل ـ لواقعه وجدلية وجوده .

وعلى هذا يصبح من المفيد اعادة تفهم واقعنا والوقوف على حقيقة متناقضاته ، بنفس النهج الذي حققته المجتمعات الصناعية، وما فوق الصناعية ، منذ عصر التنوير . فهدفي الواضح من هذه الدراسات ، لا يقف بحال عند صدى الماضي وسحره وجاذبيته الخارقة ، ممثلا في الموروثات والممارسات والمقولات الفولكلورية والاساطير . أو بمعنى تأصيل الحاضر بخلفية الماضي ، حيث مولد الحضارات المصرية الفرعونية ـ خاصة الدولة القديمة ـ ونظيرتها ـ تاريخيا ـ الحضارة السومرية اللاسامية ، التيتوارثتها الشعوب السامية ـ اللغوية ـ التي اكتملت اليوم في العربية والعبرية .

وأعترف انه تراث شديد الغناء متدفق ، ذلك الذي ابتدعته مخيلة تلك القبائل السالفة القديمة التي بؤرتها وبوتقتها شرقنا الادنى القديم أو الاوسط المعاصر ، ذلك الذي انصهرت عبر بلدانه روافد كلتا المخيلتين الهائلتين ، السامية والآرية ، التي وهبت العالم المعاصر ـ عقائده الروحية الكبرى ، مثل اليهودية والمسيحية والاسلام ، بالاضافة الى البوذية والى التراثين الفارسي المجوسي، والهليني ـ الاسطوري العقلي ـ وهو ما أقيمت على أشلائهما الحضارة الرومانية والتي وجهها المعاصر أوروبا اللاتينية اليوم .

فالاغراق في سحر وجاذبية ذلك الماضي ، يوقع الباحث بالقطع ويقوده الى حيث براثن التعقب الشوفيني ، والنعرات القومية .

وهي بالطبع تلك النظرة المثالية ، التي صاحبت مولد علم الفولكلور وملازمته للطموحات القومية والاحساس العنصري والتفوق القومي ، ذلك الذي اكتمل في الدعوات السلافية والآرية ـ الهندو أوروبية ـ ووصل ذروته في النازية الهتلرية .

بل ان اهتمامي ينصب في المحل الاول على مدى انعكاس طرق وميكنزمات واحتياجات وحتميات الحياة السالفة ، على مفهوم الحياة والعالم في حياتنا المعاصرة .

ويمكن طرح السؤال على النحو التالي : الى أي مدى جاءت استجابة هذا التراث – لحتمية – التغيير والتشكل بما يحقق التوافق والاستجابة للحتميات العلمية والعقلية ، وبما يوفر المزيد من الانتاج والتقدم ، ويتواءم مع عصر ما بعد العلم أو فوق التصنيع كما يقولون ويعلنون ؟ وعلى الاقل ، ليكن هذا التساؤل مطروحا بالنسبة لعالم ما خارج – العالم الثالث أو النامي . ليكن هذا التساؤل مطروحا بالنسبة للعالم المتحضر على كلا الصعيدين الديموقراطي الشعبي ، والامبريالي .

ذلك ان تكبيل تركة الماضي الغيبية البدائية القبائلية ، المتوارثة منذ عصور ما قبل العلم والعقل ، وتوارثها من جيل لجيل – تحت تأثير العادة – ما تزال تتحكم في مخيلة شعوبنا وتطبع حياتنا – حتى – المعاصرة .

ولنتذكر جيدا مدى احباط ولا جدوى العمل الثوري في أرض هذا التراث ، ما لم نعاود الالتفات الجاد المحايد اليه .

وهو ذلك المنهج الذي بصرت به المدرسة التطورية الديمقراطية الثورية الروسية، التي وان ركزت – أو هي تمادت – في استخلاص عوامل الاحتجاج الاجتماعي والميول الثورية أو الايجابية في الفولكلور ، الا انها بصرت بمدى عرقلة هذه الموروثات التي تعيش ، وتتوالد تحت تأثير وسلطة العادة مدعمة بخدمة أغراض طبقية ، في حجم الاستعمار بل هي كل الاستعمار اليوم . وهذا هو بعينه ما يشكل أظلام وشرور الموروث من فولكلور وأساطير ، خاصة شقها الغيبي البدائي التي قامت على أساس ما عرّفه تيلور بالانيمزم ، بمعنى اضفاء صفة الروحية على الظواهر الطبيعية المحيطة بالانسان وأفعاله الشعائرية ، وفي اتجاه الامتثال لحتمية مسار التاريخ الانساني .

مع الاخذ في الاعتبار بأن تشابه المادة الخام – من بيئة

وظروف اقتصادية واجتماعية – يؤدي بالانسان الى الاستجابة للتشكيل العقائدي والعقلي ، وبالتالي السياسي .

فمثل هذه الدراسات كما يقول لينين هامة وضرورية في دراسة النفسية الشعبية في أيامنا .

ولم يكن شغف ماركس – وأنجلز بشكل خاص – ولينين ، بالفولكلور ، والاساطير ، في دراساتهم عن العائلة وأصلها، لمجرد المتعة ، بل على اعتبار انه سجل تاريخي حتمي للمعرفة بالعمل السياسي وادراك مساره ووجهته الصحيحة .

فعن طريق التحليل الجدلي – للواقع والموروث الثقافي – نصل بالطبع الى توجيه العمل الثوري توجيها سليما ، فالقوانين الطبيعية للمجتمع التي جاءت وعبرت عن غيبته ولاعقلانيته العمياء لم تجيء اعتباطا أو هي ولدت وتكاثرت ووجدت لمجرد الصدفة العشوائية كما يرى – مثلا – كراب ومعظم الدارسين الليبراليين ، فهي انما جاءت وتكاثرت وازدهرت لتؤدي وتحفظ وتقدم خدماتها لصالح الطبقة صاحبة السلطة وبالتالي أدوات – الانتاج – والثقافة، حتى ولو اقتصرت هذه الادوات – الثقافية – في العصور الحجرية والطوطمية على النص الحجري أو الشفاهي المتواتر بدأب الحفظ والتحفيظ والانشاد وسحر اللغة الشعرية – الشعائرية – التي زاوجت أو هي اشترطت توحد الكاهن بالملك بالمداح ممثلة ، وخادمة لاوضاعه الطبقية ، منذ عصور الظلمات أو الاظلام ، وهي بذاتها ما تواصل سريانها وفرض سلطتها ، لخدمة أغراض طبقية جديدة باستخدام – أدوات – الاعلام والثقافة – الجديدة – من راديو وتلفزيون . والفرق هنا ليس غامضا أو بعيدا بين شيوخ القبائل العربية البائدة والقديمة ، وشيوخها الجدد من ملوك البترول ، أو بين دعاة الاغارة والابادة القدماء ، والمتشددين – جدا – في حروب اليوم – على كلا الجانبين – ودون فهم للواقع والبقاء الموضوعي ، وما يستلزمه من توافق متواز ، بين وسائل الانتاج من ناحية ، وعلاقات الانتاج وما تتطلبه من بنيان علوي يتمثل في السياسة والتراث والفكر القائم عليهما من الناحية الاخرى .

فدفاعا عن المصالح الطبقية ، تشرع الاسلحة دفاعا عن التراث ـ الانيمزمي ـ الذي سماه كافكا بالوهم ، أو حراسة الوهم ، وبالطبع ، فان الهدف الاخير هنا هو حراسة مصالح الملوك الكهنة أو السدنة الجدد ، وكيف يقومون بتأدية شعائرهم تحت عدسات التلفزيون والصحف الصفراء ، في خدمة وكنس الكعبة سنويا ، بنفس ما عرف عن أول ملك كاهن مداح جاهلي، وهو عمرو بن لحي الجرهمي . وكان شاعر أسطوري ينسب له : « ان ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف ، ويشتو بالعزى لحر تهامة » .

ولا شك في اننا أصبحنا هنا في عالمنا العربي في مسيس الحاجة الى هجرة محققة من نقيض الى نقيض ، أو من السلفية الى المستقبلية ، أو كما يحدث في أوروبا نواصل تحولنا من الزراعة الى الصناعة ، أو من الماضي الى المستقبل . ذلك اننا ونحن ندخل مجتمع التصنيع في مسيس الحاجة الى حتميات ثقافية وعقلية موازية أو متعادلة مع مستلزمات وحتميات العصر الذي نعيشه . ربما بنفس المعدل الذي حدث بجزيرة مانوس ، في مواجهة غينيا الجديدة ، كما تقول العالمة الانثروبولوجية الاميركية د. مارجريت ميد ، وهي الجزيرة التي انتقلت من العصر الحجري الى القرن العشرين في جيل واحد .

ولما كانت الاساطير ـ في منشأها وغاياتها ـ تأليه لعناصر الطبيعة من برق ، ورعد ، ورياح ، وسحب ، ورعود جوية أي فينومولوجية ، بما يشمله التعريف من ظواهر مناخية ، واحيائية بيئية أي تأثير الظواهر المحيطة في مخيلة الانسان البدائي ، الشبيه بولد يتفتح على العالم ، وهو ما يتبدى واضحا في تراثنا القديم ، وبقاياه المسايرة في تراثنا المعاصر من اغراق في اضفاء مظاهر القدسية على الجبال وقممها ، والصحارى ومجاري الماء من بحور لآبار لعيون ماء راكدة عفنة ، لا تخلو منها مدينة أو قرية على طول مصر والعالم العربي ، ومشاع حول هذه ـ المزارات أو الاضرحة ـ من الآلاف المؤلفة من الخرافات . بل ان الصعب تصور مدى ما تسببه هذه المزارات العطنة من تدمير للصحة العامة من بدنية بخاصة وعقلية .

فيترتب على تأليه وتقديس الظواهر الطبيعية والبيئية المحيطة ، وما يستتبعه هذا من صراع النور أو الخير مع الظلام والشر ، وهو المنهج التطوري الذي اكتمل بعد الداروينية والذي أكده ، بالنسبة للانثروبولجيا تيلور ومعاصره اندرو لانج ، وفريزر، (خاصة تفسير تيلور أو سبقه الى اكتشاف مدى سيطرة العادة داخل هذه المجتمعات الغيبية ، بما يحقق ثوراتها لادق دقائق حياتها وطفولتها الاولى) ، حين أراد تفسير ظواهر الطبيعة القاسية من حولهم ، خاصة هنا في شرقنا الاوسط الحديث أو شرقنا الادنى القديم ، فلعل الاختلافات البيئية والظواهرية والجوية هي المخصب الرئيسي لهذا التراث الذي اكتملت فيه الاديان الثلاثة الرئيسية في عالمنا : اليهودية والمسيحية والاسلام .

فجغرافية المنطقة كما يشير د. جمال حمدان ، تجمع ما بين دالات الانهار في دلتا مصر والعراق ، أي المجتمع الزراعي ، الذي قدم تفسيره الازلي السائد الى اليوم عن الموت والقيامة ممثلا في أساطيره عن الآلهة الممزقة التي اكتملت في المسيحية .

والمجتمع الصحراوي المجدب القبلي ، مجتمع الاغارة واعتبار الحرب نوعا من الصيد ، وبالطبع يصل هذا المدخل القبائلي الفاشي عند الجبليين سكان الجبال .

الى حد ان تاريخ المنطقة ، قديمه وأوسطه ومعاصره ، لا يعدو أن يكون تاريخ حرب واغارة وتنكيل ممتد ، خاصة في بؤرة هذه المنطقة الشام وفلسطين ، وأينما وجدت موارد المياه او «الايلات» ـ نسبة الى ايل أو كرونس ـ ، ومنها ميناء ايلات . وبالنسبة لميناء جبل أو جبيل بلبنان الذي يتعاظم دوره السلفي المتخلف في حالة الكتائب . فهي على طول تاريخها مجال نزاع دائم للمئات من القبائل والحضارات والاجناس المتطاحنة .

ويلاحظ ان اقتصاد غرب البحر المتوسط بعامة عبارة عن بنيان مقسم الاجزاء لاقاليم ـ أو مدن دول ـ يصل فيه الجبل حتى البحر الذي يصنع كثير من الاجزاء المنفصلة المعزولة التي يوجد فيها سهول صغيرة غارقة في الجبل ، فالماء بالضرورة كان هدف

الاغارة والحرب الاول . طالما ان الارض قد تتحول الى مستنقع ان لم توضع وسائل تصريف المياه ، أو الى صحراء ان لم ترو بالماء . وعلى هذا فأساس حياة الفرد والقبيلة في الشام وفلسطين هو البستان ، وليس الحقل .

وكما يقول الجغرافي الفرنسي فرناند موريت ، فهي بلاد تجبر فيها تضاريس الارض ، سكانها على العمل والصبر والدأب ، كما انها بلاد يعتبر البحر فيها الطريق الاسهل للتجارة ، والترحال ، فجغرافية الارض المقسمة الى دويلات متناحرة ، نتيجة لحدودها الطبيعية من سهول وجبال وصحارى ، أي مناطق جفاف ، وفيضانات ماء ورياح ، ومساحات شاسعة خربة ، كل هذا فرض نظام القبيلة والعشيرة وما يتبعهما من اغارة وابادة ، وفقدان للامن ، وهو ما تبدى واضحا في أساطير وفولكلور هذه المنطقة المفرقة في القبلية العصبية ، التي عرفت شارة الصليب المعقوف قبل أن تعرفه ألمانيا النازية الفاشية ، بأكثر من ٣٠ قرنا من الزمان .

وعلى هذا فأساطير وفولكلور منطقتنا هي في المحل الاول أساطير وفولكلور القبيلة .

وبالطبع يمكن القول بأن الجسد الفولكلوري لمختلف فولكلور العالم ، هو في أدنى أشكاله قبائلي ، أو هو ما يزال الى اليوم يحتفظ بملح القبيلة . بمعنى ان القبيلة هي أدنى أشكال أي مجتمع بشري ، ومن تجمع عدة قبائل واصلت اتحادها ، تحت أقوى شعاراتها أو شعارها ، أو طواطمها أو آلهتها الى أن تصل في مجموعة القبائل — المتحدة أو المتحالفة — الى درجة الامة أو الحضارة .

ووصل البعض من أصحاب النظريات الطقسية أو الشمسية — مثل روبرت غريفز ورفائيل بتاي — الى حد الدفاع عن ان انقلابا تقويميا عاما قد صاحب معظم قبائل العالم القديم من خلال تحولها من عبادة القمر — أو الالهة الانثى القمرية — والسير بتقويمه — القمري أو الهجري — الى عبادة الشمس — أو الاله الاب الذكر —

والاخذ بتقويمها — الميلادي — فيما بعد واعتبار السنة ٣٦٥ يوما .

وذهب البعض الآخر من أصحاب النظرية الانثروبولوجية في تفسير الاساطير ، الى مدى أكثر عمومية تحت تأثير التطور — النوعي — الداروني ، والاستفادة من المادية التاريخية ، على اعتبار ان معتقدات وأفكار الناس في تطورها التاريخي تجيء — مجبرة أو حتمية — لتطور بيئتها ووسائل انتاجها وعلاقاتها الاجتماعية . أي ان تغير البناء التحتي — الاقتصادي والاجتماعي — يستوجب بالضرورة تغيير أفكار ومعتقدات وأساطير وعادات وممارسات وأخلاقيات ونظم قرابة وتزاوج وشعائر وقوى غيبية أي كل ما يتحكم في حياتهم من أبنية اجتماعية .

وعلى هذا فمجتمعات العالم القديم ، في مراحل التكون القبلي أو العشائري ، قد عاشت في مختلف البيئات والمناخات الجغرافية — من مجتمعات زراعة ورعي وجبل وبحر — والمقصود بالعالم القديم هنا هو مجموعة الحضارات والقبائل العربية أو السامية القديمة ، وهو ما يتضافر في الكشف عنه اليوم ، مجموعة مترابطة من العلوم ، أهمها طبعا علمي الانثوجرافيا ، والتاريخ .

وعن هذا الطريق يمكن تعريف الحضارات التي شهدها شرقنا الاوسط وتحديد معالم وخصائص كل منها . ذلك ان الحضارة كما يعرفها عالم ما قبل التاريخ جوردون تشايلد ، تقوم على ما يستخلصه الانسان من غذائه ومجتمعه الانساني وكافة نواحي السلوك الانساني ، من لغة ودين وفلسفة وأخلاق وقانون ، بالاضافة الى أدوات الانتاج التي يستخدمها . فعن طريق التكيف مع البيئة أو قوى الانتاج أو مصادر الثروة الطبيعية تتحدد الحضارة ، ومن هنا وبالضرورة تدين سماتها ومعالمها للبيئة وطبيعة المكان .

وهذا هو هدفنا — البيئة واختلافاتها وتنوع مصادر القوى الانتاجية ، لعالمنا العربي ، أو منطقة الشعوب السامية .

وكما سبق أن أوضحنا فان الاختلافات البيئية وبالتالي المناخية ، تظهر بوضوح على طول هذا التراث وهذه البقعة من

العالم منذ فجر التاريخ ، من صراع بين الحضارة ـ الزراعية ـ في دالات الانهار ، وبين البـداوة ومجتمعات الرعي والصيد والاغارة .

ويتركز هذا الصراع بأجلى معانيه في الاسطورة ـ الام ـ التي حددت أجناس شعوب وقبائل المنطقة السامية ، حين قدم ابني نوح حام وسام ـ بعد الطوفان ـ قربانهما الى الرب ، وكان احدهما وهو حام صاحب زرع ، والثاني وهو سام صاحب رعي ، فتقبل الله قربان صاحب الرعي ، ولم يتقبل قربان صاحب الزرع، فكان أن حقد الفلاح ـ قابيل ـ على شقيقه ـ هابيل ـ وأقدم على اغتياله .

وهي تضمينة أو فكرة أسطورية تتوالى بكثرة شديدة جدا في هذا التراث الطوطمي القبائلي .

ولعل أقدم أشكالها ـ ٣ آلاف سنة ق.م ـ جاء بها النص السومري لملحمة جلجاميش ، في صراعي جلجاميش ـ الفلاح المتحضر ـ وانكيدو ، الراعي الوحشي الذي تربى مع حيوانات الغابة وشعر رأسه كشعر امرأة .

كما وردت بنصها في صراعي ابني اسحاق : يعقوب ـ الذي سمي اسرائيل ـ وشقيقه توأمه عيسو أو العيص العربي السوري الاردني ، وموطنه الاول أرض أدوم أو الصحراء الادومية ـ التي اشتقّ منها تسمية آدم أبو البشر ـ بالاردن .

كما انها تتوالى متوارثة الى ما لا نهاية في ضواحي عرب الجزيرة العربية ، بقسميها الشمالي الرعوي العدناني أو الاسماعيلي . والجنوبي الزراعي ـ فيما قبل تخريب سدود اليمن ـ وهي ٣٠ سدا اهمها سد مأرب ـ .

كما تطل برأسها على طول التاريخ القديم السابق للاسلام ، وحتى فيما بعد مجيء الاسلام، مثل صراعي قبائل الأوس والخزرج، من فلاحين ورعاة .

بل ان هذا الصراع حول الزراعة والبداوة يتبدى بشكل

واضح جلي في معظم الملاحم والسير والاساطير ، خاصة في سيرة أو ملحمة بني هلال ، التي لا تعدو أن تكون امتدادا للصراع بين الفلاحين والبدو أو اليمنيين ـ والسعوديين ـ الى اليوم .

فأبي زيد الهلالي بدوي رعوي عدناني ، بينما خصمه الزناتي خليفة حميري أو قحطاني يمني .

لذا وعلى هذا لم يتمكن أبدا أبو زيد الهلالي ـ قاتل آلاف الابطال ـ من قتل الزناتي خليفة ، ولم يتمكن من قتله ـ كما تحفظ الملحمة أو السيرة ـ الا قحطاني أو حميري على شاكلته ، وهو دياب بن غانم ، الذي تعارف عليه الشعب المصري ، بالزغبي .

كلمة أخيرة

ترددت لفترة في اصدار وجهة نظر ، أو كلمة أخيرة ، يمكن أن تحيط هذه المجموعة من الدراسات النظرية حول تراثنا الفولكلوري والاسطوري المعاش اليوم ، والذي عن طريقه تتكيف معاملاتنا وحركتنا ومثلنا اليومية على طول هذه المنطقة العربية التي يوحدها الاصل اللغوي الواحد المتجانس ، وطبيعي وبالضرورة تعيد اللغة تشكيل وصياغة الذاكرة والوجدان ، وبالتالي هذا التراث .

ولا يمكن بحال الامساك بآفاتنا وسلبياتنا وما يفت" في عضد مأتنا ، من المحيط الى الخليج كما يقولون ، ما لم نعد النظر العاقل الى الخلف أو الوراء ، فما أحوجنا الى اعادة النظر الهادىء العاقل الى الوراء .. في غضب .

ولا يمكن بحال تحقيق ما نرجوه ونأمله من انفتاح ، ما لم نعد نعرف مواطىء أقدامنا ، أين نقف من عالمنا الذي نعيشه بضروراته وحتمياته العقلية العلمية التكنولوجية . أين نقف من اعادة تدخل وصياغة العقول العلمية الاليكترونية والتكنولوجية الا بعد الاجتهادات الادبية ـ لمثل هذا التراث الطوطمي المنحدر من الانتيكات .

وما أبلغ الثقافة الشعبية المضادة ، التي تسخر من كل ما هو فعلا أنتيكي أو أنتيكة أو متحفي أو تحفة .

يمعنى ان كل ما هو قديم ، أو سالف أصبح اليوم مدعاة للسخرية ، في عصر يحتم ممارسات وأفكارا ومقولات وميكنزمات جديدة .

ومن الصعب جدا تصور حجم الكم من موروثات العالم القديم أو عالم ما قبل العلم ، ومعايشتها لنا عبر أدق دقائق حياتنا اليومية . وان القطاع الغالب من هذا الموروث العالق أو المعايش لنا يرجع الى آلاف مؤلفة من السنين . كما لا يمكن تصور مدى السالب أو العادم الذي يسببه هذا الاستمرار ، ومدى عرقلته لطاقاتنا العقلية والابداعية والانتاجية بل والثورية .

ولنا أن نتصور ان هم" أوروبا والعالم الجديد عامة الاول ومعاناتها ، تكمن في محاولة التخلص من براثن وموروثات هذا العالم القديم ، الذي نحن بؤرته الرئيسية . هنا على أرض شرقنا العربي ، أو الاوسط .

كما ان لنا ان نتصور ، وما أشقه من تصور ، انه بينما لم نبدأ نحن بعد في نقل وهضم وتفهم ما أنجزه العالم المتحضر في مجال حركة العلوم الانسانية التي هدفها الاول بناء واستثمار الانسان ، بما يحقق توافقه وتكيفه مع حتميات العصر العلمي الذي نعيشه وما يصطرع فيه من أفكار اشتراكية ، وهي الانجازات التي حدثت على مدى القرون الثلاثة الاخيرة .

فبينما يدخل العالم الجديد مراحله المذهلة في التوصل الى مقدمات ونتائج أليكترونية في مجال دراسة الانسانيات ، لم نبدأ نحن بعد .

ففي الوقت الذي خلع العالم من حولنا أرديته ممثلة في تراثه وموروثاته الجمعية ، ووضعها في حجمها ومكانها وواقعها الصحيح ، ربما منذ ما بعد عصر النهضة الاوروبية ، والثورة الفرنسية ، وثورات عام ١٨٤٨ ، وعصر التنوير أو العقل وهو القرن ١٨ ، بظهور وأكتمال الطبقة الوسطى ، والتحول من عالم اقطاع القرون الوسطى الى عصر التنوير ، أو من عصور ما قبل العلم والعقل ، الى العقل واعادة النظر للانسان وتناوله ، على

اعتبار انه حيوان عاقل ، لكن جانبه الحيواني أعمق جذورا من جانبه العقلي .

فلقد جاء عصر التنوير أو القرن ١٨ ، بأكبر ثورة في اتجاه تسييد العقل ، والنظر للانسان على اعتبار انه نتاج طبيعي تطوري بعد دارون . ومنذ ذلك القرن الى اليوم اعتبرت العلوم الاجتماعية، متضمنة الفولكلور والاساطير فرعا من العلم الطبيعي ، بل ان البعض – ومنهم رادكليف براون – تعاملوا مع العلوم الاجتماعية، على انها العلم الطبيعي النظري للمجتمع الانساني ، أو علم المجتمعات الانسانية – أو علم دراسة الانسان وأفعاله – أو علم دراسة الثقافة ، بل وتوصلوا الى اعتبار الظواهر الاجتماعية ، أيا كانت سواء في السلوك اليومي للشارع ومطباته المقلقة لاصحاب السيارات – والاوتوبيس ، والدعارة ، أو سلسلة النسب والقرابة أو الرشوة أو العلاقات العامة ، باختصار كل ما يمكن أن يشكل ظاهرة داخل المجتمع ، مثل الامية ، والانفجار السكاني ، وأزمة المساكن ، وأزمة التعليم ، والبطالة ، كل هذه الظواهر تجيء كنتيجة مترابطة للبناء الاجتماعي المعين .

باختصار أكثر فانه اذا ما كان لكل داء دواء ، فان دواءنا وشفاءنا ، هو في اعادة التدقيق في تراثنا وعاداتنا ، في تركة الاسلاف الغيبية الطوطمية ، واعادة تعرفها – تفليتها – بنفس القدر والمعدل الذي حققه العالم المتقدم .

وطبعا توصل العالم المتقدم ، أو المستهدف للعقل ، لمثل هذه النتائج بعد الجهود المضنية التي أرساها العلماء الاجتماعيون أمثال تيلور ، ولانج ، وفريزر ، ومورجان ، وجوردون تشايلد ، ويوسف بيديه ، خاصة في موسوعته الكبيرة عن النوادر والنكت والفوازير .

فيلاحظ انه حتى النوادر والقفشات اليومية ، لها موسوعاتها ودراساتها المضنية منذ عصر التنوير . كما يلاحظ ان الاهتمام بمثل هذه العلوم الاجتماعية ، وتاريخ الثقافة ، ازدهر في أوروبا الاستعمارية ، كل هذا الازدهار، كنتيجة للدور الايجابي والتطبيقي وجانب المنفعة الذي أسدته هذه العلوم في علاج الظاهرات

الاجتماعية، وأحكام تملكها والسيطرة عليها ، من ذلك كل ما يتصل بآفات الامية ، والمساواة بين الجنسين ، وكذلك بالنسبة للجنس وتابواته أو محرماته ، وقضايا العلاقة بين المرأة والرجل والتوصل الى نتائج اكثر صحية ، واكثر ايجابية ، واكثر ارتباطا بالحضارة واثراء لها . والتفوق في برامج التربية ، والانضباطات السكانية البالغة الدقة . فمعظم الدول الاوروبية تحتفظ بأحجامها السكانية بالقدر الذي تتطلبه بالضبط ، منذ مطلع القرن الاخير حتى اليوم.

كذلك استفاد العالم المتقدم من تملكه ومعرفته بهذه العلوم ، في تفجير أقصى طاقاته الانتاجية ، وارساء القدر الكبير من التسامح . كذلك التوصل الى ميكانيزمات وممارسات جديدة متمشية مع الحتميات العلمية التكنولوجية ــ موازية لها في حركتها وثورتها العامة .

وبالطبع لا يمكن انكار ، ان جانبا كبيرا من النشاطات والنتائج التي توصلت اليها هذه العلوم ، قد سخر لخدمة الاغراض والمصالح الطبقية والاستعمارية .

فمنذ مطلع هذا القرن ، أكثرت الدول الاستعمارية من استخدام الخبراء الاجتماعيين ، وتعيينهم مستشارين في اداراتها الحكومية . ومن هنا استفادت الطبقات الاستعمارية من معارف ومهارات أولئك الخبراء ، في دراسة العلاقات الاجتماعية ، والصناعية ، والعرقية .

فمثلا عن طريق دراسة أحد علماء الانثروبولوجيا المعاصرين وهو د. شتاين ، على الفروق العرقية في الاسنان وحجم وشكل الفك ، استغلت الشركات التجارية الاميركية تصميم أطقم أسنان مناسبة ، وحققت أرباحا هائلة ، كذلك بدأ الخبراء يدرسون استعداد الجماعات البشرية المختلفة ، لتقبل أمراض معينة ، وألوان معينة ، وسلوك محدد ، وموسيقى محددة ، وافلام سينما بعينها، وكتب ، وسلع استهلاكية ، وهكذا .

ولعب الخبراء الاجتماعيون ، دورا هاما في الكشف عن

استعداد الجماعات المتباينة لتقبل سلع ومنتجات متلائمة ، مع استعداداتهم حتى لتقبل أمراض بعينها .

أي ان في الاستفادة من هذه العلوم المترابطة ، تحقيقا لمنافع ومصالح تدخل حتما في الاستثمار العام ، كذلك لعبت هذه العلوم الدور الحاسم في التبصير بعنصري الطاقة والمبادرة وأهميتهما في نقل مراكز الحضارة . وهو نفس ما حدث بالنسبة لكل من الولايات المتحدة واليابان. ففي اميركا ــ لا يغيب عن ذهن القارىء ــ انها قامت على فكرة أو ايديولوجية أميركا ، أرض وموطن العالم الجديد ، وهي الفكرة التي لم تتخلّ عنها الى اليوم ، وحاولت جاهدة خلع أردية كل ما يربطها بالعالم القديم ، بموروثاته وميكنيزماته وعاداته ومثله المكتسبة منذ عصور ما قبل العلم . وهذا بذاته هو موجز الحلم الاميركي أو الايديولوجية الاميركية القومية ، ومثل هذا الفكر وهذا التصور هو بالتحديد ما جعل من اميركا أميركا ، حيث لا جاذبية تشدها نحو الماضي التاريخي ، حتى بالقدر والمعدل الذي تكونه أوروبا عبر الاطلنطي .

ولنا أن نتصور حجم ومعدلات الاندفاع نحو المستقبل بالنسبة لهذا العالم المستقبلي الجديد ، بالمقارنة مع العالم الثالث أو العالم القديم أو عالم السلف والاسلاف .

فاستنادا على فهم شيخ المؤرخين ارنولد توينبي بالنسبة لعاملي الحضارة ، من مستقبلية يأخذ بها العالم الجديد ، في اميركا واليابان وصين ما بعد الثورة الثقافية ، ومن سلفية ، تفرق العالم القديم ، فتطغي ماضيه على حاضره ، وتحيل شعوبه الى سباحين ضد تيار ومسار الزمن .

ورغم ان توينبي ــ خاصة في آخر كتبه أو مذكراته ((خبرات)) ــ قد عمم فهمه عن المستقبلية والسلفية ، بشكل أبعد من الايديولوجيات والنظم العقائدية ، على اعتبار ان كلا من الدول الاشتراكية والامبريالية تأخذ بالقطع بالمستقبلية وتفرغها أحلامها ومخاطرها واقتحاماتها حتى للفضاء الخارجي .

أي انها راية واحدة موجزها عبادة المستقبل أو التقدم ، يقف

تحت لوائها ويأخذ بها العالم الذي تخلى عن رمم الاسلاف ، طمعا في تحقيق أقصى نفع أو تقدم وصل الى حد انكار كل شيء فيما عداه ، التقدم الذي يتغنى به الشاعر « تنيسون » :

« الا انني لا أشك ان غاية تجري متزايدة في جميع العصور
وأن أفكار الرجال تتسع كلما دارت الشموس
وما من عبث تلك الابعاد التي تفصلنا عن منارة الوصول
فلنسر قدما وليدر العالم العظيم في دروبالتغير ذاتالرنين
فان خمسين سنة في أوروبا أفضل من ألف في الصين » .

وطبعا كتب تنيسون أبياته هذه ، مبشرا الانفتاح الامبريالي، عن ان خمسين سنة في أوروبا ، تفضل ألفا في الصين ، قبل كلتا ثورتيها العظيمتين ، السياسية الاجتماعية الاشتراكية ، ثم ثورتها الثقافية ، التي انتزعت جذورها السلفية ، لتحيلها الى الصين المستقبلية .

وهذا هو بالضبط مفهوم الثورة الثقافية : نفض تراث العالم السالف أو القديم ، وهو طبعا ما لم تفعله أوروبا ـ بالقدر الكافي ـ ، ومن هنا يمكن قلب مفهوم تنيسون رأسا على عقب ، فان خمسين سنة في الصين اليوم ، تعدل ألفا في أوروبا .

اليس هذا صحيحا ؟

مراجع أجنبية

1 - Folklore and Anthropology - William . R . Bascom .
2 - Jewish Encyclopidia .
3 - Dictionary of Folklore .
4 - Brewer's Dictionary of Phrase and Fable .
5 - Judaism in Islam .
6 - Finnish Folklore -- J. and Kaarle Krohn .
7 - Dictionary of all Scriptures and Myths - G . A . gaskell .
8 - S . N . Kramer - sumerian Mythology .
9 - Semitic Mythology - New York . 1926 .
10 - The Golden Bovgh Sir . J . Frazer .
11 - Egyptian Tales . K . M . Flinders Petrie .
12 - The Dying God . Part 11 Frazer .
13 - The Ancient World . T . R . Glover .
14 - Malinowski Broniolaue , Science , Magic and religion .
15 - Evans Pritchard . Witchcraft ,oracles and Magic .
16 - Radcliffe Brown , Structure and Function in Primitive Society.
17 - Frankfort , Henri . The Birth of Civilization in the near East.

فهرست